بداية البلاغة

الدكتور السيد ابراهيم الديباجي

بداية البلاغة

الدكتور السيد ابراهيم الديباجي

تهران
١٣٨٥

سازمان مطالعه و تدوین کتب علوم انسانی دانشگاهها (سمت)

زبان و ادبیات عربی ۵

دیباجی، ابراهیم

بدایةالبلاغة /ابراهیم الدیباجی. — تهران: سازمان مطالعه و تدوین کتب علوم انسانی دانشگاهها (سمت)، ۱۳۷۸.

هفت، ۲۴۳ ص. — («سمت»؛ ۲۳۴: زبان و ادبیات عربی؛ ۵)

بها: ۱۷۰۰۰ ریال. ISBN 964-459-234-4

پشت جلد به انگلیسی: Seyyed Ibrahim Dibaji. Bidâyat-ol-balâghah.

کتابنامه: ص. ۲۴۱ - ۲۴۳؛ همچنین به صورت زیرنویس.

۱. زبان عربی - معانی و بیان. ۲. عروض عربی. الف. سازمان مطالعه و تدوین کتب علوم انسانی دانشگاهها (سمت). ب. عنوان.

۸۰۸/۰۴۹۲۷ PJ ۶۱۶۱ /د ۹ ب ۴

سازمان مطالعه و تدوین کتب علوم انسانی دانشگاهها (سمت)

بدایة البلاغة

الدکتور السید ابراهیم الدیباجي

چاپ اول: ۱۳۷۶

چاپ سوم: پاییز ۱۳۸۵

تعداد: ۱۰۰۰

حروفچینی: مؤسسه مفید

صفحه‌آرایی و لیتوگرافی: سمت

چاپ: مهر (قم)

قیمت: ۱۷۰۰۰ ریال. در این نوبت چاپ قیمت مذکور ثابت است و فروشندگان و عوامل توزیع مجاز به تغییر آن نیستند.

آدرس ساختمان مرکزی: تهران، بزرگراه جلال آل احمد، غرب پل یادگار امام (ره)، روبروی پمپ گاز، کدپستی ۱۴۶۳۶، تلفن ۲ـ۴۴۲۴۶۲۵۰.

www.samt.ac.ir info@samt.ac.ir

الفهرست

عنوان صفحه

مقدّمة
(في معرفة الفصاحة و البلاغة)

و اعلم أنّ أمر اللّفظ و المعنى شغل كثيراً من أعلام العلم و الأدب، القُدامى و المحدّثين، لما له من أهمّيّة قصوى في تقدير النّصّ و بيان منزلته و سرّ استحسانه، و لانكاد نجد عَلَماً من أعلام العلم إلّا و قد تعرّض لقضيّة اللفظ و المعنى، و أبدى فيها رأيه: فتارةً يرجع بعضهم الحُسن إلى جمال اللفظ، و أحياناً إلى عمق المعنى، و بين أولئك و هؤلاء نرى فريقاً يرجع الحُسن إلى اللفظ و المعنى جميعاً، و لعلّ هذا الرأي هو أهمّ الآراء و أرجحها على السّواء، لأنّهم لم يميلوا إلى الرأي الذي يرجّح اللفظ وحده، أو المعنى وحده، و إنّما وقفوا موقفاً وسطاً، فيعتبرون القيمة الأدبيّة في التّسوية بين اللفظ و المعنى، حيث إنّهما متّحدان وحدة لاتتجزّأ، و لا يقوم أحدهما دون الآخر، فالكلام موجود حيّ، روحه المعنى و جسمه اللفظ، فإذا انفصلا أصبح الرّوح بلا جسد و الجسد بلا روح، فيجب أن يراعى جانبهما، و لا يصحّ أن يطغى أحدهما على الآخر؛ و من مؤيّدي هذا الرأي ما ذكره ابن رشيق في كتابه «العمدة في صناعة الشعر و نقده»، فقال: «إنّهما متلازمان، إذ اللفظ جسم روحه المعنى، و من ثمّ كان ما يوصف به أحدهما يعدّ وصفاً للآخر، فإذا وصف اللفظ بالغرابة أو الابتذال كان ذلك وصفاً للمعنى الجاثم وراءه، و كذلك الشأن في المعنى إن وصف بالوضوح أو الغموض كان ذلك وصفاً للّفظ الّذي يعرضه و يجلوه، فليس اللفظ و المعنى شيئين منفصلين، بل هما مترابطان ترابط الثوب بمادّته»[1].

و لا ريب في أنّ الفنون بمختلف ألوانها تتظاهر على إبراز الجمال و التّعبير عنه بوسائله الخاصة، و الأدب هو فنّ الكلمة و الكلام، فنّ اللفظ و المعنى، فنّ التّركيب و التّعبير، و كلّ ذلك يدخل في نطاق الفصاحة و البلاغة، فالبلاغة لون من ألوان الفنّ، و صورة من صوره، تقوم على الطّبع الأصيل، و الفطرة السليمة، فليست البلاغة قبل كلّ شيء إلّا فنّاً من الفنون، و هي تحتوي على علمي المعاني و البيان، و الكلام بحسبهما فصيح باعتبار اللفظ،

---

١. العمدة؛ ص ١٢٤.

و بليغ باعتبار اللفظ و المعنى، فيجب على طالب البلاغة أن يعرف قبل الشروع في هذين العلمين، معنى «الفصاحة و البلاغة» لغةً و اصطلاحاً، لأنّ أبحاثهما ترجعان إليهما.

الفصاحة لغة و اصطلاحاً

أ) الفصاحة، تطلق في اللّغة على معان كثيرة يجمعها «البيان و الظهور»، يقال: فصح لسانه: إذا أظهر ما في نفسه على وجه الصواب دون الخطأ.

فصح الأعجميّ، و أفصح: إذا انطلق لسانه، و خلصت لغته من اللكنة، و جادت فلم يَلْحَن.

أفصح الصّبيّ في منطقه: إذا بان و ظهر كلامه و فهم ما يقوله أوان تكلّمه.

أفصح الصّبح: بدا ضوؤه و استبان.

سقاهم لبناً فصيحاً، أي: أُخذت رَغْوته، و نُزعت عنه.

أَفْصِح إن كنت صادقاً، أي: بيِّن[1].

فأنت ترى شارة «البيان و الظّهور» في الأمثال كلّها، كما تؤيّدها الكريمة: «و أخي هارون هو أفصح منّي لساناً»[2]، أي: أبيَن منّي لساناً، و أظهَر نطقاً.

ب) و الفصاحة اصطلاحاً: و هي عند أهل البلاغة، تقع وصفاً للكلمة و الكلام و المتكلّم ـ و لكلّ تعريف سيأتي ـ فيقال: كلمة فصيحة، و كلام فصيح، و متكلّم فصيح.

فصاحة الكلمة

الكلمة الفصيحة، هي الواضحة المعنى، البيّنة المفهوم، الصافية، بحيث تكون متآلفة الحروف، عذبة في المنطق، موافقة لقواعد اللغة، و إن شئت فقل: كون الكلمة بحيث تكون خالية من تنافر الحُروف، و الغرابة، و مخالفة القياس.

١. عَذْبة الكلمة (= عدم التّنافر)

و المقصود من الكلمة العذبة[3] عندهم: هي أن تكون الكلمة تسيل على اللسان، لا تعترضها

---

١. محيط المحيط؛ ص ٦٩١. ٢. القصص، ٣٤.

٣. واعلم أن العذبة تجاه الوحشيّة، و هي الكلمة المشتملة على تركيب يتنفّر الطّبع منه. فالنّسبة بين العذبة و الوحشيّة، هي التّنافي.

عوارض المخارج الصّوتيّة المتقاربة أو المتباعدة جدّاً، و لا حروفها المتنافرة، و تنساب برفق عبرجهازالإرسال، و تريح حركة اللسان، و تسهّل اللفظ عليه، فتى وصلت إلى القلب أدّت رسالتها، و فعلت فعلها المطلوب؛ سُئل أعرابيّ عن ناقته، فقال: تركتها ترعى «الهعخع»[١] و سمع البلاغيّون بهذا الجواب فحكموا على الأعرابيّ بعدم البلاغة، حيث استعمل كلمة «الهعخع» غير فصيحة لتعسّر النّطق بها[٢] فإذا كانت الكلمة متنافرة الأحرف، ثقيلة على اللّسان، لا تلائم الآذان، قالوا: هي «متنافرة غير عذبة»، فعلى هذا مقياس التّنافر عندهم، هو مخارج الحروف الصّوتيّة من جهة قربها أو بعدها، و لا رأي لأكثرهم بالنّسبة إلى الذّوق و غيره، فقالوا: ألا إنّ كلمتي «المُزْنة» و «الديمة» للسحابة الممطرة، كلتاهما سَهْلة عذبة يسكن إليها السّمع، بخلاف كلمة «البُعاق» الّتي في معناهما، فإنّها غير عذبة، لا تلائم الآذان[٣]، و مثلها كلمة «النّقاخ» للماء العذب الصّافي، و أمثال ذلك كثيرة في مفردات اللغة، و لذلك عابوا امرأ القيس في شعره:

غدائره مستشزرات إلى العلى تضلّ العقاص في مثنّى و مرسل[٤]

فقالوا لقد خرج الشّاعر على حدّ الفصاحة في استخدامه لفظة «مستشزرات» لتقارب مخارج حروفها، و يريدون بهذا البيان أنّ اللسان يتحرّك بالحروف عبر مخارج متقاربة فلايكاد يتحرّك بالحرف حتّى يضطرّ إلى الانتقال إلى حرف آخر، ليس بينه و بين سابقه إلّا مسافة قريبة جدّاً، و تلك هي الصّعوبة[٥].

و اعلم أنّهم اختلفوا في مقياس التّنافر، فقال بعضهم: الضّابط المعوّل عليه في التّنافر بُعد مخارج الحروف و قربها[٦]. و قال بعض آخر: إنّ الضابط بُعد المخارج فقط[٧] فعلى القولين إذا

---

١. المُعْخُعْ أو المِعْخَعْ: ضرب من الشجر. راجع: المعاجم اللغويّة.

٢. راجع: المطول و هوامشه. ٣. نفس المصدر.

٤. غدائر: جمع غديرة، و هي الشعر المنسدل من الرأس إلى الظهر، و الضّمير فيها عائد إلى «الفرع» في البيت السّابق. مستشزرات، أي: مرتفعات من استشزره، أي: رفعه. تضل، أي: تغيب. العقاص: جمع عقيصة، و هي الخصلة المجموعة من الشعر تجمعها المرأة و تجعلها في وسط الرأس ليصير مجعّداً. المثنّى: أي: الشعر المفتول. المرسل: و هو خلاف المثنّى.

٥. و الحقّ أنّ الحاكم فيها هو الذّوق السّليم ـ كما سيأتي بيانه ـ

٦. هذا الرأي منسوب إلى الخليل كما نقله الباقلاني في إعجاز القرآن؛ ص ٢٧٠.

٧. القائل به هو «الخفاجي» في كتابه سرّ الفصاحة؛ ص ٤٠ ـ ٥٠.

كانت حروف الكلمة قريبة المخارج أو بعيدة، كانت الكلمة متنافرة. أمّا المحقّقون منهم، قالوا: إنّه لو أراد المتكلّم أو النّاظم أو النّاثر أن يَعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ، و هل هي متباعدة، أو متقاربة لطال العمل في ذلك و عسر و لما كان المتكلّم قادراً على التّكلّم، و لا الشّاعر على أن ينظم قصيداً و لا الكاتب على أن ينشئ كتابا إلّا في مدّة طويلة. و الحقّ أنّ التّنافر يحصل من مجموع أمور توجب عسر النّطق، و كراهة السّمع، و نفور الذّوق السليم الّذي هو الحاكم في هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ، و قبح ما يقبح، فحسن الألفاظ و قبحها ليسامن تباعد المخارج و تقاربها فقط، لأنّ كثير ما يجيء في المتقارب المخارج، ما هو حسن رائق، مثل: شجرة، شجى، جيش، و كذلك في المتباعد المخارج، نحو: عَـلِمَ، حَـلُمَ، غَلَبَ، بَلَغَ، فكلّ ما عدّه الذوق السّليم[١] ثقيلا متعسّر النّطق، فهو متنافر، سواء كانت تلك الكلمة مركّبة من قرب المخارج، أو بعدها، فاللسان يجري، و السّمع يحسّ، و الذّوق الصّحيح يدرك لطائف الألفاظ و وجوه تحسينه، سواء كان ذلك الذّوق بحسب السليقة، أو بـطول خدمة هذا العلم و توابعه، فليس الضّابط في المقام، قرب المخارج أو بعدها فقط، لأنّ شيئا منها لا يطّرد.

و ممّا ذكرنا نستنتج أنّ الفصيح من اللفظ هو الظّاهر البيّن، و إنّما كان ظاهراً بيّناً، لأنّه مألوف الاستعمال، و كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه، و حسنه مدرك بـالأمور الّـتي ذكرناها، و الّذي يدرك بها إنّما هو اللفظ، فما استلذّه السّمع، و سهل على اللسان، و اختاره الذّوق السّليم فهو «الحسن»، و ما كـرهته، فـهو «القـبيح»، و الحـسن هـو المـوصوف بـ«الفصاحة»، و القبيح غير موصوف بها.

٢. مؤانسة الكلمة (=عدم الغرابة)

يطلب علماء البلاغة من الكلمة أن تكون مألوفة الاستعمال، مفهومة لدى سامعها أو قارئها، فإن لم تكن غريبة الاستعمال، وحشيّة المضمون، قالوا: هي «مأنوسة الاستعمال»، لاتوصف بالغرابة[٢] و الوحشة، و متى وصفوها بالغرابة أرادوا: كون اللّفظ غريبا ليس بينه و بين سامعه

---

١. راجع: جواهر البلاغة؛ ص ٤١.

٢. و اعلم أن الغرابة تقابل «الاعتياد» و هي كون الكلمة مشهورة الاستعمال، و مأنوسة، أي: ظاهرة المعنى، و النسبة بين الغرابة و الاعتياد، هي التّنافي.

أو قارنه أنس و لا ألفة، إذ العين و الأذن تستأنسان بالقريب و تستوحشان عن الغريب.

و اعلم أنّ الغرابة في الكلمة قد توجد من ناحية اللفظ، و قد تكون من جانب المعنى، فقسّموها قسمين:

القسم الأوّل: هو اللفظ الذي لا يكثر استعماله عند أهل اللّسان و لا سيّما الفصحاء منهم، فيعدّ غريبا غيرمعروف، و قد تموت الألفاظ مع الأيّام لقلّة استعمالها، فلا يعرفها إلّا المتمكّنون من اللغة، الواقفون على أسرارها، فيحتاج في معرفة معناها إلى تتبّع اللّغات و استخدام المعاجم و قواميس اللّغة المبسوطة، نحو كلمة «مُشْمَخِرّ» في قول بِشْرِ بن عَوانة يصف بها الأسد حين لقائه:

فخرّ مُدَرَّجاً بِدَم كَأَنّي هدمتُ به بِناءً مُشْمَخِرّاً

اِشْمَخَرَّ على وزن اِقْشَعَرَّ بمعنى: ارتفع، و كلمة «اِقْمَطَرَّ» مثلها في الغرابة و الوزن، يقال: اِقْمَطَرَّ يومُنا، أي اشتدّ، و منه أيضاً: تَكَأْكُؤ، أي الاجتماع، و إفْرِنْقاع، أي: الانصراف، و جَحْلَنْجَعْ (لم يذكروا له معنى)، و الإسْفِنْطُ حرام، أي: الخمر، و هذا الخَنشَليل صقيل، أي: هذا السيف، و أسمع جَعْجَعَة و لا أرى طحناً، مثل يضرب لمن يقول و لا يفعل، و هكذا كلمة «جَحِيش» بمعنى الفريد برأيه، المستبدّ بأمره، الذي لا يشاور النّاس في رأيه؛ أليست هذه الأخيرة بمعنى فريد؟ و هذه لفظة حسنة رائقة، و تلك مستكرهة غريبة، و كذلك «جَفَخَ» بمعنى فَخَر و تكبّر.[1] فهذه الكلمات و أشباهها مختلفة فيها الآراء و الأذواق: ذهب بعض إلى غرابتها مطلقاً، و بعض إلى أنّ استعمال بعضها في النّظم أحسن منه في النّثر.

القسم الثّاني: الغرابة الّتي توجد من ناحية المعنى، و هي الّتي تجعل القارئ أو السّامع في حيرة من أمر المعنى الذي يلصق بلفظة ما لتردّدها بين معنيين أو أكثر بلا قرينة، أو احتملت الكلمة وجوها مختلفة من المعاني و لوازمها، بعضها قريبة من الذّهن و بعضها بعيدة عنه و لا يمكن الوصول إلى المقصود منها بسهولة و تحتاج في تصحيح معناه و تعيينها إلى أن يخرج لها من الوجوه المحتملة وجه مناسب، نحو: «مُسَرَّج» من قول رؤبة بن العَجاج:

وَ مُقْلَةً و حاجِباً مُزَجَّجاً وَ فَاحِماً و مَرْسِناً مُسَرَّجاً

فلا يعلم ما أراد بقوله: «مُسرَّجاً» حتّى اختلفت أئمّة اللغة في تخريجه، فقال ابن دُريد: يريد أنّ أنفه في الاستواء و الدّقّة كالسيف السريجيّ. و قال ابن سِيْدَه: يريد أنّه في البريق و

---

١. جواهر البلاغة؛ ص ١٢ ـ ١٤ والمدرّس الأفضل...؛ ج ١، ص ٤٥٠ ـ ٤٥٥.

اللمعان كالسّراج، فلهذا يحتار السّامع في فهم المعنى لتردّد الكلمة بين معنيين بدون قرينة تُعيّن المقصود منها[1]، و هذه الحيرة هي موطن الخطأ، و هي الّتي أبعدت الصّورة من إطار البلاغة المنشودة، فليس يدري القارئ أيقصد الشاعر أنفاً مضيئاً كالسّراج أم أنفاً دقيقاً كالسيوف السريجيّة، و مثله قول الشاعر:

لو كنتُ أعلمُ أنّ آخر عـهدكم يوم الرّحيل فعلتُ ما لم أفـعل

فليس بمعلوم ماذا أراد الشاعر بقوله: «فعلت ما لم أفعل» أكان يبكي إذا رحلوا؟ أم كان يَهُمُّ على وجهه من الغمّ الذي لحقه، أم يتبعهم إذا ساروا، أم يمنعهم من المضي على عزمة الرّحيل[2].

٣. موافقة القياس

لكلّ لغة من لغات العالم قواعد في الصّرف و النحو، لا يجوز لمستعمليها أن يعبثوا بها أو يخالفوها إلّا في حالات اضطراريّة بسيطة و قليلة جدّا، فالأصل أن يأتي الكلام مراعياً لقواعد، موافقاً لجوهرها فإذا خرج عن قوانينها عدّ مخالفاً للفصاحة، لأنّه يشوّه جمال اللفظ، و قد يسبب أيضا الاضطراب في المعنى، فعلى هذا أرادوا بقولهم : «مخالفة القياس»:

هو كون الكلمة شاذّة غير جارية على القانون الصّرفي المستنبط من كلام أهل اللغة بأن تكون على خلاف ما ثبت فيها عن العرف الصّحيح، نحو: «الأجلل» في قول أبي النّجم:

الحمدللّه العليّ الأجلل الواحد الفرد القديم الأوّل

فإنّ القياس الصرفيّ «الأجلّ» بالإدغام، و كذلك كلمة «بُوقات» في قول المتنبّي حين مدح سيف الدّولة:

فإن يك بعض النّاس سيفاً لدولة ففي النّاس بوقات لها و طبول

لأنّ البوق يجمع على «أبواق» عند الفصحاء منهم كثيرا و جمعه على «بوقات» شاذّ، و هكذا قولهم: «ملابس رجاليّة و أمور أخلاقيّة» لأنّ النسبة إلى المفرد تكون أولى منها إلى الجمع، و قولهم أيضاً: «أنا أحترم فلاناً كإنسان و لا أحترمه كشاعر» و معناه، أنّ فلاناً يستحقّ الاحترام لصفاته الإنسانيّة، و لا يستحقّ الاحترام في شعره لرداءته، فالعبارة

---

١. جواهر البلاغة: ص ١٠.

٢. نفس المصدر: ص ٩ ـ ١٠.

الفصيحة هنا أن تقول: «أنا أحترم فلاناً إنساناً و لا أحترمه شاعرا» لأنّا لا نرى وجها فصيحا لاتيان الكاف في الجملة الأولى[1].

و اعلم أنّه يستثنى من ذلك ما ثبت استعماله في العرف الفصيح و اشتهر عندهم و إن كان مخالفاً للقياس كلفظتي: «المَشْرِق و المَغْرِب» بكسر الرّاء في اللغة العربيّة، و القياس فتحها فيها، و كذا كلمتا: «المُدْهُنْ و المُنْخُل»، و القياس فيها «مِفْعَل» بكسر الميم و فتح العين، و هكذا نحو قولهم: «عَوِرَ»، و القياس: (عَارَ)، وَ اسْتَحْوَذ، و القياس: إِسْتَحَاذ.

و قد اشترطوا في فصاحة الكلمة أموراً أخرى كخلوّها من الكراهة في السمع، و من الابتذال و غيرها، و لا نذكرها هنا اختصارا، و اندراجاً بعضها في الشّروط المتقدّمة.

الأسئلة و التّمارين

أ) أسئلة على الفصاحة و على فصاحة الكلمة، يطلب أجوبتها:

١. ما هي الفصاحة لغة و اصطلاحاً؟

٢. ما الذي يوصف بالفصاحة؟

٣. ما الذي يخرج الكلمة عن كونها فصيحة؟

٤. ما هي فصاحة المفرد؟

٥. ما هو تنافر الحروف، و إلى كم ينقسم؟

٦. ما هي الغرابة و ما موجبها؟

٧. ما هي مخالفة القياس؟

٨. ما الفرق بين مخالفة القياس الصّرفي و بين مخالفة القياس اللغويّ؟

ب) ما الذي أخلّ بفصاحة الكلمات فيما يلي:

١. مهلاً[2] أعاذل قدجرّبتُ من خلقي ... أنّي أجود لأقوام و إن ضَنِنُوا

٢. فأيقنت أنّي عند ذلك ثائر ... غداتئذ أو هالك في الهوالك

٣. و ملموسة سيفيّة ربعيّة ... يصيح الحصا فيها صياح اللقالق

٤. حلفت بما أرقَلَت حوله ... هَمرجلةٌ خَلقُها شَيْظم

٥. و ما شبرقت من تَنُوفيّة ... بها من وحى الجنّ زيزيزم

---

١. البلاغة و التّحليل الأدبي؛ ص ٣٨ـ٤٠.

٢. و قد روى مثلاً.

٦. يــوسّطه المــفاوز كــلّ يــوم طِـــلاب الطّـــالبين لا الانــتظار
٧. ثمّ و إن لم أنم كَـراكَ كَــراكــا شــاهدي الدّمــع إنّ ذاك كــذاكــا
٨ . لا نشب اليــــوم و لا خــــلّة اتســـع الفـــتق عـــلى الرّاقـــع
٩. و من النّاس مـن تجـوز عـليهم شـــعراء كأنّهـــا الخـــازِ بـــازُ

ج) ميّز الكلمات الفصيحة من غير الفصيحة فيا يأتي :

١. قال امرؤ القيس: ربّ جَفْنَةٍ مُثعَنجِرة، و طعنة مُسْحَنْفِرة، و خطبة مُسْتَحْضَرة، و قصيدة مُحَبَّرة، تبقى غداً بأنقرة.

٢. قال بعضهم: علمي إلى علمك كالقرارة في المُثْعَنْجِرة.

٣. شكَتْ امرأة صَمَعْمَعَة الرأس، مُتَعَشكلة الشّعر، دَرْدَ بيساً حَلَتْ بها.

٤. سَأل كوفيّ خياطاً عن فرس و مُهر فقدهما فقال: يا ذا النّصاح، و ذات السّمّ الطاعن بها في غيروغي لغير عِداً: هل رأيت الخيفانة القبّاء، يتبعها الحاسن المرهف.

٥. كلما قرُبتْ النفس من المال شبرا بَعُدتْ عن الفضيلة ميلا.

د) بيّن ما أخلّ بفصاحة الكلمات فيا يأتي:

١. إنّ بَــنِيَّ لَـــلِئام زَهَــــدَهْ ما لِـي في صـدورهم مـن مَـوْدَدَهْ
٢. نـعم مــتاع الدنــيا حـباك بـه أورع لا جَــيْدَرٌ و لا جِـــبْش
٣. نـــقيّ تـــقيّ لم يكــثّر غــنيمة بـــنكهة ذي القــربى و لا بحَــقَلَّد
٤. فلا يُبرَم الأمر الذي هـو حـالل و لا يُحْــلَل الأمـر الذي هـو يُـبرم
٥. و ما كـان حـصن و لا حـابس يــفوقان مِــرداسَ في مجـمع
٦. و جـــبريلُ أمـــين اللّـــه فـينا و روح القـــدس ليس له كــفاء
٧. لهـــا أشـارير من لحـم متمّرة مـــن الثعالي و وخـز مـن أرانـبها
٨ . ألا لا أرى إثنين أحسن شِيَمة على حدثان الدهر منّي و من جُمْل
٩. و إذا الرّجال رأوا يـزيد رأيـتهم خـــضع الرّقـاب نـواكس الأبـصار
١٠. و أكره أن يـعيب عـليّ قـومي هـــجاي الأرذلين ذوي الحـنات
١١. مــتحيّرين فـباهت متعجب ممّــــا يـــرى أو نــاظر مـــتأمّل
١٢. تنفي يداها الحصا في كلّ هاجرة نـــفي الدراهـــيم تـــنقاد الصياريف
١٣. يشقّ عـليه الرّيح كـلّ عشيّة جــيوب الغـمام بـين بكـرو أيّم
١٤. و جناح مقصوص تحيّف ريشه ريب الزّمـــــان تحــيّف المــقراض

هـ) هل الكلمات التّالية فصيحة؟

قُدمُوس، أعْزز، عَنْقِفير، خنفيق، جَرْ دَحَل، مُسْحَنْفِرة، مُلِل، اِطْلَخَمَّ، دهـاريس، اِنْـقَوَدَ، مَبُوع، صَمْغَمَعَة، خَوِف، اِسْمخرَّ، يَدَعُ.

فصاحة الكلام

كما أنّ للكلمة المفردة فصاحة، كذلك للكلام فصاحة أيضا، فكيف تكون فصاحة الكلام، و ما هي مقاييسها؟

الكلام الفصيح، هو: التّعبير الواضح المعنى، و اليسير عند النطق به، و الخالي مـن التعقيد و من الإعادة و التّكرير، فعلى هذا يشترط فصاحته فضلاً عن جريان كلماته على مقياس الفصاحة، أن يسلم من ضعف التّأليف، و من تنافر الكلمات، و من التّعقيد و من كثرة التّكرار:

١. تآلف الألفاظ (=عدم التّنافر)

لا ريب في أنّ بعض الأحوال تكون اللفظة المفردة يسيرة النـطق، سـيّالة عـلى الأذن و اللسان، ولكنّها إذا وصفت إلى غيرها نشأ عنها ثقل في اللسان، و اضطراب في اللـفظ، و يحدث ذلك في الغالب إمّا بتوارد ألفاظ متقاربة الحروف أو متقاربة المخارج، و إمّا بتكرير كلمة واحدة ـ و كان الذّوق السّليم حاكما في المقامين ـ فينقسم إلى قسمين:

أ) «تنافر الكلمات مجتمعة»: و هو أن تكون الكلمات ثقيلة على السمع من تركيبها مع بعضها عسرة النطق بها مجتمعة على اللسان، و إن كان كلّ جزء منه على انفراده فصيحاً، نحو:

و قـبر حـرب بمكـان قـفر و ليس قُرْبَ قـبر حـربٍ قـبرُ[١]

فهذه القافات و الرّاءآت، كأنّها في تتابعها سلسلة، و لاخفاء بما في ذلك من الثّقل[٢]، و من ذلك ما ورد في قول الحريريّ من مقاماته:

---

١. المطول؛ ص ١٥.

٢. و قد ذكروا أنه من أشعار الجنّ و أنه لايتهيّأ لأحد أن ينشده ثلاث مرّات (البيان و التّبيين؛ ص ١ و ٦٥).

وَازْوَرَّ مـــن كـــان له زائـــراً　　　و عاف عـافِي العـرف عـرفانه[١]

فقوله: «عاف عافي العرف...» من التّكرير المشار إليه.

ب) هو التّنافر الذي يوجد من تكرير اللفظ الواحد، كقول أبي تمام:

كريم إذا أمدحه، أمدحه و الورى　　　معي و إذا مالمته، لمـته وحـدي[٢]

فنشأ الثّقل هنا تكرير كلمتي: أمدحه و لمته، و ليس ناشئاً من اجتماع الحاء و الهاء في كلمة «أمدحه» ـ كما توهّمه بعض ـ فإنّ اجتماعهما فصيح لوروده في كلامهم، على أنّه يوجد في الكريمة: «و من اللّيل فـسبّحه».[٣] و منه أيضاً:

لو كنتَ كـتمتَ السرَّ كـنتَ كـما　　　كنّا و كنتَ ولكـن ذاك لم يكـن[٤]

٢. قوّة التّأليف

و اعلم أنّ الفصاحة لا تكون إلّا في جمل سليمة اللغة، صحيحة التّركيب، فإذا أخلّت بقواعد اللغة كانت عديمة الفصاحة لما يشوبها من عيب و نقصان، نـاهيك بأنّ مخـالفة الأصـول النحويّة قد تؤدّي إلى التّباس المعنى و إلى عدم معرفة الصّحيح من غير الصّحيح، و على هذا «ضعف التّأليف» هو أن يكون الكلام جاريا على خلاف ما اشتهر من قوانين النحو المعتبرة عند جمهور النّحاة كعود الضّمير إلى متأخّر لفظاً و رتبة فإنّ أكثر النحويين لا يجوّزه، مثل: ضَرَبَ غُلامُه زيداً فإنّ الفصيح من الكلام هكذا: ضَرَبَ زيداً غُلامُه ـ كما تراه في الكريمة: «و إذا ابتلى ابراهيمَ ربُّه»[٥].

و لذلك عاب بعضهم قول حسّان بن ثابت حيث يقول:

و لو أنّ مجدا أخلد الدّهر واحـدا　　　من النّاس أبقى مجده الدّهر مُطعِما

فإنّ الضمير في «مجده» راجع إلى «مطعما»، و هو متأخّر في اللفظ كما ترى، و في الرّتبة، لأنّه مفعول به، و العربيّة الفصحى تفرض التّقدّم لمن حقّه التقدّم، و التأخّر لمن حقّه التأخّر و

---

١. عافي العرف: طالب المعروف. يقول الشّاعر: انحرف عـنه مـن كـان يـزوره، وكـره طـالب الإحسان معرفته (راجع: المدرس الأفضل...؛ ج ١، ص ٤٩٤).

٢. يقول الشاعر: هو كريم، فإذا مدحته و افقني النّاس على مدحه و يمدحونه مـعي، و إذا لمـته لم يوافقني أحد على لومه لعدم وجود مقتضى اللوم فيه (المطول؛ ص ١٥).

٣. الطور، ٤٩.

٤. البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد؛ ج ١، ص ٣٩.

٥. البقرة، ١٢٤.

تطلب استواء التّعبير و التّفسير، و وضع كلّ شيء في مكانه، و المعنى، أنّه لو كان مجد الإنسان سبباً لخلوده في هذه الدّنيا لكان مُطعِم بن عدي (و هو الممدوح) أولى النّاس بالخلود، لأنّه حاز من المجد ما لم يحُزْه غيره.

و من الإخلال بفصاحة الكلام وصل الضميرين، و تقدّم غير الأعرف منهما على الأعرف، مع أنّه يجب الفصل في تلك الحالة، مثل قول المتنبّي:

خلت البلاد من الغزالة ليلَها   فأعاضَهاكَ اللّه كي لا تحزنا

فتقديم ضمير الهاء على كافه مع وصلهما يعدّ من الشّواذ و غير فصيح[1].

٣. وضوح المعنى (= عدم التّعقيد)

التعقيد، هو كون الكلام معقّدا، خفيّ الدلالة بحيث لا يفهم المراد منه أو يفهم ولكن بعد مشقّة و عسر، فكلّ كلام غير واضح المعنى لا يكون فصيحا في حال، و قد يتأتّى من تركيب الجملة، و وضع الألفاظ في غير المواضع المناسبة لها، فالتعقيد إذن من آثار الإخلال بقواعد اللغة بمعناها الواسع و عدم تطبيقها. فعلى الشّاعر أو النّاثر لكي يستقيم كلامه، و يتّضح معناه أن يلتزم بمراعاة قواعد اللغة، و ملاحظة تطبيقها، فإذا أخلّ بذلك فقد ضيّع حلاوة الكلام و أجهد السّامع في فهم المراد[2].

فعلى هذا ينقسم التّعقيد إلى قسمين: لفظيّ و معنويّ:

أ) التّعقيد اللفظي: و هو تعقيد في نظم الكلام، حيث تكون الألفاظ غير مرتّبة على وفق ترتيب المعاني، فتوجب خفاء الدّلالة على المعنى المراد به، كقول الفرزدق في مدح ابراهيم بن هِشام المخزومي، خال هِشام بن عبدالملك بن مروان:

وَ ما مِثلُهُ في النّاس إلّا مُمَلَّكا   أبو أُمِّه حيٌّ أبوه يُقارِبُه[3]

أراد الشّاعر أن يقول: ليس في النّاس أحد يشابه ابراهيم في الفضائل إلّا المملّك الذي أبو أمّه (أي أمّ ذلك المملّك)، أبوه (أي ابو ابراهيم الممدوح)، و المراد بالمملّك، هو هشام بن عبدالملك الذي كان ابن أخت ابراهيم الممدوح. و لا شك أنّ هذا تعسّف في القول و تكلّف في التّركيب فأخرج الكلام عن الفصاحة؛ قال المبرّد عن هذا البيت: «إنّه أقبح

---

١. جواهر البلاغة؛ ص ٢٣ و البلاغة الواضحة؛ ص ٦.

٢. فن البلاغة؛ ص ٦٩ـ٧٠.   ٣. المطول؛ ص ١٦.

الضرورة، و أهجن الألفاظ، و أبعد المعاني، و قد هجنه بما أوقع فيه من التّقديم و التأخير، و كأنّ هذا الشعر لم يجتمع في صدر رجل واحد...»[١]، و قد عاب الشاعر كثير من مهرة الفنّ كابن جنّي[٢] و أورد عليه مثل ما أورده المبرّد. و قد ارتكب الشّاعر في ذلك خلافات عديدة منها:

١. الفصل بين المبتدأ (أبو أمّه)، و الخبر (أبوه) بالأجنبيّ (حيّ يقاربه).

٢. الفصل بين الموصوف (حيّ)، و الصّفة (يقاربه) بالأجنبيّ (أبوه).

٣. تقديم المستثنى (مملّكا) على المستثنى منه (حيّ)، و لهذا نصب المستثنى، و إلّا يمكن رفعه أيضا.

و من هذا التّعقيد أيضا ما أنشده ابن الأعرابي:

فأصبحت بعد خطّ بهجتها   كأنّ قفرا رسومها قلما

و هو يريد: فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأنّ قلماً خطّ رسومها، فقدّم و أخّر و فصّل بين الكلمة و ما يتّصل بها، و نحو ذلك ممّا لا يجوز لأحد القياس عليه[٣].

ب) التّعقيد المعنوي: و النّوع الثّاني من التّعقيد، يكون في الانتقال من المعنى الظّاهر للّفظ إلى المعنى المقصود منه، و هذا الانتقال الذهنيّ من المعنى الأوّل للثّاني لا يوجد إلّا بعد عناء و تفكير طويل، و لا شك أنّ هذا يؤدّي إلى خلل في انتقال الذهن من المعنى الأصليّ إلى المعنى المقصود بسبب إيراد اللوازم البعيدة، المفتقرة إلى وسائط كثيرة، مع عدم ظهور القرائن الدّالة على المقصود، كما في قول عباس بن الأحنف:

سأطلبُ بُعد الدّار عنكم لِتَقرُبُوا   و تسكُبُ عيناي الدُّموعَ لِتَجمدا

جعل سكب الدّموع كناية عمّا يلزم في فراق الأحبّة من الحزن و الكدّ، فأحسن و أصاب في ذلك، ولكنّه أخطأ في جعل جمود العين كناية عمّا يوجبه التّلاقي من الفرح و السّرور بقرب أحبّته، و هو خفيّ و بعيد، لأنّ الانتقال من جمود العين ــ أى جفافها ــ إلى حصول السّرور بعيد و يحتاج إلى وسائط بأن ينتقل من جمود العين إلى انتفاء الدّمع منها حال إرادة البكاء، و منه إلى انتفاء الدّمع مطلقا، و منه إلى انتفاء الحزن و نحوه و منه إلى السرور. و لا يخفى أنّ الشاعر قد حذف جميع هذه الوسائط. و المراد: أنّه يرضى بالبُعد و الفراق و يعوّد نفسه على

---

١. الكامل؛ ج ١، ص ١٨.   ٢. الخصائص؛ ج ٢، ص ٢٩٢.

٣. فنّ البلاغة؛ ص ٧٠.

مقاساة الأحزان و الأشواق و يتحمّل من أجلها حزنا يفيض من عينيه الدّموع ليتوصّل بذلك إلى وصل يدوم و مسرّة لا تزول، و هكذا كلّ الكنايات الّتي تستعملها العرب لأغراض، و يغيّرها المتكلّم، و يريد بها أغراضا أخرى، يعتبر خروجا عن سنن العرب في استعمالاتهم، و يعدّ ذلك تعقيدا في المعنى حيث لا يكون المراد بها واضحا[١].

٤. كثرة التّكرار

و التّكرار، هو ذكر الشيء مرّة بعد أخرى[٢]، بأن يذكر الشيء ثانيا و ثالثا و رابعا و هكذا بغير فائدة، سواء كان ذلك الشيء المكرّر اسما أو فعلا أو حرفا أو جملة، و سواء كان الاسم ظاهراً أو ضميراً، و من ذلك، قول المتنبّي:

و تسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد[٣]

فإنّ الضمائر المتكرّرة في الشطر الثاني من الشعر كلّها لسبوح أي (الفرس)، و يقصد الشاعر من هذا الكلام أنّ لهذه الفرس السبوح من نفسها علامات شاهدة على نجابتها. و من أمثلة ذلك أيضاً:

إنّي و أسطار سطرن سطرا لقائل يا نصرُ نصرٌ نصرا[٤]

و فيه ما لا يخفى.

---

١. المطول؛ ص ١٦ و جواهر البلاغة؛ ص ٢٤ـ٢٦ و المدرس الأفضل...؛ ج ١، ص ٥١٦ـ٥٤٠.

٢. «التكرار عبارة عن الإتيان بشيء مرّة بعد أخرى» (التعريفات؛ ص ٥٨) «المراد بكثرة التكرار هنا مافوق الواحدة، فذكر الشيء ثانيا تكرار، و ذكره ثالثا كثرة، و انّما اشترطت الكثرة، لأنّ التّكرار بلاكثرة لايخلّ بالفصاحة و إلّا لقبح التّوكيد اللفظيّ» (جواهر البلاغة؛ ص ٢٦).

٣. الاسعاد: الإعانة و التّخليص. الغمر: يستعمل في معان، منها: ما يغمرك من الماء، و منها: الشدّة، و هي المراد هنا. السّبوح من السّبح و هو الجري في الماء، و المراد هنا فرس حسنة الجري لاتتعب راكبها لقوّة جريها كأنّها تجري في الماء. لها: متعلّق باستقرّ صفة لسبوح. منها: حال من «شواهد». عليها: متعلّق بشواهد بناء على تضمينها معنى الدلالة، إذ الشهادة المتعدية بعلى بدون التّضمين لايستعمل إلّا في الضرورة و ذلك غير مناسب للمقام، و شواهد فاعل الظرف، أي: لها، لاعتماده على الموصوف إذ الشرط في عمله الاعتماد على الأشياء: أحدها الموصوف، و هو هنا سبوح (المطول و هوامشه؛ ص ١٨).

٤. جواهر البلاغة؛ ص ٢٦.

و اعلم أنّهم اشترطوا في فصاحة الكلام، خلوّها عن «تتابع الإضافات» أيضا، و هو كون الاسم مضافا إضافة متداخلة غالباً كقول ابن بابك:

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعي فأنت بمرأى من سعاد و مسمع[١]

ففيه: إضافة «حمامة» إلى «جرعى» و هي إلى «حومة» و هي إلى «الجندل»[٢].

لكنّهم اختلفوا فيها كما اختلفوا في «كثرة التّكرار» أيضا، فبعض ذهب إلى ثبوت إخلالها بالفصاحة، و آخر يقول: كيف يجترئ على القول بأنّهما يخلّان بالفصاحة مطلقا، و قد وقع كلا الأمرين في القرآن ما لا يكاد يحصى، كقوله ـ سبحانه ـ: «ربّنا و آتنا ما وعدتنا»[٣]، و كقوله «و اعف عنّا و اغفرلنا و ارحمنا»[٤]، و نحو: «ذكر رحمة ربّك عبده زكريّا»[٥]، و مثل «مثل دأب قوم نوح»[٦].

و الحقّ: أنّه إن أوجبنا ثقلا و بشاعة في الكلام فخلان، و إلّا فلاوجه لإخلالها بالفصاحة، فإن لم يكن لها مسوّغ فنيّ فهما غير مقبولين يدلّان على ضعف ثروة الأديب اللّغويّة و الفكريّة، ولكنّهما يكونان رائعين حين تقتضيهما الصّورة أو تطلبهما العاطفة أو ينشدهما الوجدان، كيف و قد يحسن التّكرار في مواضع الشوق و المدح و الهجاء، و هل أحلى على المرء من أن يذكر من يحبّ، أو يكرّر اسم من يهوى[٧].

فصاحة المتكلّم

و قد عرّفوها بأنّها عبارة عن الملكة الّتي يقتدر المتكلّم بواسطتها على التّعبير عن المقصود بكلام فصيح في أيّ غرض كان، فهي كيفيّة راسخة في نفس المتكلّم بحيث يكون قادرا بها على أن يعبّر عن كلّ ما قصده من أيّ أنواع من المعاني: كالشعر، و النثر و المقال، و القصّة، و

---

١. المطول؛ ص ١٨.

٢. جرعى: تأنيث الأجرع، و هو المكان ذو الحجارة السود، أو مكان الرمل الذي لاينبت شيئا. الحومة: هي معظم الشيء. الجندل: هو الحجر، و المراد به هنا: مكان الحجارة. قوله: «أنت بمرأى...» أي: أنت بحيث تراك سعاد و تسمع كلامك، يقول: اسجعي أرض قفرة سبخة، فإنّ سعاد تراك و تسمعك (جواهر البلاغة؛ ص ٢٧).

٣. آل عمران، ١٩٤.

٤. البقرة، ٢٨٦.

٥. مريم، ٢.

٦. الغافر، ٣١.

٧. عروس الأفراح؛ ج ١، ص ١١٧.

المسرحيّة، و الحكاية، و المدح، و الهجاء، و الغزل، و القصيد، و الاستعطاف و غيرها، بكلام فصيح، فإذا المدار على الاقتدار المذكور على أن يعبّر عن أيّ معنى قصده بكلام فصيح، أي: خال عن الخلل في مادّته: (و ذلك بعدم تنافر كلماته)، و عن الخلل في تأليفه (و ذلك بعدم ضعف تأليفه)، و عن الخلل في دلالته على المعنى التّركيبيّ (و ذلك بعدم التّعقيد اللفظيّ و المعنويّ)[١].

و اعلم أنّهم عبّروا عن الحقائق الراهنة في النفس بالملكات، باعتبار أنّ الإنسان إذا تقرّر في نفسه شيء و ثبت في صميم قلبه فقد ملك ذلك الشيء، بخلاف مالو عرفه بوجه من المعرفة فكأنّه مستعار عنده و قتاما ثمّ يسلب منه عادة. فالطالب إذا تبحّر في فنّ من الفنون و عرف أصوله و أسّسه حقّ المعرفة ثبت ذلك الفنّ في نفسه و تمكّن من التّبسّط فيه، بخلاف مالو تصفّحه عرضا و صورة، فإنّه لا يستفيد منه إلّا في حال اشتغاله به و درسه له استفادة تقليديّة، هذا مع أنّ الملكات، و إن قيل فيها إنّها راسخة لتزول بالأعراض الطّويل حتما، فانتبه. و الحاصل: أنّ المتكلّم يسمّى فصيحا مطلقا سواء كان ممّن ينطق مثلا بمقصوده بلفظ فصيح في زمان من الأزمنة أولا ينطق به، ولكن له ملكة الاقتدار.

الأسئلة و التّمارين

أ) ما هي فصاحة الكلام، و بم تتحقّق؟ ما هو تنافر الكلمات، و ما موجبه، و إلى كم يتنوّع؟ ما هو ضعف التّأليف؟ ما هو التّعقيد، و إلى كم ينقسم؟ ما هي كثرة التّكرار؟ هل كثرة التكرار و تتابع الإضافات يخلّان بالفصاحة؟ ما هي فصاحة المتكلم، و هل هي أمر لفظيّ أو معنويّ؟ ما هو معنى الملكة، و هل هي أمر فطريّ أو اكتسابي؟

ب) بيّن العيوب الّتي أخلّت بفصاحة الكلام فيما يأتي:

١. لم يُضِرها و الحمدللّه شيء — و انثنت نحو عرف نفس ذهول
٢. لو كنت كنت كتمت السرّ كما — كنّا و كنت ولكن ذاك لم يكن
٣. جزا بنوه أبا الغيلان عن كبر — و حسن فعل كما يجزى سنّمار
٤. ليس إلّاك يا عليّ همام — سيفه دون عرضه مسلول
٥. و ما علينا إذا ما كنت جارتنا — ألّا يجاورنا إلّاك ديّار

---

١. جواهر البلاغة؛ ص ٣٠.

٦. من يهتدي في الفعل ما لا يهتدي — في القول حتّى يفعل الشعراء
٧. و ما من فتًى كنّا من النّاس واحدا — به نبتغي منهم عديلا نبادله
٨. إلى ملك ما أمّه من محارب — أبوه و لا كانت كليب تصاهره
٩. صان اللئيم وصنت وجهي ماله — و ونى فلم يبذل و لم أتبذّل
١٠. و الشمس طالعة ليست بكاشفة — تبكي عليك النجوم الليل و القمر
١١. أقل أنل أقطع احمل علّ سل عدِ — زِدْ هشَّ بَشَّ تفضل أدن سُرَّ صلِ

ج) ادرس الألفاظ الّتي تتكون منها ما يأتي و بين الأمور الآتيه: فصاحتها ـ حسن اختيارها ـ و مدى ملاءمتها للمعاني ـ رقّتها و عذوبتها و مدى ما فيها من حسن الجرس و الإيحاء:

١. قوله تعالى: «و من اللّيل فسبّحه»[1] و «ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشّيطان»[2]. و «لا تزغ قلوبنا»[3]. و «قيل يا نوح اهبط بسلام منّا، و بركات عليك و على أمم ممّن معك، و أمم سنمتّعهم ثمّ يمسّهم منّا عذاب أليم»[4].

٢. كيف ترثى الّتي ترى كلّ جفن — راءها غير جفنها غير راقي

د). بيّن فصاحة الكلمة و الكلام و ما أخلّ بها فيما يأتي:

١. و إنّ الذي بيني و بين بني أبي — و بين بني عمّي لمختلف جدّا

(المتنبّي)

٢. و المجد لا يرضى بأن ترضى بأن — يرضى امرؤ يرجوك إلّا بالرضا

(أبو تمام)

٣. أنّى يكون أبا البرايا آدم — و أبوك و الثّقلان أنت محمّد
٤. كأنّه في اجتماع الروح فيه له — في كلّ جارحة من جسمه روح
٥. و من جاهل بي، وهو يجهل جهله — و يجهل علمي أنّه بي جاهل
٦. و قلقت بالهمّ الذي قلقل الحشا — قلاقل همّ كلهنّ قلاقل
٧. ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى — و أن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
٨. بيضاء يمنعها التّكلّم دلّها — تيها، و يمنعها الحياء تمشيا

---

١. الطور، ٤٩.
٢. يس، ٦٠.
٣. آل عمران، ٨.
٤. هود، ٤٨.

٩. انــظرا قــبل تــلوماني إلى — طـــلل بـــين النــقا و المــنحنى

١٠. و الشيب ينهض في السواد كأنّه — ليـــل يــــصيح بجــانبيه نهــار

١١. خان الصّفاء أخ خان الزمان أخا — عــنه فــلم يتخون جسمه الكمــد

١٢. فتى لم يمل بالنفس منه عن العلى — إلى غــيرها شيء ســواه يميلها

١٣. دانٍ بَــعيدٍ مُحبٌّ مبغضٍ بَهِجٍ — أغَـــرَّ حُـــلوٍ مُمُرٌّ لَيِّنٌ شَرِسٍ

نَـدٍ أبيٌّ عَـرٍ وافٍ أخـي ثِـقَةٍ — جعدٍ سَريٌّ نَـهٍ نَـدْبٍ رضىً نَـدُسٍ

١٤. و يَعرِفِ الشِّعر مثل معرفتي — و هـــو عـــلى أن يــزيد مُجــتَهِدُ

و صَيْرَفيُّ القَـريض وزّان ديـنا — رِالمـــعاني الدّقـــاق مُـــنتقِدُ

١٥. في الحديث القدسي: «أنا عند ظنّ عبدي بي»

١٦. قال النبي (ص): موضع سوط أحدكم في الجنّة خير من الدنيا و ما فيها[١].

البلاغة لغة و اصطلاحاً

أ) البلاغة لغة: تدلّ على الوصول و الانتهاء، و ما ذكرها من المعاني في استعمالاتهم المختلفة، كلّها يرجع إلى ذلك المعنى بوجه، يقال: بلغ فلان مراده، إذا وصل إليه، و مبلغ الشيء: منتهاه، و بلغ الرجل بلاغة، فهو بليغ، إذا أحسن التّعبير عمّا في نفسه، قال أبو هلال العسكري: «البلاغة من قولهم: بلغت الغاية، إذا انتهت إليها، و مبلغ الشيء: منتهاه، و المبالغة في الشيء، الانتهاء إلى غايته، فسمّيت البلاغة بلاغة، لأنّها تنهي المعنى إلى قلب السّامع فيفهمه»[٢].

ب) البلاغة اصطلاحاً: لقد اختلف البلاغيّون قديماً و حديثاً في تعريفها، و انقسموا شيعاً و أحزاباً: فنهم من انحاز إلى جانب اللّفظ، و منهم من انحاز إلى جانب المعنى، و منهم من رأى بينهما صلة لا يمكن فصلها، و الظّاهر أنّ أكثرهم فيما ذكروه لم يقصدوا به تعريفا فنيّاً، و إنّما قصدوا ذكر أوصافها:

قيل: البلاغة، هي إبلاغ المتكلّم حاجته بحسن إفهام.

و قيل، أن تفهم المخاطب بقدر فهمه من غير تعب عليك. أوهي: إهداء المعنى إلى

---

١. عروس الافراح؛ ج ١، ص ١١٦-١١٧. ٢. الصناعتين؛ ص ٥.

القلب في أحسن صورة من اللفظ، أوهي التّعبير الصادق عن الإحساس الصادق[١].

قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل و الوصل.

و قيل لليوناني: ما البلاغة؟ فقال: تصحيح الأقسام و اختيار الكلام.

و قيل للروميّ: ما البلاغة؟ فقال: حسن الاقتضاب عند البداهة، و الغزارة يوم الإطالة.

و قيل للهندي: ما البلاغة؟ فقال: وضوح الدلالة، و انتهاز الفرصة، و حسن الإشارة[٢].

قال العربيّ: البلاغة التّقرّب من المعنى البعيد و التّباعد من حشو الكلام، و قرب المأخذ و إيجاز في صواب، و قصد إلى الحجّة و حسن الاستعارة[٣].

كلّ واحد من هذه الأقوال يبيّن ناحية من البلاغة و ليس لها تعريفا فنيًّا، فما يليق بنا في موقفنا البدائي إيراد حدّ فنيّ حيث إنّ الطالب عندئذ يحتاج إلى معرفة مصطلحاتهم:

قال أبو هلال العسكري: البلاغة كلّ ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه في نفسه كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة و معرض حسن[٤].

و أمّا الخطيب القزوينيّ فقسّمها قسمين: بلاغة الكلام، و بلاغة المتكلّم، و بعبارة أخرى، أوقعها وصفا للكلام و المتكلّم، ثمّ عرّفها، فقال: بلاغة الكلام، مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته[٥]. و يراد بها: أن يكون الكلام بعد فصاحته مناسبا للموضوع الّذي يؤلّف فيه، ملائما للحال الّتي دعت إليه، موافقا لنفوس السامعين، متمشيا مع أهوائهم، فيتفاعل معهم، و يؤثّر فيهم، و ينال القائل منهم ما يريد، فيصل إلى غرضه، و ينتهي إلى غايته.

و اعلم أنّ كثيرا من معاصرينا رأوا في التّركيب شروطا شتى ليكون بليغا، ولكنّهم أغفلوا جانباً آخر لا يقلّ أهمّية عن الشروط كلّها، ألا و هو موافقة الكلام مقتضى الحال[٦] أو

١. فنّ البلاغة؛ ص ٤٠ و ٧٣.
٢. البيان و التّبيين؛ ص ١٩.
٣.دراسة و نقد...؛ ص ٥٥.
٤.الصناعتين؛ ص ١٠.
٥. الإيضاح؛ ص ٨.
٦. المراد بالحال هو الأمر الداعي إلى التّكلّم على وجه مخصوص، و إنّما سمّي الأمر الداعي «حالا» لأنّه ممّا يتغيّر و يتبدّل كسائر حالات المخاطبين من فرح و حزن و غضب و نحوها، و سمّي «مقاماً» لأنّ مراتب الكلام و درجاته تتفاوت بمطابقته لحال المخاطب زيادة و نقصانا، فكلّما زادت المطابقة زادت مرتبته و درجته، إذا نقصت نقصت، و لايبعد أن يكون المراد بالحال ←

مناسبة المقام، فمقتضى الحال هو في الحقيقة لبّ البلاغة و جوهرها، إنّه وضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب، إنّه مخاطبة النّاس على قدر عقولهم و فهومهم، إنّه حديث الأذكياء بما يليق بالأذكياء، و إنّه مخاطبة الأغبياء بما يليق بالأغبياء، فيترتّب على ذلك أن تكون مقامات الكلام متفاوتة، مادامت أحوال السامعين متغايرة، فالحال الّتي يناسبها الإطناب تخالف الحال الّتي يناسبها الإيجاز، و مقام الفصل يباين خطاب الوصل، و موضع التّقديم لايتناسب حيث ينبغي التّأخير، و هكذا لكلّ مقال مقام، فارتفاع شأن الكلام في القبول، متوقّف على مدى مطابقته لهذه الاعتبارات المختلفة، و انحطاطه إذا اختلّت هذه المطابقه و انعدمت، فإذا راعينا هذه المطابقة بين حال المخاطب و قول القائل، لزم أن نلاحظ شيئا آخر يوصف الكلام بالبلاغة، و هو أن تكون مفردات كلماته فصيحة لا تنافر بين حروفها، و لا غرابة في ألفاظها، و لا خروج عن القياس الصرفي، كما تكون بمجموع كلماته متآلفة بعضها مع بعض، و أجزاؤه متناسبة يرتبط بعضها ببعض و يشدّ بعضها بعضا، فيصير الكلام حلوا، و يصبح بليغا فإذا قلنا: هذا «كلام بليغ» لم نصفه بالبلاغة من حيث إنّه لفظ و صوت، بل باعتبار إفادته المعنى، و الوصول إلى الغرض المصوغ له الكلام، أو كما يقول عبدالقاهر الجرجاني: «البلاغة ليست من صفات المفردات من غير اعتبار التّركيب»، أي: لا تقتصر على اللفظة المفردة وحدها، و إنّما تشملها مع غيرها من حيث التّركيب، و إفادة المعنى[1].

أنظر إلى قوله ـ تعالى ـ في قصّة موسى ـ ع ـ إذ سأله: «و ما تلك بيمينك يا موسى؟»، قال: «هي عصاي أتوكّأ عليها، و أهشّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى»[2]، أو ليس اللّه ـ تبارك و تعالى ـ هو الذي يعرف ما في يده، و يعرف السبب الّذي من أجله حمل موسى عصاه؟ إذن، فلماذا كان السؤال أوّلا، و لماذا كانت هذه الإجابة المُسهَبَة المفصّلة؟ ألم يكن

ـــ و المقام زمانه و مكانه لانّه لابدّ لذلك الأمر الداعي إلى ورود الكلام على تلك الخصوصيّة من مكان و زمان يقع فيهما، فباعتبار مطابقته للمكان يتوهم أنّه مكان فيسمّى «مقاما» و باعتبار مطابقته للزمان يتوهم أنه زمان فيسمّى «حالا»، فعلى هذا: الحال إن اقتضى التأكيد كان الكلام مؤكّداً، و إن اقتضى الإطلاق كان عاريا عن التّأكيد، و هكذا إن اقتضى حذف المسنداليه حذف، و إن اقتضى ذكره ذكر إلى غير ذلك من التّفاصيل المشتمل عليها «علم المعاني»، فالحال تكون مقتضية، و الكلام الذي يوصف بالتأكيد و التّقديم و التّأخير و الذكر و الحذف ـ مثلا ـ يسمّى «مقتضى الحال» (المطول؛ ص ١٩ و ٢٨).

١. عروس الأفراح؛ ج ١، ص ١٢٢. ٢. طه، ١٧ـ١٨.

أولى بالسائل ألّا يسأل، و بالمجيب أن يختصر، و لا سيّما في حضرة العزيز العلّام، و من يعرف الظّاهر و الباطن و هو بكلّ شيء محيط!؟ ألم يكن بعيدا عن البلاغة في رأي من عرّف البلاغة بالإيجاز ـ مثلا ـ؟!

فالذين قصروا البلاغة على التّركيب فقط أو المعنى، و قالوا فيه: هي عبارة عن السّكوت أو الإيجاز أو أمر آخر، دون قيد أو شرط، أخطؤوا، لأنّهم نسوا أنّ الإيجاز ـ مثلا ـ عيب حين يكون الحبيب مع الحبيب، و حين تحلو النجوى، و يلذّ الحديث، و تطيب المناغاة، و هل كان موسى (ع) إلّا محبّا و حبيباً في آن واحد؟ و هل أحبّ إليه من هذا الموقف الرّائع يسأله حبيبه الذي فضّله بالرّسالة، و اصطفاه و اجتباه؟ و يجيبه موسى ـ ع ـ يفصل له، و يشرح، و موسى إن لم يُسهِب في مثل هذا الموقف، فأين يحسن الإسهاب، و يستحبّ الشّرح و التّفصيل؟

فالبلاغة إضافة إلى كونها الكلام المكتوب أو المسموع، هي الّتي تقدر الظروف، و المواقف، و تعطي كلّ ذي حقّ حقّه، سواء أكانت نظماً أو نثراً، كتاباً أو رسالة، مقالاً أم قصّة، مسرحيّة أم حكاية، مديحاً أم هجاء، غزلاً أم قصيدا أم غيرها[1].

و بعد فأنت ترى فيا قالوا: أنّ حدّ البلاغة، هو أن تجعل لكلّ مقال مقام، فتوجز: حيث يحسن الإيجاز، و تطنب: حيث يجمل الإطناب، و تؤكّد: في موضع التّوكيد، و تقدّم أو تؤخّر: إذا رأيت ذلك أنسب لقولك و أوفى بغرضك، و تخاطب الذكيّ بغير ما تخاطب به الغبيّ، و تجعل لكلّ حال ما يناسبها من القول، في عبارة فصيحة، و معنى مختار، فإن أصبت ما ذكر فعندك ملكة البلاغة، و الله ذوالفضل العظيم.

بلاغة المتكلّم

و هي ملكة في النّفس يقتدر بها صاحبها على تأليف كلام بليغ، مطابق لمقتضى الحال مع فصاحته في أيّ معنى قصده. و تلك غاية لن يصل إليها إلّا من أحاط بأساليب اللّغة المقصودة عنده خُبرا، و عرف سنن تخاطب أهلها في منافراتهم، و مفاخراتهم، و مديحهم، و هجائهم، و شكرهم، و اعتذارهم، ليلبس لكلّ حالة لبوسها «و لكلّ مقام مقال»[2].

---

١. البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد؛ ج ١، ص ١٤ـ١٥.

٢. جواهر البلاغة؛ ص ٣٤ـ٣٥.

فينبغي للمتكلّم: أن يعرف أقدار المعاني، و يوازن بينها و بين أقدار المستمعين، و بين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً، و لكلّ حالة من ذلك مقاما، حتّى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، و يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات[١]. فإذا اعتبر المتكلّم البلاغة في هذه المراعاة و في صوابها و الإجادة فيها، و في أن يجعل لكلّ مقام مقال، قالوا فيه: يراعي مقتضى الحال، فهو بليغ.

و اعلم أنّ الفرق بين الفصاحة و البلاغة أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، و البلاغة لا تكون إلّا وصفا للألفاظ مع المعاني، و أنّ الفصاحة تكون وصفا للكلمة و الكلام، و البلاغة لا تكون وصفا للكلمة، بل تكون للكلام، و أنّ فصاحة الكلام شرط في بلاغته. فكلّ كلام بليغ، فصيح، و ليس كلّ كلام فصيح بليغا، كالذي يقع فيه الإسهاب حين يجب الإيجاز[٢].

نماذج من بلاغة الكلام

١. قوله ـ تعالى ـ: و قيل يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء أقلعي و غيض الماء و قضي الأمر و استوت على الجوديّ و قيل بعدا للقوم الظّالمين[٣].

٢. قوله ـ تعالى ـ: «تلك الدّار الآخرة نجعلها للّذين لا يريدون علوّا في الأرض و لا فسادا و العاقبة للمتّقين»[٤].

٣. قال رسول اللّه ـ ص ـ: «أفشوا السّلام، و أطعموا الطّعام و صلوا الأرحام، و صلّوا بالليل و النّاس نيام، تدخلوا الجنّة بسلام»[٥].

٤. قال عليّ ـ ع ـ: إيّاك و الخديعة فإنّها من خلق اللئيم، ليس كلّ طالب يصيب، و لا كلّ غائب يؤب، لا ترغب فيمن زهد فيك، ربّ بعيد هو أقرب من قريب، سل عن الرّفيق قبل الطريق و عن الجار قبل الدّار، ألا و من أسرع في المسير أدركه المقيل، استرعورة أخيك كما تعلمها فيك، اغتفر زلّة صديقك ليوم يركبك عدوّك، من غضب على

---

١. نفس المصدر؛ ص ٣٩.
٢. نفس المصدر؛ ص ٤٠.
٣. هود، ٤٤.
٤. القصص، ٨٣.
٥. نهج الفصاحة؛ ص ٧٣ و ٨٩.

من لا يقدر على ضرّه طال حزنه و عذّب نفسه، من خاف ربّه كفّ ظلمه، و من لم يعرف الخير من الشرّ فهو بمنزلة البهيمة[١].

٥. قال ـ ع ـ: الدّنيا تقبل إقبال الطّالب و تدبر إدبار الهارب و تصل وصال الملول، و تفارق فراق العجول.

٦. قال أبو فراس الحمداني:

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصّبر أما للهوى نهي عليك و لا أمر؟
نعم! أنا مشتاق و عندي لوعة ولكنّ مثلي لا يذاع له سرّ
إذا الليل أضواني بسطتُ يد الهوى و أذللتُ دمعا من خلائقه الكبر
تكاد تضيء النار بين جوانحي إذا هي أذكتها الصبابة و الفكر
معللتي بالوعد، و الموت دونه إذا متّ ظمآناً فلا نزل القطر
تسائلني من أنت؟ و هي عليمة و هل بفتى مثلي على حاله نكر؟
فقلت كما شاءت و شاءلها الهوى قتيلك، قالت أيّهم؟ فهم كثر
فقلت لها: لو شئت لم تتعنّتي و لم تسألي عنّي و عندك بي خبر
و لا كان للأحزان عندي مسلك إلى القلب لكن الهوى للبلى جسر
فقالت: لقد أزري بك الدهر بعدنا فقلت: معاذ اللّه، بل أنت لا الدّهر

٧. قال الجاحظ:... و متى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه، متخيّرا في جنسه، و كان سليما من الفضول، بريئا من التّعقيد، حُبّبَ إلى النّفوس، و اتّصل بالأذهان، و التحمَ بالعقول، و هشّتْ إليه الأسماع، و ارتاحت له القلوب، و خفّ على ألسن الرّواة، و شاع في الآفاق ذكره، و عظم في النّاس خطره، و صار ذلك مادّة للعالم الرئيس و للمتعلّم الريّض، فإن أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة، و مصلحة حال الخاصّة و كان ممّن يعمّ و لا يخصّ، و ينصح ولايغشّ، و كان مشفوفا بأهل الجماعة، جمعت له الحظوظ من أقطارها، و سيقت إليه القلوب بأزمّتها، و جمعت النّفوس المختلفة الأهواء على محبّته، و جبلت على تصويب إرادته، و من أعاره الله من معرفته نصيبا، حسنّت إليه المعاني، و سلس له نظام اللفظ، و كان قد أغنى المستمع من كدّ التّكلف، و أراح قارئ الكتاب من علاج التفهّم[٢].

---

١. الكافي: الروضة، ج ١، ص ٣٤.
٢. البيان و التبيين: ص ٤٥.

٨. قال أبو العلاء المعري:

غير مجد في ملّتي و اعتقادي ... نوح باكٍ و لا ترنّم شاد
و شبيه صوت النعي، إذا قيـ ... ـس بصوتِ البشير في كلّ ناد
صاح، هذي قبورنا تملأ الرحب ... فأين القبور من عهد عاد؟
خفّف الوطء، ما أظنّ أديم ... الأرض إلّا من هذه الأجساد
و قبيح بنا، و إن قدم العهد ... هوان الآباء و الأجداد
سِرْ، إن اسطعتَ، في الهواء رويدا ... لا اختيالا على رفات العباد!
ربّ لحد قد صار لحدا مِرارا ... ضاحك من تزاحم الأضداد
إن حزنا في ساعة الموت ... أضعاف سرور في ساعة الميلاد
زحلٌ أشرفُ الكواكب دارا ... من لقاء الردى على ميعاد
و لنار المرّيخ من حدثان الد ... هر مطف، و إن غلت في اتّقاد
و الذي حارت البريّة فيه ... حيوان مستحدث من جماد
و اللبيب اللبيب من ليس يغترّ ... بكون مصيره للفساد

الجزء الاول

علم المعاني

هو العلم الّذي يبحث في أحوال الكلام الّتي يطابق بها مقتضى الحال.

فإنّ للكلام أحوالاً تعرض عليه باعتبارات مختلفة كالتّأكيد و عدمه ـ مثلا ـ و لأجل ذلك تتحقّق له مع مدلوله التّركيبيّ معان أخر تتّصف بالثّواني، فهناك ألفاظ و معان أوّل، و معان ثوان، فالمعاني الأول هي مدلولات التّركيب، و هي الّتي يدور النّحو حولَ محوره. و المعاني الثّواني، هي الّتي يساق لها الكلام، و لذا قيل: «الّتي يطابق بها مقتضى الحال» و ذلك كردّ الإنكار، و دفع الشّك ـ مثلا ـ فإذا قلنا: إنّ زيدا قائمٌ فالمعنى الأوّل هو القيام المؤكّد، و المعنى الثّاني، هو ردّ الإنكار و دفع الشّك بالتّوكيد، إذن، فعلم المعاني هو روح النّحو و علّته، و بيان أغراضه و أحواله، إضافةً إلى هذا فهو يعلّمنا متى نجعل الجملة خبريّة، و متى نجعلها إنشائية؟ و يبيّن لنا السّبب في هذه أو تلك، يعلّمنا متى يجب القصر و الوصل، و الفصل، و متى لا يجب؟ ثمّ يأتي لنا مع التّعليم ببيان السّبب و الغاية، يعلّمنا متى ننكّر المسند إليه، و متى نعرّفه، و متى نقدّمه و متى نؤخّره؟ و لما ذا فعلنا ذلك... أو ليس هو: علم المعاني؟؟

هذا و يشتمل علم المعاني ـ في هذا الكتاب ـ على المباحث الآتية: ١) الخبر و الإنشاء، ٢) المسند إليه، ٣) المسند، ٤) متعلّقات الفعل، ٥) القصر، ٦) الفصل و الوصل، ٧) الإيجاز و الإطناب و المساواة.

١. الخبر و الإنشاء

ينقسم الكلام من حيث إنّه يجعل في مقام التّطبيق على النسبة الواقعيّة أم لا إلى قسمين: خبريّ و إنشائيّ. لأنّ النّسبة اللفظيّة في الكلام إن جعلت في وزان النّسبة الخارجيّة أو الذّهنيّة مطابقةً لإحديهما، ناظرة إليها كاشفة عنها، فهي «خبريّة»، و الكلام «خبر»، و إن لم تجعل في مقام التّطبيق على إحديهما، بل في مقام إيجاد النّسبة الموافقة لها في الخارج أو طلبها أو الاستفهام عنها أو تمنّيها أو ترجّيها و هكذا من الوجوه، فهي «إنشائيّة»، و الكلام «إنشاء» و إلى هذا البيان ينظر ما ذكره القوم من أن الكلام إن كان لنسبته خارج تطابقه أولا تطابقه فخبر و إلّا فإنشاء، فإنّ الاتّصاف بالمطابقة و عدمها فرع جعل النّسبة في وزان الخارج و في مقام التّطبيق عليه، كما انّ عدم الاتّصاف بهما فرع جعلها لا في مقام الوزان مع الخارج و التّطبيق عليه.

أغراض الخبر

ينقسم الخبر باعتبار أغراضه إلى: فائدة الخبر و لازم فائدته، و ذلك لأنّه إذا أردت أن تُخبر إنسانا بخبرٍ مّا، فلا يخلو أن يكون المخاطب إمّا جاهلا بمضمون الخبر، أو غير جاهل. فإذا كان المخاطب جاهلا بالخبر، فإنّ قصدك إفادته بمضمون ما تقول و تخبر، فتستخدم «الجملة الخبريّة» للغاية نفسها، أي لإخبار المخاطب بما يجهله من الأمور و الأحكام، كأن تقول لزميلك في الصّفّ الّذي يترقّب ظهور النّتيجة: «ظهرت النّتيجة»، و كذلك تقول له في العمل و المهنة: «لقد أصدر مجلس الوزراء مرسوما بمضاعفة رواتب الموظّفين»، و هكذا للغائب عن الصّفّ: «عيّن الأستاذ صفحتين للتّمرين»، و لم يكونوا يعرفون هذه الأخبار، فأنت تفيدهم أخباراً جديدة، و يسمّي البلاغيّون هذا اللّون من الأخبار «فائدة الخبر».

و أمّا إذا كان المخاطب عارفاً بحقيقة الخبر محيطاً بها و ليست لديه حاجة إلى معرفتها، و لكنّك تستخدم السّياق الخبريّ لتفيد العارف بالخبر، إنّك أيضاً عارف به مثله، فالمخاطب في هذه الحالة لم يعرف خبرا كان يجهله من قبل، و إنّما عرف فقط أنّ المتكلّم يعرف مثله هذا الخبر أيضا، و هذا هو قصد المتكلّم و غايته، كما تقول لمن نجح في الامتحان عارفا به: «أنتَ نجحتَ في الامتحان»، و مثله أيضاً: «لَقَدْ نَهضتَ من نومِك اليومَ مُبَكّراً» و «أنت تَعْمل في الكلّيّة كلّ يوم» و هكذا...

فتأمّل الأمثلة، تجد المتكلّم لا يقصد منها أن يفيد السّامع شيئا ممّا تضمنه الكلام من

الأحكام، لأنّ ذلك معلوم للسّامع قبل أن يعلمه المتكلّم، و إنّما يريد أن يبيّن أنّه عالم بما تضمّنه الكلام، فالسّامع في هذه الحال لم يستفد علماً بالخبر نفسه، و إنّما استفاد أنّ المتكلّم عالم به، و يسمّى ذلك «لازم الفائدة» أو « لازم فائدة الخبر».

أغراض أخرى للخبر

و قد يخرج الكلام الخبريّ عن أصله فلا يقصد به الإخبار و الإعلام، فترد لأغراض أخرى، ليست «فائدة الخبر» و لا «لازم فائدته»، تعرف بالذّوق من سياق الكلام، و قرائن الأحوال، و يعددون منها: «إظهار الضّعف» و «الاسترحام و الاستعطاف»، و «إظهار التّحسّر»، و «المدح» و «الفخر»، و ما إلى ذلك، فنقف في هذا المجال عند بعضها على حسب حظّه من الأهميّة، فنقول من تلك الأغراض:

١. الاسترحام و الاستعطاف. قال يحيى البرمكيّ يُخاطِب الخليفة هارون الرّشيد:

إنّ البرامكـــةَ الّـــذيـ ـنَ رُمُوا لَـدَيْكَ بـدَاهـيَه
صُــفْرُ الوُجــوهِ عــليهمُ خِـلَعُ المَـذَلَّةِ بــادِيَهْ

فيحيى البرمكيّ لا يقصد أن ينبئ الرّشيد بما وصل إليه حاله و حال ذوي قُرباه من الذّلّ و الصّغار، لأنّ الرّشيد هو الّذي أمَرَ به فهو أولى بأن يعلمه، و لا يريد كذلك أن يفيده أنّه عالم بحال نفسه و ذوي قرابته، و إنّما يستعطفه، و يسترحمه، و يرجو شفقته، عسى أن يُصغي إليه فيعود إلى البرّ به و العطف عليه. و قال ـ تعالى ـ: « و أيّوب إذ نادى ربّه: أنّي مسّني الضرّ و أنت أرحم الرّاحمين»[1].

٢. التّحسّر، و إظهار ما في النّفس من مرارة و ألم. قال ـ تعالى ـ حكاية عن امرأة عمران: «ربّ إنّي وضعتها أنثى»[2] فإنّها كانت ترجو أن تلد ذكرا، و لكن خاب رجاؤها و تقديرها. و قال المتنبّي:

أمسيتُ أرْوَحَ مُثْرٍ خَازِناً ويداً أنا الغنيّ و أمـوالي المَـوَاعِـيدُ

فالمتنبي قال هذا البيت في قصيدته الشهيرة الّتي هجابها كافوراً الأخشيدي، وكان آنذاك حزينا منكسراً يشعر بمرارة الخيبة و الفشل، و قد قضى عمره يسعى لبلوغ العلا، لكنّه لم يوفّق إلى شيء و كان كافور قد وعده بولاية ثمّ أخلف وعده، و ما طل الشّاعر، و

---

١. الأنبياء، ٨٣.
٢. آل عمران، ٣٦.

أرهقه و حاول إذلاله و سجنه في النّهاية يمنعه من مغادرة مصر، لكن المتنبّي استطاع أن يهرب في ليلة العيد، فراح يضرب في بطون بادية مجهولة تاركاوراءه هذه القصيدة و عبّر فيه عن انكساره و تبرّمه و حزنه الشّديد، و وقع الخيبة و الفشل في نفسه[١].

٣. الفخر. كقول عنترة في معلّقته:

ولَقَدْ حفِظْتُ وَصاةَ عمّيَ في الضُّحى   إذ تَقلِصُ الشّفتان عن وَضَحِ الفمِ
في حومة الموتِ الّتي لا تَشْتكِي   غَمَراتِها الأبطالُ غيرَ تَغَمْغُمِ
يَدعُون عنترَ و الرّماحُ كأنّها   أشطانُ بِئرٍ في لَبانِ الأدهمِ
و لقد شَفَى نفسي و أبْرَأَسُقمَها   قيلُ الفَوارس: وَيك عنترَ أقدِمِ

يقول الشّاعر: إنّي أحارب محافظاً على وصيّة أوصاني بها عمّي مالك و الدعبلة، ليظهر أنّ عمّه الذي رفض أن يزوّجه بنته هو نفسه يعتمد على عنترة في الملمّات و يوصّيه بأن يحمي القبيلة، و يهتمّ بنوع خاص بحماية ابنه عمرو شقيق عبلة الّذي ذكره الشّاعر من قبل، و هكذا ترى الفخر في الأبيات المذكورة.. فاستخدم عنترة في شعره الجملة الخبريّة، و هو لا يريد مجرّد إخبار النّاس بما يفعل، و إنّما يبتغي من وراء ذلك أن يفتخر، و أن يباهي ببطولته و قوّته و شجاعته[٢]. و قال (ص): «إنّ اللّه اصطفاني من قريش».

٤. إظهار الضّعف و الخشوع. قال تعالى: «ربّ إنّي و هن العظم منّي و اشتعل الرأس شيبا»[٣]. فزكريّا (ع) يصف حالَه و يظهر ضعفه و نفاد قوّته.

٥. التّذكير بتفاوت المراتب. كقوله تعالى: «لا يستوى القاعدون من المؤمنين... فضّل اللّه المجاهدين على القاعدين...»[٤]. في الكريمة تذكرة بتفاوت عظيم بين مرتبة القاعد و المجاهد حتّى يتأنّف القاعد و يترفّع بنفسه عن انحطاط منزلته[٥]. و أيضا: و ليس سواءٌ عالم و جهول!

٦. التّحذير. نحو: أبغض الحلال إلى اللّه الطّلاق[٦]!

٧. المدح. كقول الشّاعر:

فإنّك شمس و الملوك كواكب   إذا طلعت لم يبد منهنّ كوكب

---

١. البلاغة و التّحليل الأدبي؛ ص ٦٤.
٢. نفس المصدر؛ ص ٦٥ــ٦٦.
٣. مريم، ٤.
٤. النساء، ٩٥.
٥. دراسة و نقد...؛ ص ٧٨.
٦. جواهر البلاغة؛ ص ٥٥.

و على هذا النّحو تستخدم الجمل الخبريّة لأغراض كثيرة على خلاف ما جعلت له أصلا، و هو إخبار النّاس بما يجهلون أو إخبارهم بأنّ المتكلّم عارف بما يعرفون.

الأسئلة و التّمارين

١. كم قسما للكلام باعتبار التّطبيق على النسبته الخارجيّة و عدمه؟ ما هو الكلام الخبري؟ ما هي الجملة الإنشائيّة؟ كم قسما للخبر باعتبار الأغراض؟ ما هي فائدة الخبر؟ و ما هو لازم فائدة الخبر؟ هل توجد للخبر أغراض أخرى؟ بماذا تعرف للخبر أغراض أخرى؟

٢. بيّن أغراض الكلام فيما يأتي:

أ) من أصلح ما بينه و بين اللّه أصلح اللّه ما بينه و بين الناس، و من أصلح أمر آخرته أصلح اللّه له أمر دنياه، و من كان له من نفسه واعظ كان عليه من اللّه حافظ.

ب) إنّك لَتَكظِمُ الغيظ و تَحلُم عند الغضب، و تتجاوز عند القدرة، و تَصفح عن الزّلة.

ج) قال أبو فراس الحَمْداني:

إنّــا إذا اشــتدَّ الزّمــا ... نُ و نــابَ خـطبٌ وادلَهَمْ
ألْـفيتَ حـولَ بُـيُوتِنا ... عـددُ الشّـجاعةِ و الكرمْ
لِـلِقا العِـدا بيض السّيو ... فِ و للـنّدى حُـمْرُ النّعمْ
هـذا و هـذا دأبـنا ... يُـودَى دمٌ و يُـراق دمْ

د) قال الشاعر:

مَضَت اللّيالي البيضُ في زمن الصِّبا ... و أتى المَشيبُ بكـلِّ يـوم أسود

هـ) قال ابن نُباتَة السعديّ

يـفوت ضَـجيع التُّرّهـاتِ طِـلابُه ... ويدنُو إلى الحاجاتِ من باتَ سَاعيا

و) قال الجاحظ:

المشورة لِقاح العقول، و رائد الصّواب، و المُستَشير على طرف النّجاح، و استنارة المرء برأي أخيه من عزم الأمور و حزم التّدبير.

ز) قال المتنبّي:

و تعجبني رجلاك في النّعل إنّني ... رأيتك ذانعل إذا كنت حافيا

و له أيضا:

يـا أعدل النّـاس إلّا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم و الحكم

أعـيذها نـظرات مـنک، صـادقة ... ان تحسب الشّحم فيمن شحمه ورم.

ح) قال المعريّ:

عرفت سجايا الدّهر، أمّا شروره ... فـنقد، و أمّـا خـيره فـوعود

و له أيضا:

رأيت سكوتي مَتْجراً فـلزمته ... إذا لم يفد رِبحاً فلست بخـاسر

ط) قال الشّريف الرّضي:

جار الزّمان فلا جواد يُرتجى ... للنّائبات و لا صـديق يشفق

و إذا الحليم رمى بسرٍّ صديقه ... عمدا فأولى بـالوداد الأحمـق.

تقسيم الخبر باعتبار حال المخاطب

مواقف النّاس عند تلقّيهم خبراً من الأخبار متباينة: جماعة يصدّقونه، و فريق يكذّبونه، و فئة تشكّ في تصديقه و تتردّد.

هذه المواقف المتباينة يلحظها الذكيّ البليغ، و يبني كلامه وفق مقتضياتها، إنّه يعرف سلفا أنّ عليه مخاطبة المنكرين المكذّبين بأسلوب يختلف عـن مخـاطبة المـتردّدين أو المصدّقين، و هذه المعرفة تقوده إلى أنّ أساليب إخباره توكيداً أو عدم توكيدٍ، و لذلك تنقسم أخباره إلى أقسام ثلاثة:

أ) الخبر الابتدائيّ

و هو ما كان المخاطب خالي الذّهن من الحكم و التّردّد فيه. فـالّذي يـصدّق القـول رأساً لايحتاج إلى أن يؤكّد المتحدّث له ما يقول، لأنّه بطبعه مصدّق دون أيّة وسـيلة، و لذلك فالخبر الّذي يلق إليه خالياً من كلّ توكيد، يدعى «الخبر الابتدائيّ»، نحو: العلم نافع ـ الغنيّ مكرّم ـ العفيف محترم، قال تعالى: «المال و البنون زينة الحياة الدّنيا»[1].

هذه الأمثلة و ما شابهها ليس فيها تأكيد، لأنّها ليست في حاجة إلى التّأكـيد، و المخاطب لا يشك، و لا ينكرحكم هذه الأمثلة، فهو لا يتردّد و لا ينكر أنّ العلم مفيد، ذونفع و أن المال و البنون زينة الحياة الدنيا، و هكذا... .

---

١. الكهف، ٤٦.

ب) الخبر الطّلبيّ

و هو ما كان المخاطب متردّدا فيه طالبا الوصول لمعرفته، و الوقوف على حقيقته، فالّذي يشك أو يتردّد في الخبر يقف في نقطة حرجة، فإمّا أن يصدّق إذا تأكّدوا، و إمّا أن يكذّب، هذا الموقف الوسط المشحون بالشّك و التّردّد يقضي على المخبر أن يكون حكيما حين يخبرهم، و الحكمة تكون في تلوين الخبر بشيء من التّوكيد، و هذا التّوكيد المناسب كافٍ لضمّهم في سلك المؤمنين المصدّقين، و مثل هذا اللّون من الإخبار الممزوج بمؤكّد مناسب للمقام يسمّى في عرف البلاغيين بـ« الخبر الطّلبي»، كقوله تعالى: « قد يعلم اللّه المُعوّقين منكم و القائلين لإخوانهم هلّم إلينا، و لا يأتون البأس إلّا قليلا»[1]. قال السّريّ الرّفا:

إن البناءَ إذا مـا انهـدَّ جـانبُهُ   لم يأمَنِ النّاسُ أن يَنْهدَّ بـاقيهِ

فالمخاطب بمثل هذين المثالين، له بالحكم إلمام قليل يمتزج بالشّك، و له تشوّف إلى معرفة الحقيقة، و في مثل هذه الحال يحسن أن يلق إليه الخبر و عليه مِسْحَةٌ من اليقين تجلو له الأمر و تدفع عنه الشّبهة، و لذلك جاء الكلام في المثالين مؤكّدا بـ«قد» في الأوّل منهما، و بـ«إنّ» في ثانيهما.

ج) الخبر الإنكاريّ

و هو ما كان المخاطب منكراً للخبر، معتقدا خلافه، فهو عنيد لا يصدق بسهولة ما يخبر به، بل لا يقف منه موقف الشّاك أو المتردّد بين التّصديق و التّكذيب، و إنّما يقف موقف المنكر، و لا يزيله عن إنكاره و يحرِفُه عن موقفه المتصلّب إلّا إذا مُزج خبره بتأكيدات شتى، و هذه التّأكيدات كفيلة أن تحشره في زمرة المصدّقين. و البلاغيّون يسمّون الخبر المؤكّد بهذا السّبك «الخبر الإنكاريّ»، نحو: «إنّ من البيان لَحكمة»، و «و اللّه لموت شريف خير من حياة ذليلة»، قال الشّاعر:

و اللّـــه إنّي لَأخـــوهِمّة   تسمو إلى المجد و لا تَـفتَرُ

فالمخاطب بهذه الأمثلة منكر للحكم، جاحد له، و في مثل هذه الحال يجب أن يُضَمَّن الكلامُ من وسائل التّقوية و التّوكيد ما يدفع إنكار المخاطب و يدعوه إلى التّسليم، و يجب أن يكون ذلك بقدر الإنكار قوّةً و ضعفاً، لذلك جاء الكلام في المثال الأوّل مؤكّدا بمؤكّدين هما

---

١. الاحزاب، ١٨.

اللام و «إنّ»، و في الثاني، بالقسم، و اللّام، و في الثالث: بالقسم و اللّام و «إنّ»، إضافة إلى اسميّة الجملة، فإنّ فيها تأكيد إن قصد.

فالغاية الرئيسيّة للمخبر أن يوصل من يُخبرْه إلى مستوى التّصديق و الاقتناع، و لابدّ له من أن يكون عالما بنفس مخاطبه قبل أن يحدّثه بشيء، و حينئذ يكون بليغا، إذ يضع في المقام المناسب، الكلام المناسب، و تلك هي البلاغة في حقيقتها و جوهرها. و البلاغيّون يسمّون إخراج الكلام على الأساليب الثلاثة المذكورة، إخراجاً على «مقتضى الظّاهر»، أو «مقتضى ظاهر الحال»، هذا، و قد سمّي ذلك في علم البيان بالتّصريح[1].

خروج الكلام عن مُقتضى الظّاهر

و قد توجد في الكلام اعتبارات تدعو إلى مخالفة هذا الظّاهر فتستلزم لونا آخر من الإخبار، و أسلوبا خاصّا من التّعبير، فتقتضي الأحوال العدول عن مقتضى الظّاهر، و يورد الكلام على خلافه، و يسمّى ذلك: «الإخراج على خلاف مقتضى الظّاهر»، و إنّه في علم البيان يسمّى بالكناية[2]. و لا شك أنّ إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر يعتبر شعبةً من شعب البلاغة، و سبيلاً إلى توفية الكلام حقّه، و ذلك يأتي على وجوه:

١. منها، تنزيل خالي الذّهن منزلة السّائل المتردّد الّذي يحسن توكيد الكلام له. و ذلك إذا قدّم للمخاطب ما يلوّح له بالخبر، عندئذ يتطلّع المخاطب تطلّع السّائل المتردّد، كقوله تعالى: «و ما أبرّئُ نفسي إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء»[3].

فالمخاطب لا ينكر و لا يتردّد في القول بأنّ النّفس تعرى بارتكاب الإثم، و تأمر بالسّوء، فكان حقّ الكلام أن يأتي بدون توكيد، ولكن تقدّم في الكلام ما يدعو للتّساؤل: فلِماذا لا يبرّئُ نفسه؟ فنزّله منزلة السّائل المتردّد، فحسن عندئذ تأكيد الكلام له. و كقوله تعالى أيضا: «و لا تخاطبني في الّذين ظلموا إنّهم مغرقون»[4].

فطلع الآية يدعو إلى التّساؤل: لماذا لايخاطب ربّه في شأن الظالمين؟ و لماذا ينهاه عن التماس الشّفاعة لهم؟ فنزّله منزلة السّائل المتردّد، فأكّد الكلام، و قال: «إنّهم مغرقون»، و لولا هذا الاعتبار، لقال: «هم مغرقون» بدون تأكيد، و منه أيضاً: «و ذكّر فإنّ الذّكرى تنفع

---

١. مفتاح العلوم؛ ص ٨٢.
٢. نفس المصدر؛ ص ٨٣.
٣. يوسف، ٥٣.
٤. هود، ٣٧.

المؤمنين»[١]. و كذلك: «و استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه إنّ ربّي رحيم ودود»[٢]. و غير ذلك ممّا ترى فيه الكلام قد أكّد بمؤكّد مناسب بسبب ما لاحظه المتكلّم في المخاطب، و ما يدور داخل نفسه من تساؤل على الرّغم من أنّه لم يلفظ بالسؤال.

٢. و منها تنزيل المتردّد، منزلة خالي الذّهن، كقولك للسّائل عن الوحدة الإسلاميّة المنشودة: الوحدة الإسلاميّة قريبة. و كما تقول في قدوم مسافر مع شهرته: قدم فلان...

٣. و منها تنزيل غير المنكر منزلة المنكر، إذا لاح عليه شيء من علامات الإنكار فينبغي حينئذ أن يؤكّد له الكلام حتّى يقتنع بما يلقيه عليه المتكلّم من مقال، و ذلك مثل قول حَجَل بن نضلة القيسي:

جاء شقيقٌ عارضا رُمحَـه   إنّ بني عمّك فيهم رِماح

فشقيق ابن عمّ الشّاعر، لا ينكر قوّة بني عمّه و ما لديهم من رماح و سلاح، ولكنّه حين جاء واضعا رمحه على فخذيه بالعرض، بمنزلة إنكاره أنّ لبني عمّه رماحا، كأنّهم كلّهم في نظره عُزل، ليس مع أحد منهم رمح، فوجب عندئذ أن يؤكّد الكلام له، و ينزّله منزلة المنكر، فيوقظ فيه الشّعور بقوّتهم و قدرتهم على النّزال و العراك.

٤. و منها تنزيل المنكر منزلة غير المنكر، إذا توافرت القرائن و العلامات الّتي لو تأمّلها لرجع عن إنكاره وارتدّ عن جحوده، كقوله تعالى: «ذلك الكتاب لا ريب فيه»[٣].

فقد جاءت الآية خالية من التّأكيد مع أنّ الكافرين منكرون للكتاب و صحّته، ولكنّه نزّلهم منزلة غير المنكر، لأنّهم لو تأمّلوا القرآن، و استعملوا عقولهم و برئوا عن التّحيّر، لا عتقدوا صدق الكتاب و آمنوا به.

٥. و منها تنزيل العالم بفائدة الخبر، منزلة الجاهل بذلك، لعدم جريه على موجب علمه، فيلق إليه الخبر، كما يلق إلى الجاهل به، كقولك لمن يعلم أنّ النّجاح في الامتحان موقوف على قراءة دروسه، و هو لا يقرأ: «النّجاح موقوف على قراءة الدّروس» توبيخا على عدم عمله بمقتضى علمه، و كقولك لمن يؤذي أباه: «هذا أبوك»!

و اعلم أنّ من الممكن إيراد هذه الوجوه كلّها في قاعدة كلّيّة، هي: «جعل وجود

---

١. الذاريات، ٥٥. ٢. هود، ٩٠.

٣. البقرة، ٢.

الشيء منزلة عدمه و بالعكس» لكنّه في الموقف الّذي نكون بصدده و هو بداية تعليم هذا الفنّ، لابدّ من التّعرّض لها حسب تعرّض مؤلّفي كتبه.

فهكذا تتنوّع أساليب الإخبار، فمنها ما يجرى حسب مقتضى الظّاهر، و منها ما يجري على خلاف هذا الظّاهر، و لكلٍّ مكانٌ و مقامٌ، و الذّكيّ الأريب هو القادر على وضع كلّ شيء في مكانه اللائق و المناسب، و هو الّذي يغوص في أعماق نفس الإنسان الّذي يخاطبه، فيفهم ما يعتلج فيها، و يدور في حناياها، و حينئذ يختار الكلمة المناسبة لهذا الإنسان. و ذلك مقتضى الحال.

الأسئلة و التّمارين

١. كم نوعا للخبر باعتبار حال المخاطب؟ ما هو الخبر الابتدائي؟ و ما هو الكلام الطّلبي؟ و ما هو الكلام الإنكاري؟ ما هو مقتضى الحال؟ و ما هو مقتضى ظاهر الحال؟ ما الفرق بين مقتضى الحال و بين مقتضى ظاهر الحال؟ هل يجوز إخراج الكلام عن مقتضى الظّاهر؟ هل ينزل العالم بمنزلة الجاهل و بالعكس؟ و كذا المنكر بمنزلة غير المنكر؟

٢. هات مثالين يكون الخبر في كلّ منها مؤكدا استحسانا، و جاريا على خلاف مقتضى الظّاهر و اشرح السّبب في كلّ منهما.

٣. هات أمثلة يكون الخبر في كلّ منها مؤكدا وجوبا و خارجا عن مقتضى الظّاهر.

٤. هات أمثلة يكون الخبر في كلّ منها خاليا من التّوكيد و خارجا عن مقتضى الظّاهر.

٥. بيّن وجه خروج الخبر عن مقتضى الظّاهر في كلّ مثال من الأمثلة الآتية:

أ) «صلّ عليهم إنّ صلاتك سكن لهم».

ب) إن الفراغ لمفسدة (تقول لمن يعرف ذلك ولكنّه يكره العمل).

ج) قال المتنبي:

ترفّق أيّها المولى عليهم ... فإنّ الرّفق بالجاني عِتاب

د) «و في السماء رزقكم و ما توعدون».

هـ) قال الشّاعر:

و أنت الّذي ربّيت ذا الملك مرضعا ... و ليس له أمّ سواك و لا أب

و) قال أبو فراس الحمداني:

و مكارمي عدد النّجوم و منزلي ... مأوى الكرام و منزل الأضياف

ز) قال المتنبي:

و مـا كـلّ هـاوٍ للجميل بفاعل ... و لا كـلّ فـعّالٍ له بمتمّم

ح) ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل ... عفاف و إقدام و حزم و نائل

ط) و أنّ امرءً قد سار خمسين حجّة ... إلى منهل من ورده لقريب

ي) و إنّ الّذي بيني و بين بني أبي ... و بين بني عمّي لمختلف جدا

ك) و لقد نصحتك إن قبلت نصيحتي ... و النّصح أغلى ما يباع و يوهب

ل) خليليّ إنّ المال ليس بدافع ... إذا لم ينل منه أخ و صديق

م) لئن أنجينا من هذه لنكونَنّ من الشّاكرين.

تكملتان

١. تقسيم الجملة باعتبار التّجدّد و الدوام، تنقسم الجملة من حيث إفادتها التّجدّد و الدوام إلى قسمين: فعليّة و اسميّة:

أ) الجملة الفعليّة ما تركّبت من فعل و فاعل، أو من فعل و نائب فاعل، و هي موضوعة لإفادة التّجدّد و الحدوث في زمن معيّن مع الاختصار[١]، نحو: يعيش البخيل عيشة الفقراء، و يحاسَب في الآخرة حساب الأغنياء، و نحو: أشرقت الشّمس و قدولّى الظّلام هارباً.

فلا يستفاد من ذلك إلّا ثبوت الإشراق للشّمس، و ذهاب الظّلام في الزمان الماضي.

و قد تفيد الجملة الفعليّة الاستمرار التّجدّدي شيئاً فشيئاً بحسب المقام، و بمعونة القرائن، لا بحسب الوضع، بشرط أن يكون الفعل مضارعا، نحو قول المتنبّي:

تُدبّر شرق الأرض و الغرب كفّه ... و ليس لها يوما عن المجد شاغلُ

فقرينة المدح تدلّ على أنّ تدبير الممالك ديدنه و شأنه المستمرّ الّذي لا يحيد عنه، و يتجدّد آنا، فآنا.

---

١. و ذلك أنّ الفعل دالّ بصيغته على أحد الأزمنة الثلاثة بدون احتياج لقرينة بخلاف الاسم، فإنّه يدلّ على الزّمن بقرينة ذكر لفظة: الآن، أو أمس، أو غدا. و لمّا كان الزّمان الّذى هو أحد مدلولي الفعل غير قارّ بالذات، أي : لاتجتمع أجزاؤه في الوجود كان الفعل مع إفادته التّقييد بأحد الازمنة الثلاثة مفيداً للتّجدّد أيضاً (جواهر البلاغة: الهامش، ص ٧١).

ب) الجملة الإسميّة: هي ما تركّبت من مبتدأ و خبر، و هي تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء ليس غيرُ، بدون النّظر إلى تجدّد و لا استمرار، نحو: الأرض متحرّكة، فلا يستفاد منها سوى ثبوت الحركة للأرض، بدون نظر إلى تجدّد ذلك و لا حدوثه.

و قد تخرج الجملة الإسميّة عن هذا الأصل، و تفيد الدّوام و الاستمرار بحسب القرائن، إذا لم يكن في خبرها فعل مضارع، و ذلك بأن يكون الحديث في مقام المدح، أو في معرض الذمّ، و أمثال ذلك، كقوله ـ تعالى ـ: «و إنّك لعلى خلق عظيم»[١]، فسياق الكلام في معرض المدح دالّ على إرادة الاستمرار مع الثّبوت، و منه قول النّضر بن جُؤْبة يتمدح بالغنى و الكرم:

لا يألف الدّرهم المضروب صرّتنا لكن يمرّ عليها «و هو منطلق»

يريد أنّ دراهمه لاثبات لها في الصّرّة و لا بقاء، فهي دائما تنطلق منها، و تمرق مروق السّهام من قسيّها، لتوزع على المعوزين و أرباب الحاجات.

و اعلم أنّ الجملة الإسميّة لا تفيد الثّبوت بأصل وضعها، و لا الاستمرار بالقرائن، إلّا إذا كان خبرها مفردا، نحو: الوطن عزيز؛ أو كان خبرها جملة اسميّة، نحو: الوطن هو سعادتي.

أمّا إذا كان خبرها فعلا فإنّها تكون كالجملة الفعليّة في إفادة التّجدّد و الحدوث في زمن مخصوص، نحو: الوطن يسعد بأبنائه، و نحو:

تعيب الغانيات عليّ شيء و من لي أن أمتّعَ بالمشيب[٢]

٢. لتوكيد الخبر أدوات كثيرة، منها: إنّ ـ أنّ ـ واو القسم ـ لام الابتداء ـ أحرف التّنبيه ـ نونا التّوكيد ـ الحروف الزّائدة ـ التّكرار ـ قَدْ ـ أمّا الشّرطيّة ـ إنّما ـ اسميّة الجملة ـ ضمير الفصل ـ و... فنقف في هذا المجال عند بعضها حسب حظّه من الأهمّيّة، و من أراد التفصيل فليراجع الكتب المبسوطة البلاغيّة أو النحويّة، فنقول:

أ) إنّ (المكسورة الهمزة، المشدّدة النون). و هي حرف ناسخ يدخل على المبتدأ و الخبر، و وظيفتها من حيث المعنى، تأكيد مضمون الجملة، أو الخبر، فإذا قال قائل: «إنّ الحياة جهاد» فكأنّه قال: «الحياة جهاد» مرّتين، إلّا أنّه أوجز حين قال: إنّ الحياة جهاد؛ و إذا دخلت اللّام التّوكيديّة على الخبر، فقال: «إنّ الحياة لجهاد» فكأنّه كرّر «الحياة جهاد» ثلاث مرّات، و هذا الإيجاز، أو الاقتصاد في ألفاظ الجملة مع حصول الغرض من التّوكيد هو

---

١. القلم، ٤.
٢. جواهر البلاغة؛ ص ٧١ـ٧٣.

الذي يعطي مثل هذه الجملة قيمتها البلاغيّة، على أساس أنّ البلاغة هي الإيجاز ـ في رأي بعضهم.

ب) لام الابتداء. و فائدتها توكيد مضمون الحكم، و تدخل على المبتدأ و الخبر، نحو: «لَأنْتَ خيرٌ من عرفتُ»، كما تدخل على خبر إنّ، نحو: «إنّ ربّي لسميع الدعاء»[١]، و على المضارع الواقع خبراً لانّ لشبهه بالاسم، نحو: «و إنّ ربّك لَيحكم بينهم»[٢]، و على شبه الجملة، نحو: «و إنّك لَعلى خلق عظيم»[٣].

ج) أمّا الشّرطيّة (المفتوحة الهمزة، المشدّدة الميم). و هي حرف شرط و تفصيل و توكيد، نحو قول الشّاعر:

و لم أرَ كالمعروف، أمّا مذاقُه فَحلوٌ، و أمّا وجهه فجميل

و فائدة «أمّا» في الكلام أنّها تعطيه فضل توكيد و تقوية للحكم، تقول مثلا: «زيد ذاهب»، فإذا قصدت توكيد ذلك و أنّه لا محالة ذاهب، و أنّه بصَدَد الذّهاب و عازم عليه، قلت: «أمّا زيد فذاهب».

د) السين: «سَ». و هي حرف يختصّ بالمضارع، و يخلّصه للاستقبال، و السّين إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنّه واقع لا محالة؛ و وجه ذلك أنّها تفيد الوعد أو الوعيد بحصول الفعل، فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتض لتوكيده و تثبيت معناه فهي في مثل قوله ـ تعالى ـ: «أولئك سيرحمهم اللّه»[٤] مفيدة وجود الرّحمة لا محالة فهي تؤكّد حصول فعل الوعد ـ مثلا ـ.

ه) قد التّحقيقيّة. و تدخل على الفعل الماضي، و تفيد تحقّق حصوله، نحو: «قد أفلح المؤمنون...»[٥] فهي في مثل هذه الجملة تفيد توكيد مضمونها، أي: أنّ فلاح المؤمنين الخاشعين في صلاتهم حقّ و لا محالة حاصل.

و) ضمير الفصل. و هو عادةً ضمير رفع منفصل، يؤتى به للفصل بين الخبر و الصّفة، نحو: «محمد هو النّبيّ» فلو لم يأت بالضّمير «هو» و قلنا: «محمد النّبيّ» لاحتمل أن يكون «النّبي» خبراً عن محمّد، و أن يكون صفة له، فلمّا أتينا بضمير الفصل ـ على هذا الأساس ـ

---

١. ابراهيم، ٣٩. ٢. النحل، ١٢٤.
٣. القلم، ٤. ٤. التّوبه، ٧١.
٥. المؤمنون، ١.

يزيل الاحتمال و الابهام من الجملة الّتي يدخل عليها، و من ثمّ يفيد ضربا من التّأكيد، و لهذا عدّ من أدوات توكيد الخبر.

ز) حروف القسم. أشهر حروفها: الباء و الواو و التّاء، و الحروف الّتي تدخل على جواب القسم، أربعة، هي: «اللّام، و إنّ، و ما، و لا». فإذا كان المقسَمُ عليه مثبتا فإنّ الحروف الّتي تدخل عليه هي: «اللّام، و إنّ»، نحو: «و اللّه لَمَوْتٌ شريف خير من حياة ذليلة»، و نحو: «و العصر إنّ الإنسان لفي خسر»[1]؛ و إذا كان جواب القسم منفيّا فإنّ الحروف الّتي تدخل عليه هي: «ماولا»، نحو: «و اللّه ما العمل اليدوي مهانة»، و نحو: «و اللّه لا قصرتُ في القيام بواجبي».

فالقسم على أيّ صورة من الصور، فيه ضرب من التّأكيد، لأنّ فيه إشعارا من جانب المُقسِم، بأنّ ما يقسم عليه هو أمر مؤكّد عنده لا شكّ فيه، و إلّا لما أقسم عليه قاصدا متعمّدا. و ما أجل ذلك عدّ البلاغيّون القسم من مؤكّدات الخبر.

ح) نونا التّوكيد. و هما: نون التّوكيد الثّقيلة ـ أي المشدّدة ـ و نون التوكيد الخفيفة ـ أي غير المشدّدة ـ و يدخلان على المضارع بشروط، و على الأمر جوازاً؛ و قد اجتمعا في قوله ـ تعالى ـ حكايةً على لسان امرأة عزيز مصر في قصّة يوسف: «و لَئن لم يفعل ما آمُرُهُ لَيُسجنَنَّ و ليكونَنْ من الصّاغرين»[2].

ط) الحروف الزّائدة. و هي كثيرة مذكورة في النّحو، منها: من و الباء الجارتان مثلا، و ليس معنى زيادة هذه الحروف أنّها تدخل لغير معنى ألبتّة، بل زيادتها لضرب من التّأكيد على الاقلّ. فمن ـ مثلا ـ قد تزاد توكيداً لعموم ما بعدها، نحو: «ما جاءنا من أحد» فإنّ «أحداً» صيغة عموم، بمعنى ما جاءنا أيّ أحد. و الباء قد تزاد كثيراً في الخبر بعد «ليس» مثلا، نحو قول مَعن بن أوس:

و لست بماشٍ ما حييت لمنكر ... من الأمر لا يمشي لمثله مثلي.

ي) حروف التّنبيه. و للتنبيه حرفان: ألا و أما (بفتح الهمزة و التّخفيف).

و «ألا» تزاد للتنبيه، و تدلّ عندئذ على تحقّق ما بعدها، و من هنا تأتي دلالتها على معنى التّأكيد، و ذاك نحو: «ألا إنّ أولياء اللّه لا خوف عليهم و لا هم يحزنون»[3].

---

١. العصر، ١. ٢. يوسف، ٣٢.
٣. يونس، ٦٢.

و «أَمَا» حرف استفتاح، و هي بمنزلة «ألا» في دلالتها على تحقّق ما بعدها تأكيدا، و يكثر مجيئها قبل القسم، لتنبيه المخاطب على استماع القسم و تحقيق المقسم عليه، نحو قول أبي صخر:

أما و الّذي أبكى و أضحك، و الّذي أمات و أحيا، و الذي أمرهُ الأمرُ
لَقد تركَتني أحسدُ الوحش أن أرى أليفَيْن منها لا يروعُها النَّفرُ

لكنّ هناك نوعا من التّراكيب ليس فيها أيٌّ من هذه الأدوات، و مع ذلك فطبيعة تركيبها يجعلها مؤكّدة؛ فلوقلت لأحد أصحابك: «أنت تفي بوعدك» كان كلامك هذا خبراً طلبيّاً وليس ابتدائيّاً، لأنّ مضمونه يعدل مرّتين قولك: «تفي أنت بوعدك».

البلاغيّون يعُدّون هذا لونا من ألوان التّأكيد؛ و هم مُحِقّون في ذلك، لأنّا لَوْعُدنا إلى إعراب هذه الجملة نحويّاً لوجدنا «أنت» في محل رفع مبتدأ، و «تفي» فعلاً مضارعاً، فاعله مستتر فيه وجوبا تقديره «أنت»، و الجملة الفعليّة من الفعل «تفي» و فاعله المستتر فيه في محلّ رفع خبر للمبتدأ «أنت»، تقديره «موفٍ» بوعدك.

إذن: هذه الجملة تكرّر فيها ضمير المخاطب مرّتين، مرّةً كان ظاهراً، و مرّةً كان مضمرا، و كذلك تكرّر الفعل المؤدّي لمعنى الوفاء مرّتين: الأولى بصورة مضارع، و الثّانية بصورة الخبر المؤوّل.

لهذا، قال البلاغيّون: إنّ الجملة تكون أقوى توكيداً إذا كان المسند فيها خبرا فعليّا، و يمثّلون على هذا بمثال: «أنت لا تكذب»، و يقولون: إنّه أقوى من قولنا: لا تكذب أنت[1].

الأسئلة و التّمارين

١. ما هي الجملة الفعليّة؟ و كيف تركّبت؟ و هل مدلولها أمر واحد أو أمور متعدّدة؟ ما هي الجملة الاسميّة؟ و هل تدلّ على الثّبوت و الدّوام أو التّجدّد و الاستمرار؟ ما هي أدوات التّوكيد؟ كم قسما لها باعتبار أنواع الكلمة؟

٢. بيّن أضرب الخبر فيما يأتي و عيّن أداة التّوكيد:

أ) جاء في نهج البلاغة:

الدَّهرُ يُخْلِقُ الأبدانَ و يُجدِّدُ الآمالَ، و يُقرِّبُ المنيّةَ و يُباعِدُ الأُمنيّة، من ظَفِرَ به نَصِبَ، و من فَاتَه تَعِبَ.

---

١. المطول؛ ص ٨٧ و البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد؛ ج ١، ص ٦١ـ٧١.

ب) قال الأُرجانيّ:

ذهب التكرُّمُ و الوفاءُ من الوَرَى ... و تصرَّما إلّا من الأشعار

و فَشَتْ خِياناتُ الثِّقات و غيرِهم ... حتّى اتّهمْنَا رُؤيةَ الأبصار

ج) قال تعالى: «ألا إنّ أولياء اللّه لا خوف عليهم و لا هم يحزنون».

د) قال العباس بن الأحنف:

فَأُقسم ما تَرْكي عِتابَك عن قِلىً ... ولكن لِعلمي أنّه غير نافِع

ه) قال محمّد بن بشير:

إنّي و إن قَصُرَتْ عن همّتي جِدَتي ... و كان ماليَ لا يقوى على خلقي

لَتارِكٌ كُلَّ أمرٍ كان يُلزمُني ... عاراً و يُشرعُني في المنهل الرَّنق

٣. بيّن الجملة الاسميّة و الفعليّة فيما يأتي و عيّن أضربها، و اذكرما اشتملتا عليه من وسائل التوكيد:

أ) قال الشّاعر:

لئن كنتُ محتاجا إلى الحلم إنّني ... إلى الجهل في بعض الأحانين أحوج

و ما كنت أرضى الجهلَ خِدْناً و صاحبا ... و لكنّني أرضى به حين أحرَجُ

وَ لِي فرس للحِلْمِ بالحِلمِ مُلْجَم ... ولِي فرسٌ للجَهلِ بالجهل مُسْرَج

فمن شاء تقويمي فإنّي مُقوَّم ... و من شاء تعويجي فإنّي مُعوَّج

ب) قال كعب بن سعد الغَنَويّ:

و لستُ بمُبدٍ للرِّجال سريرَتي ... و لا أنا عن أسرارهم بسَئُول

ج) قال المعرّي:

إنّ الّذي الوحشةُ في داره ... تُؤنِسُه الرَّحمةُ في لَحْدِهِ

٤. انثر البيتين الآتيين نثراً فصيحا، و بيّن فيهما الجمل الخبريّة و أضربها:

تَوَدُّ عَدُوّي ثمّ تَزعَمُ أنّني ... صديقُكَ! إنّ الرّأي منك لَعازِب

و ليس أخي من وَدَّني رأي عينِهِ ... ولكن أخي من وَدَّني و هو غائب

الإنشاء و ما يتعلّق به

قد سبق أن ذكرنا أنّ الكلام ينقسم إلى خبرو إنشاء، و بيّنا الخبر و ما يتعلّق به حسب ما يقتضيه المقام هناك، و أمّا الإنشاء فهو ـ كما قلنا ـ:

الكلام الّذي لم يجعل في مقام التّطبيق على النّسبة الخارجيّة، بل يجعل في مقام إيجاد النّسبة أو طلبها أو الاستفهام عنها أو ندائها أو تمنّيها، و هكذا من الوجوه المطلوبة منه، و لذلك لم يحكم فيه على الصّدق و الكذب. فقولك: و اظب على قراءة هذا الكتاب، هو أمر بالمواظبة على القراءة و قبل أن تنطق بهذا الكلام ليس لمضمونه حصول و تحقّق حتّى يحتمل الصّدق أو الكذب.

و قد قسّم البلاغيّون ـ كغيرهم ـ الإنشاء إلى قسمين أساسيّين، و هما: الطّلبيّ و غير الطّلبيّ.

الإنشاء الطّلبيّ

هو الّذي يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطّلب و إليك البيان:

عند ما تقول لرفيقك الّذي اِقترض منك كتاباً: «رُدَّ إليّ كتابي»، فإنّك تطلب منه شيئاً غير حاصل لك وقت الطّلب، و هو ردّ كتابك إليك، فلو كان قد ردّه لما طلبت إليه ذلك، فهذه الجملة الإنشائيّة هي من نوع الإنشاء الطّلبيّ، أمّا عند ما تقول لصديقك: «ما ألطف كلامك!» فإنّك لا تنتظر أن يحقّق لك شيئاً تطلبه، و إنّما أنت تُثني على كلامه و تعجّب للطافته، فهذه الجملة إنشائيّة لكنّها ليست طلبيّة، و هي لا تستدعي مطلوبا، و سيأتي تفصيله.

ينقسم الإنشاء الطّلبي ـ عند جمهورهم ـ إلى خمسة أقسام، و هي: الأمر و النّهي، و الاستفهام، و التّمنّي، و النّداء.

أ) الأمر

يقال في تعريفه ـ على قول ـ: هو طلب الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء و الإلزام، و هو يجري في صيغ أربع، و هي:

١. فعل الأمر (= الأمر بالصّيغة)، نحو: إذهب ـ صلِّ، قال تعالى: «يا يحيى خذ الكتاب بقوّة»[١].

٢. المضارع المقترن بلام الأمر (الأمر الغائب)، قال تعالى: لِيُنفقْ ذوسعة من سعته»[٢].

---

١. مريم، ١٢. ٢. الطّلاق، ٧.

۳. اسم فعل الأمر، قال تعالى: «عليكم أنفسَكُمْ لا يضرّكم من ضلّ إذا آهتديتُم»[۱]، و نحو: صَهْ.

٤. المصدر النّائب عن فعل الأمر، كقول جرير في هجاء بني نمير:

فصبراً يا تيوسَ بني نمير فإنّ الحرب موقدة شهاباً

و التّقدير: اصبروا صبرا، و نحو: سعيا في سبيل الخير[۲].

ليس المهمّ في بحث الأمر معرفة صيغه الّتي يجري بها، و إنّما المهمّ معرفة المعاني يخرج إليها عن معناه الأصلي الّذي هو «طلب فعل على وجه الاستعلاء و الإلزام».

و يبدو أنّ البلاغيّين صبّوا اهتمامهم على استقصاء وجوه المعاني الجديدة، و استخلصوها من ثنايا الحال الّتي يكون عليها المتكلّم أو المخاطب، لا من خلال الصّيغ بحدّ ذاتها.

من معاني الأمر

۱. الدعاء، و هو طلب الأدنى من الأعلى، و الصّغير من الكبير، و الضّعيف من القويّ، و المخلوق من الخالق.

فلو قال امرؤ: «ربّنا إنّنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربّكم فآمنّا، ربّنا فاغفرلنا ذنوبنا و كفّر عنّا سيّئاتنا و توفّنا مع الأبرار»[۳]. فإنّه لا يأمر ربّه أن يغفر له، و يكفّر عنه سيّئاته، و يتوفّاه مع الأبرار، و ليس من المعقول أن يكون هذا طلباً على وجه الاستعلاء و الإلزام، و لكنّه طلب فيه ضراعة و خوف، و فيه تذلّل و استعطاف، و فيه انقلب معنى الأمر إلى معنى الدّعاء.

۲. الالتماس، و هو طلب النّدّ من النّدّ، و الصّديق من الصّديق، و في هذا الطلب لا يكون الأمر أمراً بمعناه الأصيل، و إنّما ينقلب الأمر الظّاهري إلى التّماس رقيق، مَثَلُه قول عمر بن أبي ربيعة:

يا خليليّ قرّبا لي ركابي و استرا ذاكها غداً عن صحابي

و كقولك لصديقك: أعطني القلم أيّها الأخ.

۳. الإرشاد، و هو طلب خلا من كلّ تكليف و إلزام، يحمل بين طيّاته معنى النّصيحة

---

۱. المائدة، ۱۰۵.
۲. جواهر البلاغة؛ ص ۷۸.
۳. آل عمران، ۱۹۳.

والإرشاد، كقول والد لولده: يا بني استعذ بالله من شرار النّاس وكن من خيارهم على حذر.

فالوالد لا يأمر ولده و لا يستعلي عليه، و لا يلزمه أو يرهقه، و إنّما يقدّم له في أسلوب معيّن خلاصة تجربة إنسانيّة عاشها، و اكتوى بلظاها، و أراد من ولده أن يستعيذ بالله من أشرار البشر و مكائدهم و دسائسهم و حقاراتهم، و أن يحذر ـ في الوقت ذاته ـ من أخيار النّاس و سذّجهم، إذ ربّما أوقعه السّاذج في ورطة لا أوّل لها و لا آخر، ببلاهة وضيق تفكير.

٤. التّمنّي، و هو طلب أمر محبوب لا يرجى الحصول عليه لاستحالته أو لتعذّر تحقّقه، مثل ذلك مخاطبة عنترة لديار عبلة:

يـا دار عـبلة بـالجواء تكـلّمي ‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍‍ وَ عِمِيْ صباحا دار عبلة و اسلمي

فديار عبلة لن تتكلّم مهما طال الزّمن، و مهما أمرها الشّاعر، و عنترة يدرك ذلك، و هو في تعبيره هذا لا يقصد الأمر ـ في حقيقته ـ و إنّما يتمنّى أن تسمع و تنطق و تطيع، لعلّه يفضي إليها بما يكوي فؤاده، فتخبر هي عبلة الحبيبة بما رأت و سمعت، و مثله مخاطبة امرئ القيس للّيل:

ألا أيّها اللّيل الطّويل ألا انجلِ ‍‍‍‍‍‍‍‍ بصبحٍ، و ما الإصباح منك بأمثل

٥. التّخيير، و هو طلب لا يقصد به إلّا تخيير المخاطب بين أمرين على أنّه لا يحقّ له أن يأتي بالأمرين معا في وقت واحد، كقول الفقهاء: تزوّج هنداً أو أختها، فالزّواج من هند يحرّم الزّواج من أختها مادامت في عصمة زوجها، و ليس للزّوج أن يجمع بين الأختين، و مثله: جالس الحسن أو ابن سيرين.

٦. الإباحة، و تكون الاباحة حيث يتوهّم المخاطب أنّ الفعل محظور عليه، فيكون الأمر إذناً له بالفعل، و لا حرج عليه في التّرك، نحو قوله تعالى: «كلوا من الطّيّبات»[1].

٧. التّعجيز، و هو طلب المخاطب تنفيذ أمر أشبه المستحيل، ليظهر عجزه، و يبيّن ضعفه، تحدّياً و استضعافاً، مثل ذلك تحدّي القرآن الكريم لأفذاذ العرب الّذين يرتابون فيه و يشكّون في نزوله على الرّسول (ص): «و إن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله...»[2]، و هيهات أن يستطيعوا نظم سورة من مثله، أو عدداً من الآيات.

و شبيه بالتّعجيز مخاطبة الفرزدق لخصمه جرير:

---

١. المؤمنون، ٥١. ‍‍‍‍ ٢. البقرة، ٢٣.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

٨. التّهديد، و هو طلب، ليس فيه استعلاء و لا إلزام، و إنّما فيه قوّة، و تهديد و وعيد للمخاطب، كأن يقول والد لولده: أهمِلْ دروسك و سوف تتحاسب!، و مثله قوله ـ تعالى ـ في خطاب الملحدين: «اعملوا ما شئتم إنّه بما تعملون بصير»[١].

٩. التّحقير، و هو طلب يحمل بين ثناياه التّحقير و الإهانة و الإذلال، كقول جرير في هجاء الفرزدق:

خذوا كُحلاً و مجمرةً و عطراً فلستم يا فرزدق بالرّجال

و شمّوا ريح عيبتكم فلستم بأصحاب العِناق و لا النّزال

فجرير لايأمر الفرزدق، ولكنّه يسخر منه و يحتقره و يخاطبه بأسلوب ظاهره الأمر و باطنه الهجاء، فهو يصوّر الفرزدق بصورة المرأة الّتي تتعاطى الكحل و البخور و التّجمل، و إنّه لأصعب ما في الهجاء أن يوصف الرّجل بصفات المرأة، و أن توصف المرأة بصفات الرّجال.

١٠. الإكرام، نحو: «ادخلوها بسلام آمنين»[٢]. فالسّلام و الأمن قرينة على كون الصّيغة للإكرام.

١١. الإمتنان، نحو: «كلوا ممّا رزقكم اللّه»[٣].

١٢. التّكوّن، و هو الإيجاد عن العدم بسرعة، نحو: «كن فيكون»[٤].

١٣. التّفويض، نحو: «فاقض ما أنت قاض»[٥].

١٤. الإذن، كقولك لمن طرق الباب: ادخل.

١٥. الاعتبار، نحو: «انظروا إلى ثمره إذا أثمر»[٦].

و بعد فليس لنا أن نحصر معاني الأمر فيما ذكر من بنود، إنّما الواجب ذكر نماذج من مواضع خروج الأمر عن معناه الحقيقيّ، فنكتفي بذلك، فليراجع الكتب المبسوطة، من يريد الزّيادة على ذلك.

---

١. فصّلت، ٤٠. ٢. الحجر، ٤٦.

٣. الأنعام، ١٤١. ٤. البقرة، ١١٧.

٥. طه، ٧٢.

٦. الأنعام، ٩٩ و راجع: البلاغة العربيّة؛ ج ١، ص ١٠٢ـ١٠٧ و جواهر البلاغة؛ ص ٧٧ـ٧٩ و دراسة و نقد...؛ ص ١٢٢ـ١٢٣.

الأسئلة و التّمارين

١. ما هو الإنشاء؟ ما هو الإنشاء الطّلبيّ؟ كم قسما للإنشاء الطلبيّ باعتبار مفهوم الطّلب؟ ما هو الأمر؟ هل يخرج الأمر عن معناه الأصليّ؟

٢. بيّن الإنشاء و أنواعه فيما يأتي:

أ) أَحْبِبْ حبيبَك هوناً ما عسى أن يكون بغيضَك يوماً ما، و أَبْغِضْ بغيضَك هوناً ما عسى أن يكون حبيبَك يوماً ما.

ب) قال أبو تمام:

لا تسقني ماءَ الملام فإنّني   صبٌّ قد استعذبتُ ماءَ بُكائي

ج) قال ابن الزّيات يمدح الفضل بن سهل:

يا ناصرالدين إذْ رَثّتْ حبائلُه   لأنت أكرم من آوى و من نصرا

د) لأميّة بن أبي الصّلت في طلب حاجة:

أَأَذكُرُ حاجتي أم قد كفاني   حباؤك إنّ شيمتَك الحياءُ

ه) قال امرؤ القيس:

أجارتَنا إنّا غريبان هاهنا   و كلّ غريب للغريب نسيب

و) قال المتنبّي:

ـ لعلّ عتبك محمودٌ عواقبُه   و ربّما صحّت الأجسام بالعلل

ـ فياليت ما بيني و بين أحبّتي   من البعد ما بيني و بين المصائب

٣. حوّل الجمل الخبريّة الآتية إلى جمل إنشائيّة و استوف جميع صيغ الأمر:

أنت تبكر في عملك ـ يخرج عليٌّ إلى الرّياض ـ تصبر نفسي على الشّدائد ـ يأخذ البطل سيفه ـ يثبت سَعيد في مكانه.

٤. لِمَ كانت صيغ الأمر في الأمثلة الآتية تفيد الإرشاد، و الالتماس، و التّعجيز، و التّمنّي، و الدّعاء،؟:

أ) و كن على حَذَرٍ للنّاس تستره   و لا يغرُّك منهم ثغر مبتسِمِ

ب) يا خليليّ خلّياني و ما بي   أو أعيدا إليّ عهد الشّباب

ج) يا دار عبلة بالجواء تكلّمي   وَ عِمِي صباحاً دار عبلة و اسلمي

د) أرني الّذي عاشرته فوجدته   متغاضِياً لكَ عن أقلّ عثار

ه) تمسّكْ بحبل القرآن و استنصِحْه، و أَحِلَّ حلالَه و حرِّم حرامه.

و) قال حكيم لابنه:

يا بنيّ، زاحم العلماء بِرُكبَتَيْك، و أنصِتْ إليهم بأُذُنَيك، فإنّ القلب يحيا بنور العلم كما تحيا الأرضُ الميتة بمطر السّماء.

٥. بيّن صيغ الأمر و ما يراد بها فيما يأتي:

أ) قال أبو الطّيب يخاطب سيف الدّولة:

أجِزني إذا أُنشِدتَ شِعراً فإنّما بشعري أتاك المادحون مردّداً
و دع كلّ صوتٍ غير صوتي فإنّني أنا الصّائح المحكيُّ و الآخر الصّدى

ب) قال البحتريّ:

فاسلَمْ سلامةَ عِرضِك الموفُورِ من صرْف الحوادِث و الزّمان الأنكا

ج) قال أبو نواس:

فامض لا تمنن عليّ يداً منُّك المعروف من كدره

د) قال مهيار الدّيلمي:

و عِش إمّا قرينَ أخٍ وفيٍّ أمينِ الغَيْبِ أو عيش الوحادِ

٦. هات أمثلة لصيغ الأمر الأربع، بحيث يكون المعنى الحقيقيّ للأمر هو المراد في كلّ صيغة.

٧.اِلْعَبْ و اهجُرْ قراءةَ الدّرسِ.

قد يكون الأمران السّابقان للتّوبيخ، أو للإرشاد، أو للتّهديد، فبيّن حال المخاطب في كلّ حال من الأحوال الثّلاث.

٨. اِسبح في البحر:

قد يكون الأمر السّابق للدّعاء، أو للالتماس، أو للتّعجيز، أو للإرشاد، فبيّن حال المخاطب في كلّ حال من الأحوال الأربع.

٩. اشرح ما يأتي و بيّن ما راعك من بلاغته و حسن تأديته المعنى:

كان أبو مسلم يقول لقُوّاده: أشعِروا قلوبكم الجراءة فإنّها من أسباب الظّفر، و أكثِروا ذكرَ الضّغائنِ فإنّها تَبعثُ على الإقدام، و الزَموا الطّاعة فإنّها حِصن المحارب[1].

ب) النّهي

و هو ـ على قول ـ: طلب الكفّ عن الفعل أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء

---

١. مقتبس من البلاغة الواضحة؛ ص ١٧٠ـ١٨٤.

و الإلزام.

و له صيغة واحدة، و هي الفعل المضارع المقرون بـ«لا» الناهية الجازمة، كقولك: لا تهملْ واجبك.

و يهتمّ البلاغيّون بالمعاني الّتي يخرج منها معنى النّهي على حقيقته إلى المعاني الأخرى الّتي تستفاد من سياق الكلام و قرائن الأحوال، منها:

١. الدّعاء، و يكون من أدنى إلى أعلى ـ و قدمرّ في الأمر بيانه ـ، و هو كقوله تعالى: «ربّنا لا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا»[1]. و ذلك ليس نهياً للّه تعالى أن يزيغ قلوب المؤمنين بعد أن أبلغهم جادة الهدى و الايمان، ولكنّه دعاء يحمل معنى التّوسل و الرّجاء. و مثله قول النابغة الذّبياني للنّعمان بن المنذر:

فلا تتركنّي بالوعيد كأنّني إلى النّاس مطليٌّ به القار أجْرَبُ

فالشّاعر لا ينهى الملك عن تركه بدائرة الوعيد و التّهديد ليبق بين النّاس طريداً شريداً منبوذاً، كأنّه البعير الأجرب، و قد دُهِن الكريه المنظر و الرّائعة، و لكنّه يدعوه و يتوسّل إليه و لِمَ لايكون أسلوبه دعاءً و هو الصّغير تجاه المخاطب القويّ الكبير.

٢. الالتماس، و هو طلب النّدّين النّدّ ـ كما مرّ في الأمر ـ فقول ابن ربيعة لفتاته:

فلا تقتليني إن رأيت صبابتي إليك، فإنّي لا يحلّ لكم قتلي

لا يدخل في باب النهي بمعناه الأصلي، و لا في باب الدّعاء، لأنّ الفتاة الحبيبة ليست أعلى منه و لا أكبر، و إنّما هي حبيبة قبل كلّ شيء، لها ماله و عليها ما عليه، و لو لم تكن كذلك لم يحبّها و يمحضّها خالصَ هواه، إذن فحديثه إليها التّماس في حقيقته و غايته. و كقولك، لمن يساويك: لا تتوانَ أيّها الأخ!

٣. الإرشاد، و هو طلب جاء على صورة النّهي ظاهراً، حمل معنى النّصيحة و الارشاد باطناً، مثل قول المعرّي:

و لا تجلس إلى أهل الدّنايا فإنّ خلائق السّفهاء تُعدي

فهل تظنّ أنّ الشاعر ينهى على سبيل الاستعلاء و الإلزام؟ أو أنّه يعلّم صاحبه حكمة خالدة، و يرشده إلى سلوك مستقيم؟ أو ليس قصد الشّاعر رفعَ مستوى صاحبه بين النّاس؟ أو ليست مجالسة الأدنياء و الأسافل، و مخالطتهم، و مصاحبتهم تؤثر بشكل مباشر

---

١. آل عمران، ٨.

أو غير مباشر في سلوك من يخالطونهم و يصاحبونهم؟ إذن فالعاقلُ العاقلُ من نأى عن هذه البؤرة الفاسدة، و حفظ نفسه و قلبه و عينه و سمعه من أدرانها.

٤. الاحتقار و التّقليل، نحو: «لا تمدنّ عينيك إلى مامتعنا به أزواجامنهم»[١]. أي فهو قليل حقير بخلاف ما عندك.

٥. بيان العاقبة، نحو: «و لا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتا...»[٢]. أي إنّ عاقبة الجهاد في سبيل اللّه الحياة لا الموت.

٦. الإهانة، نحو: «اخسئوا فيها و لا تكلّمون»[٣].

٧. التّهديد، كقولك لمن يعصيك: لا تطع أمري!

٨. التّمنّي، نحو: لا ترحل أيّها الشّباب! و نحو: يا ليلة الأنس لا تنقضي.

٩. التّوبيخ، نحو: لا تنه عن خلق و تأتيَ مثله!

١٠. الكراهة، نحو: لا تلتفت و أنت في الصّلاة.

التمارين

أ) بيّن صيغة النّهي و المراد منها في كلّ مثال منَ الأمثلة الآتية:

١. قال تعالى: «لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها»[٤].

٢. قال أبو العلاء المعرّي:

لا تحلفنّ على صدق و لا كذبٍ ... فما يفيدك إلّا المأثم الحلِفُ

٣. قال البحتري يخاطب المعتمد:

لا تخل من عيش يكُرُّ سروره ... أبدا و نَورُوزٍ عليك مُعاد

٤. قال الشّاعر:

لا تطلب الجد إنّ الجد سُلّمهُ ... صعب و عِش مُستَريحاً ناعِم البال

٥. قال خالد بن صفوان:

لاتطلبوا الحاجات في غير حينها، ولاتطلبوها من غير أهلها.

ب) لِمَ كان النّهي فيما يأتي للإرشاد، و التّمنّي، و التّهديد و التحقير:

---

١. الحجر، ٨٨.
٢. آل عمران، ١٦٩.
٣. المؤمنون، ١٠٨.
٤. الاعراف، ٥٦.

١. لا يخدعنك من عَدُوٍّ دمعُهُ و ارحم شبابك من عدُوٍّ تُرحَم
٢. لا تمطِري أيّتها السّماءُ.
٣. لا تُقلِع عن عِنادك (تقوله لمن هو دونك).
٤. لا تُجهِدْ نفسَك فيا تعِب فيه الكرام.

ج) بيّن صيغ النّهي و المراد من كلّ فيا يأتي:

١. قال الشّريف الرّضي:
لا تأمَنَنَّ عَدُوّاً لانَ جانبه خُشُونَةُ الصِّل عُقبَى ذلك اللّين

٢. قال أبو الطّيب:
ـ فلا تَنَلْكَ اللّيالي إنّ أيديها إذا ضربنَ كسرنَ النّبع بالغَرب
ـ لا تُلهِيَنَّكَ عن معادِكَ لذّةٌ تَفنَى و تُورث دائم الحسرات
ـ لا تحسبُوا من قتلتُم كان ذا رمق فليس تأكل إلّا الميتةَ الضَّبُع

٣. قال المعرّي:
لا تَطويَا السِّرَّ عنّي يوم نائبة فإنّ ذلك ذنب غيرُ مُغتفَر
و الخِلُّ كالماء يُبدِي لي ضمائرَه مع الصّفاء و يخفيها مع الكدر

د) هات مثالين تفيد صيغة النّهي في كلّ منها المعنى الأصليّ للنّهي.

هـ) لا تُفارقْ فِراش نومك.

قد يكون النّهي في الجملة السّابقة للإرشاد، أو التّوبيخ، فبيّن حال المخاطب في كلّ من الأحوال الثّلاث.

و) حوّل الجمل الخبريّة الآتية إلى جمل إنشائيّة من باب النّهي، و عيّن المراد من صيغة النّهي في كلّ جملة تأتي بها:

١. أنت تعتمد على غيرك.
٢. أنت تطيع أمري.
٣. أنت تكثر من عتاب الصّديق.
٤. أنتم تعتذرون اليوم.
٥. أنت تنهى عن الشّرّ و تفعله.
٦. يحضر عليّ مجلسنا.
٧. أنت تؤاخذني بكلّ هفوة.

٨. يهمل بعض النّاس تعليم أبنائهم.

ز) اشرح البيتين الآتيين و بيّن المراد من صيغتي النّهي فيهما:

فلا تُلزِمَنّ النّاسَ غيرَ طباعهم ... فتتعب من طول العتاب و يتعبوا

و لا تغترر منهم بحُسن بشاشة ... فأكثرُ إيماض البوارق خُلَّبُ

ج) الاستفهام

الاستفهام، هو طلب حصول صورة الشيء في الذّهن بأدوات مخصوصة كالهمزة و هل و ما و من و أيّ وكم و كيف و أينَ و أنّى و متى و أيّان.

و طلب حصول صورة الشيء يعمّ التّصور و التّصديق، لأنّ المطلوب بتلك الأدوات إن كان صورة وقوع نسبة بين أمرين أولا وقوعها فهو تصديق، و إن كاصورة الموضوع أو المحمول أو النّسبة فهو تصوّر[1].

و تنقسم أدوات الاستفهام باعتبار الطّلب إلى ثلاثة أقسام:

١. ما يطلب به التّصوّر تارة، و التّصديق تارة أخرى، و هو الهمزة (=أ).

٢. و ما يطلب به التّصديق فقط، و هو «هل».

٣. و ما يطلب به التّصوّر فقط، و هو بقيّة أدوات الاستفهام.

الهمزة (= أ). تختصّ الهمزة بين أدوات الاستفهام باستعمالها لطلب التّصوّر و التّصديق فهي تارة تستعمل لطلب التّصديق بوقوع نسبة تامّة بين الشّيئين، إذا كان أصل الحكم مجهولاً عند المتكلّم، كقولك في الجملة الاسميّة: «أشَعْبُنا سعيد؟» و في الجملة الفعليّة: «أفَازَ شعبنا؟»

فالمطلوب بالهمزة في هذين المثالين حصول انقياد الذّهن و إذعانه بوقوع سعادة الشّعب و فوزه أولا وقوعهما.

و تارة تستعمل لطلب التّصوّر و إدارك غير النّسبة، كقولك في المسند إليه على وجه التّعيين: «أعليّ خطب اليوم أم منصور؟» إذا كنت عالماً بوقوع النّسبة و إلقاء خطابة في جانب شخص ما، ولكنّك جهلت المسند إليه على وجه التّعيين، و في طلب تصوّر المسند على وجه التّعيين: «أعليٌّ في الصّف أم في المكتبة؟» إذا كنت عالماً بوقوع النّسبة و حصول عليّ في واحد من المحلّين لا على التّعيين، فتطلب بهذا القول تعيّن المسند.

---

١. دراسة و نقد...؛ ص ٨٦.

و الفرق بين الاستفهام عن التّصوّر و التّصديق من وجهين:

لفظيّ، و هو أنّ الاستفهام عن التّصوّر يصلح لأن يقع بعده «أم المتّصلة»، و أمّا الاستفهام عن التّصديق فلا يصلح إلّا لِ«أم المنقطعة».

و معنويّ، و هو أنّ التّردّد و الشّك في الاستفهام عن التّصوّر يرجعان إلى تعيين أحد طرفي الجملة، و في الاستفهام عن التّصديق يرجعان إلى النّسبة بينهما من حيث الثّبوت أو النّفي.

و اعلم أنّ استعمال «أم» تجاه الهمزة يحتاج إلى مزيد بيان، فنقول:

إنّ المسؤولَ عنه في التّصور، هو ما يقع بعد الهمزة مباشرة، و يذكر له بعد «أم» معادل من نوعه، فإذا كان ما بعد الهمزة اسما، ذكرت بعد «أم» اسماً يعادله، و إذا كان ما بعد الهمزة فعلا ذكرت بعد أم فعلا يعادله، و إذا كان ما بعد الهمزة مفعولا أو حالا ذكرت بعد «أم» مفعولا أو حالا يعادله، و هلّم جرّا.

و تسمّى «أم» الواقعة بعد همزة التّصوّر «متصلة»، أي أنّ ما قبلها متّصل بما بعدها، و لا يستغني أحدهما عن الآخر.

مثال الاسم بعد همزة التّصوّر و ما يعادله بعد أم: أمحمّد مسافر أم عليّ؟

مثال الفعل بعد همزة التّصور و ما يعادله بعد أم: أسافر سعيدٌ أم أقام؟.

مثال المفعول كذلك...: أسفرجلا أكلت أم تفاحاً؟

مثال الحال كذلك...: أماشيا جئت أم راكبا؟

مثال المجرور كذلك...: أفي الكلّية مكثت أم في المكتبة؟

فتراعي ذلك في كلّ تركيب مع همزة التّصوّر: أن يكون ما بعد أم معادلاً لما بعد الهمزة. انظر إلى قوله تعالى:

«قل أأنتم أعلم أم اللّه؟» و كذلك «ليبلوني أأشكر أم أكفر؟»

تجد ما بعد أم مماثلا لما بعد همزة الاستفهام سواء كان اسما أو فعلا، و أحيانا يستغني عن ذكر المعادل، فلا يذكر في الكلام، ولكن تقدّره في النّفس، فتقول مثلاً: أسعيدٌ نجح؟ و تكتفي بذلك دون أن تذكر المعادل، و أم، و يكون التّقدير: أسعيدٌ نجح أم منصور؟

و الاستغناء عن ذكر المعادل قد ورد في القرآن الكريم، قال تعالى: «أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا ابراهيم؟»[1]، و التّقدير: أأنت فعلت هذا بآلهتنا أم غيرك؟.

---

١. الأنبياء، ٦٢.

و أمّا همزه التّصديق فيستفهم بها عن النّسبة من حيث الثّبوت أو النّفي و لذلك يكون الجواب ـ بـ«نعم» أو «لا»، و لا يذكر بعدها «أم»، فإن جاءت بعدها «أم» قدرت «منقطعة» بمعنى «بل»، أي فيها معنى الإضراب عن الكلام السّابق كأنّه لم يكن، و ما بعدها هو الكلام المعتمد المطلوب، و يشترط أن يكون جملة، كقول الشّاعر:

و لست أبالي بعد فقدي مالكا أموتي ناء أم هو الآن واقع

فأمْ هنا منقطعة تفيد معني الإضراب عن الكلام السّابق، و هو قوله «أموتي ناء» و يكون السّؤال عن إدارك النسبة في قوله «أموتي الآن واقع؟» و هو جملة كما ترى.

فأمْ إذا وقعت بعد همزة التّصديق كانت منقطعة، أي تكون بمعنى بل الّتي تفيد الإضراب عن الكلام السّابق.

فإذا وجه إليك سؤال مبدوء بهمزة التّصديق، فانظر إلى صيغة السّؤال، هل هو إيجابيّ، أو سلبيّ، ثمّ أجب حسب ما ترى:

١. إن كانت الهمزة سابقة لفعل موجب ـ أي غير منفيّ ـ فالجواب بـ«نعم» للإيجاب و بـ «لا» للنّفي. مثال ذلك: أتحبّ طلب العلم؟ إن قلت: «نعم» فأنت تعني أنّك تحبّ طلب العلم. و إن قلت: «لا» فأنت لا تحبّه.

مثال آخر: أأنت ناجح؟ إن قلت: «نعم» فأنت تعني أنّك النّاجح. و إن قلت: «لا» فتعني أنّك لست الناجح.

٢. إن كانت الهمزة سابقة لفعل منفيّ، فالجواب يكون «بلى» إذا أردت الإيجاب و «نعم» إذا أردت السّلب أو النفي. مثال ذلك: ألم تأخذ منّي كتابي؟، لو قلت: بلى، فأنت تقرّ بأنّك أخذت كتابي. و لو قلت: نعم، فأنت تنكر أن تكون أخذت كتابي.

و قد تحذف الهمزة إذا فهمت من الكلام، نحو:

تاللّه يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاي منكنّ أم ليلى من البشر؟

تقديره: أليلاي منكنّ...

أحكام الهمزة. تختصّ الهمزة بأحكام، منها:

١. جواز دخلولها على الجملتين الاسميّة و الفعليّة، ولكن دخولها على الجملة الفعليّة أكثر.

٢. مجيئها ـ كما سبق ـ لطلب التّصوّر و التّصديق.

٣. إيلاء المسؤول عنه لها، و قدمرّ ذلك أثناء حديثنا عمّا يتعلّق بها.

٤. جواز دخولها على المثبت و المنفيّ، كقوله تعالى: «أأنتَ قُلتَ للنّاس؟»[١] و «ألَمْ أعهد إليكم؟»[٢].

٥. جواز حذفها، و قدمرّ.

٦. تمام التّصدير، و ذلك لأنّها لا تذكر بعد «أم» للإضراب كما يذكر بعدها غيرها.

و لأنّها تقدّم على العاطف إذا كان واواً، أو فاءً، أو ثمّ، نحو: أو لم ينظروا؟، أفلم يسيروا؟ أثمّ إذاما وقع آمنتم؟؛ و أمّا بقيّة أدوات السؤال فتتأخّر عن حروف العطف[٣].

هَلْ. تمتاز «هل» بين أدوات السّؤال بأنّها لطلب التّصديق فقط، نحو: هل قدم المسافر؟ ـ في الجملة الفعليّة ـ و هل سيبويه مدفون بشيراز؟ ـ في الجملة الاسميّة ـ.

فـ«هل» في هذين المثالين تفيد أنّ أصل الحكم فيهما غير محقّق الثّبوت عند المتكلم، فيشكّ في ثبوت القدوم للمسافر، و كذا في دفن سيبويه بشيراز، فيستفهم بها ليحصل التّصديق عنده.

و لأنّ أصل «هل» لطلب التّصديق و إفادة أنّ أصل الحكم مجهول عند المتكلّم، وجب أن لا تكون الجملة الّتي سئل عنها بـ«هل» بحيث تدلّ على أنّ العلم بثبوت أصل الحكم حاصل.

و يتفرّع من هذا الأصل أمران:

أحدهما، امتناع مثل: هل فاز باللّذة الجسور أم الجبان؟ لأنّ «هل» تفيد أنّ أصل الحكم مجهول، ولكن «أم» المتّصلة الّتي وقع بعدها المفرد، تدلّ على أنّ المطلوب بالاستفهام تعيين أحد الأمرين مع العلم بثبوت أصل الحكم، فكيف يمكن الجمع بينهما!

و الثاني قُبْح مثل: هل الكتابَ قرأتَ؟ لأنّ تقديم المفعول يدلّ على أنّ أصل الحكم محقّق الثّبوت عند المتكلّم و أنّ المطلوب تعيين المفعول، مع أنّ «هل» تتطلّب حصول التّصديق بأصل الحكم، «فيكون» هل «طلبا لحصول الحاصل و هو محال»[٤].

أحكام هل. تختصّ «هل» بأحكام، منها:

١. اختصاصها بالتّصديق و قدمرّ.

٢. اختصاصها بالإيجاب في الجملة الفعليّة و الاسميّة، لأنّها بمعنى «قد»، فلا يقال:

---

١. المائدة، ١١٦.
٢. يس، ٦٠.
٣. دراسة و نقد...؛ ص ٨٩ـ٩٠.
٤. المطول؛ ص ٢٢٨.

هل لا يكتب سعيدُ الرّسالةَ؟ كما لا يقال: قد لا يكتب سعيد...

٣. تخصيصها المضارع بالاستقبال كالسّين وسوف، و لهذا لا يصحّ: هل تترك القتالَ و العدوّ في دارك؟

٤. أنّها لا تدخل على الشّرط، و لا على «إنّ» و لا على اسم بعده فعل في الاختيار، بخلاف الهمزة. فالهمزة تدخل عليها، بدليل أنّه جاء في القرآن:

أ) «أَ فإنْ مِتَّ فهم الخالدون»[١].

ب) أ إنّك لَأنت يوسف»[٢].

ج) أ بَشَراً منّا واحداً نتّبعُه»[٣].

٥. أنّها تقع بعد العاطف، و بعد «أم»، كقوله تعالى: «فهل يهلك إلّا القوم الفاسقون؟»[٤]. و قوله أيضا: «هل يستوي الأعمى و البصير؟ أم هل تستوي الظّلمات و النّور؟»[٥].

٦. مزيد اختصاصها ـ بين أدوات الاستفهام ـ بالفعل، فلا تُخرّجُ على خلاف هذا الأصل في الكلام البليغ إلّا لنكتة، فهي في قوله ـ تعالى ـ: «فهل أنتم شاكرون؟»[٦]. أدعى لطلب الشّكر من قولنا: فهل تشكرون؟، لأنّ إبراز ما سيتجدد في معرض الثابت أدلّ على كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله.

٧. أنّها عند ما يستفهم بها لا يترجّح في نفس السّائل إثبات و لا نفي.

٨. أنّها تأتي بمعنى النّفي و لذلك تقع بعدها «إلّا» كقوله تعالى: «هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان»[٧].

٩. أنّها تأتي بمعنى «قد» مجرّداً عن الاستفهام، فتفيد معنى التّقريب أو التّحقيق أو التوقّع أو التّوقّع مثل «قد»، كقوله تعالى: «هل أتى على الانسان»[٨].

سائر أدوات الاستفهام. لقد سبق أنّ الأدوات الاستفهام الّتي تختصّ بطلب التّصوّر فقط، هي ما عدا الهمزة و هل. فهذه الأدوات و إن كانت مشتركة في إفادة التّصوّر، إلّا أنّها

---

١. الانبياء، ٣٤.
٢. يوسف، ٩٠.
٣. القمر، ٢٤.
٤. الاحقاف، ٣٥.
٥. الرّعد، ١٦.
٦. الأنبياء، ٨٠.
٧. الرّحمن، ٦٠.
٨. الدّهر، ١ و دراسة و نقد...؛ ص ٩٣ ـ ٩٥.

مختلفة من حيث إنّ المتصوّر في كلّ منها غيره في الآخر. و ندرس فيما يلي تفصيل ذلك فنقول، منها:

«ما». و يستفهم بها عن أفراد غير العقلاء، نحو: «و يسألونك ما ذا ينفقون؟ قل العفو»، و أيضا: «يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم؟»

و هي تنقسم إلى قسمين: شارحة و حقيقيّة. فالشّارحة ما يطلب به شرح مفهوم اللّفظ و بيان المراد منه. فإن كان المطلوب بها إيضاح اللّفظ، كان الجدير بالجواب إيراد لفظ أشهر، نحو: ما العسجد؟ فيقال في الجواب: إنّه ذَهبٌ. و هذا الأسلوب من صميم المباحث اللغويّة، و تسمّى «ما» في هذه الصّورة «ما اللّفظيّة».

و إن كان المطلوب بها ماهيّة مفهوم الاسم المستعمل قبل العلم بوجوده، كان الجواب حدّاً بحسب الاسم أو رسما بحسب الاسم، و ذلك كقولك: «ما الإنسان؟» فيقال في جوابك: حيوان ناطق ـ أوحيّ مستقيم القامة عريض الأظفار.

و الحقيقيّة، ما يطلب بها ذات الشيء و حقيقته الّتي هو بها هو، و ذلك كقولك: ما الإنسان في وجوده، أي ما حقيقته الموجود[1]، فيجاب: حيوان ناطق. فهذا الجواب قبل العلم بوجود المسؤول عنه، حدّ اسميّ، و بعده حدّ حقيقيّ.

«من». يسأل بها عن تعيين أفراد العقلاء، نحو: من حفر بئر زمزم؟ فيقال: عبدالمطلب. من فتح مصر؟. من عندك؟

أحكام «من». تمتاز «من» بين أدوات الاستفهام بأحكام، منها:

١. أنّها تختصّ بذي العلم، فلا تستعمل لغيره إلّا إذا نزّل منزلته.

٢. لزوم مطابقة جوابها لما في الواقع من غير زيادة و لا نقص فمثلا إذا كان مَنْ حفر بئر زمزم واحداً، يلزم أن يكتفى في الجواب بواحد، و إذا كان طائفة من النّاس، يجب أن يذكر جميعهم، فلا يصحّ حينئذ الاكتفاء ببعض منهم.

٣. أنّها صالحة بلفظ واحد للمذكر و المؤنّث، و المفرد و المثنّى و الجمع[2].

«أيّ». و المطلوب بها ما يميّز أحد المتشاركين أو المتشاركات في أمر عامّ، هو مضمون ما أضيف إليه، يعني أنّه إذا كان هناك شيئان يتّصفان بصفة و يشتركان فيها و يعرفان بها عند المتكلّم، ولكن ثبت لأحدهما حكم لا على التّعيين، فللمتكلّم أن يسأل

---

١. نفس المصدر، ص ٩٦ـ٩٧. ٢. نفس المصدر، ص ١٠٠.

بـ«أيّ» في هذه الصّورة عمّا يميّز صاحب الحكم و يشخّصه، و ذلك مثل قولك: أيّ الشاعرين الفارسيّين حماسيّ: الفردوسى أو الحافظ؟ فهما الشّخصان اللّذان اشتركا في الشاعريّة الّتي هي مضمون المضاف إليه في المثال، و الحكم الّذي علم ثبوته لأحدهما لا على التّعيين هو الأسلوب الشعر الحماسيّ، فسئل بأيّ عمّا يعيّن صاحب الحكم من غيره، فيجاب بـ«الفردوسي» مثلا[١].

و اعلم أنّ «أيّ» تأتي للسؤال عن الزّمان و المكان، و الحال، و العدد، و العاقل، و غير العاقل، و الجنس، و الفصل، و النّوع و غيرها، فتعرف هذه المعاني ممّا أضيفت إليه.

«كم». يسأل بها عن العدد المعيّن، كقوله تعالى: «قال قائل منهم: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم»[٢]. و مميّزها مفرد منصوب بلا فصل و معه، نحو: كم رجلا في الدّار؟ أو كم في الدّار رجلا؟.

«كيف». يطلب بها عن الحال أو الصّفة الّتي يقع عليها الشيء، كالصّحة و المرض و الجلوس و القيام و غيرها، فيقال: كيف سعيدٌ؟ أي: أصحيح أو مريض؟ و كيف جئتَ، أي: أراكبا أو ماشيا؟ و تقع في التّركيب حالاً و خبراً و مصدراً، نحو: كيف سرتَ راكباً أم راجلاً؟ و كيف أنت؟ و كيف قرأتَ سرّاً أم جهراً؟

«أين». يستفهم بها عن المكان، كقوله تعالى: «يقول الإنسان يومئذ: أين المفرّ؟» و «أين تذهبون؟».

«أنّى». يسأل بها تارة عن الحال فتفيد معنى «كيف»، و ذلك نحو قوله تعالى: «أنّى يحيي هذه اللّهُ بعد موتها»[٣]. و الفرق بينها و بين كيف في هذه الصّورة أنّها تأتي دائما مع الفعل ماضياً أو مضارعاً، و لم يسمع: أنّى زيدٌ بمعنى: كيف هو؟

و تارة يسأل بها عن المكان و تفيد معنى «من أين؟» و ذلك كما جاء في القرآن: «أنّى لكِ هذا؟»[٤]، أي من أين؟.

«أيّان». يستفهم بها عن الزّمان المستقبل، و تستعمل كثيراً في مواضع التّفخيم، و ذلك مثل قوله تعالى: «أيّان يوم الدّين؟» و «يسألونك عن السّاعة أيّان مرساها؟».

«متى». يطلب بها عن الزّمان ماضياً كان أو مضارعاً، نحو: متى عدتم عن السّفر؟،

---

١. المصدر نفسه؛ ص ١٠٢.
٢. الكهف، ١٩.
٣. البقرة، ٢٥٩.
٤. آل عمران، ٣٧.

و كقوله تعالى: «و زلزلوا حتّى يقول الرّسول و الّذين آمنوا معه متى نصرالله؟».

إخراج أدوات الاستفهام عن معناها الأصليّ. اعلم أنّ ما سبق من المعاني لأدوات السؤال، هي المعاني الأصليّة الّتي إذا استعملت، تلك الأدوات فيها كانت حقيقة، فأدوات الاستفهام من هذه النّاحية ليست من صميم المباحث البلاغيّة، ولكن كثيرا ما تُخرّج تلك الأدوات إلى معاني أخرى، لنُكتٍ بلاغيّة و إيحاء فوائد لا تؤدّيها المعاني الأصليّة، و بهذا الاعتبار يلتق مبحث الاستفهام مع المباحث البلاغيّة و يؤول إليها. و تلك المعاني البلاغيّة شائعة الاستعمال، حتّى أنّ الاستعمال الغالب لأساليب الاستفهام في القرآن يرجع إليها، و هي تتأثّر باختلاف القائل و المخاطب و الأحوال المحيطة بها، و تستفاد من الأدوات الاستفهاميّة بمعونة سياق الكلام و القرائن على سبيل المجاز أو الاستعارة أو غيرهما.

ثمّ إنّ المعاني البلاغيّة لكلمات السّؤال كثيرة و لا ينحصر شيء منها في أداة دون أداة، بل الحاكم في ذلك هو سلامة الذّوق و تتبّع التّراكيب فلا ينبغي أن تقتصر في ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطّاه. و نحن نذكر فيما يلي نماذج منها:

١. الأمر، نحو: «فهل أنتم منتهون؟»[1]، أي انتهوا، و أيضا: «فهل أنتم مسلمون؟»[2]، أي أسلموا.

٢. الإنكار، كقوله تعالى: «أيحسب الإنسان أن يترك سُدى» أى: أنّ ما يحسبه بعض النّاس من أنّهم سيفلتون من الحساب أمر منكر، و الذين يزعمون ذلك كاذبون، و هذا الإنكار للتكذيب، و قد يكون للتّوبيخ على أمر مضى، كقولك لرجل عصى ربّه: أعصيت ربّك؟ فأنت توبخه على ما اقترف. و قد يكون توبيخاً على أمر جدير بالتّرك، نحو: أتعصى ربّك يا فلان؟

٣. التّعجّب، نحو قوله تعالى: «ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام و يمشي في الأسواق؟»[3].
و أيضا: «كيف تكفرون و أنتم تتلى عليكم آيات اللّه و فيكم رسوله؟»[4].

٤. التّقرير، و هو حمل المخاطب على الإقرار و الاعتراف بأمر قد استقرّ عنده، كقوله

---

١. المائدة، ٩١.
٢. هود، ١٤.
٣. الفرقان، ٧.
٤. آل عمران، ١٠١.

تعالى: «ألم نشرح لك صدرك؟»[١]. و كقولك لولدك الّذي يعصي أمرك: ألم أُرَبِّك وليداً؟.

٥. التّعظيم، كقوله تعالى: «مَن ذا الذي يشفع عنده؟»[٢]. و كقول طَرَفة:

إذا القوم قالوا: مَن فتىً؟ خلتُ إنّني عُــنيتُ فــلم أكْسَــلْ و لم أتــبلّدِ

٦. التّحقير، كقوله تعالى: «أهذا الّذي يذكر آلهتكم؟»[٣].

٧. التّذكير، كقوله تعالى: «ألم أعهد إليكم يا بني آدم، أن لا تعبدوا الشّيطان؟»[٤].

٨. الافتخار، كقوله تعالى: «أليس لي ملك مصر»[٥].

٩. التّسوية، كقوله تعالى: «سواء عليهم أ أنذرتهم أم لم تنذرهم»[٦].

١٠. التّرغيب، كقوله تعالى: «هل أدلّكم على تجارة تنجيكم؟»[٧].

١١. النّهي، كقوله تعالى: «أتخشونهم؟ فاللّه أحقّ أن تخشوه»[٨]. فالمعنى: لا تخشوهم.

١٢. التّمنّي، كقوله تعالى: «فهل لنا من شفعاء؟»[٩].

و بعد، فليس ينحصر خروج الاستفهام عن حقيقته و عن معناه الأصليّ إلى معان آخر فيا ذكروه، و ليس يمكن أن يُحَجَّر في قوالب أو قواعد، فيقال هذا الاستفهام للتّقرير وحده، أو لمعنى التّعجّب ليس إلّا أو للتّشويق، أو الأمر أو النّهي أو الإنكار ـ مثلاً ـ و لا يحتمل غير ذلك.

إن ذلك بعيد عن روح الاستفهام و البلاغة جملة و تفصيلاً و إنّ القواعد المتحجّرة المتصلّبة لا تكون في هذه الأساليب أبداً.

القاعدة الرئيسيّة في الاستفهام ـ و في غير الاستفهام ـ محكومة بسياق الكلام، تابعة لروح المتكلّم أو لروح المخاطب، أو لكليهما و كلّ ذلك يرجع إلى المقتضى الحال. فليس لنا أن نقول إنّ هذه الأداة لا تعني إلّا كذا أو كذا، فالسّياق وحده، و هو الّذي يضفي على الأداة شعاعاً تتلوّن بلونه، و تتزيّا بزيّه. و الأديب البليغ هو الّذي قرأ ما قبل الاستفهام و ما بعده و نظر في نفسه، أو عرف ما في نفس الآخرين، فحكم الحكم الحقّ العادل.

---

١. الانشراح، ١.
٢. البقرة، ٢٥٥.
٣. الانبياء، ٣٦.
٤. يس، ٦٠.
٥. الزخرف، ٥١.
٦. البقرة، ٦.
٧. الصّف، ١٠.
٨. التّوبة، ١٣.
٩. الأعراف، ٥٣.

الأسئلة و التّمارين

أ)

١. وَعَدك صديق أن يزورك في الغد، فشككت في أنّه يزورك قبل الظّهر أو بعده، فضع سؤالاً تطلب به تعيين الوقت.

٢. علمت أنّ واحدا من عمّيك حامدٍ و محمودٍ قد اشترى بيتاً، فضع سؤالاً تطلب به تعيين المشتري.

٣. إذا كنت شاكّاً في أنّ القصب يزرع في الرّبيع أو في الصّيف، فكيف تصوغ السّؤال الّذي تطلب به من المخاطب تعيين الزّمان؟

٤. سل صديقك عن ميله إلى الأسفار.

ب) سل عن: الحال، المفعول به، الظّرف، المبتدأ، الخبر، الجار و المجرور، في الجمل التّالية: نظم القصيدة متأثّراً ـ اشترى كتاباً ـ كتب الرسالة ليلاً ـ عليّ الفائز ـ مصر خِصبةٌ ـ الكتاب في البيت ـ الصفّ يوم و يوم لا ـ

ج) سل عمّا يأتي:

١. عدد المدارس العالية في إيران.

٢. أطول شارع في المدينة.

٣. حال ايران أيّام البرامكة.

٤. حقيقة الصّدق.

٥. معنى الضّيغم.

٦. الكتب السماويّة.

د) لِمَ كان الاستفهام في الأمثلة الآتية مفيداً : النفي، و الإنكار، و التّعظيم، على التّرتيب:

هــل الدّهـر إلّا ســاعةٌ ثمّ تَـنقضي ... بما كان فيها من بلاء و من خَفَض؟

قوله تعالى: «أ غير اللّه تدعون؟»

مــن مــنكم المــلك المُطاع كأنّه ... تحت السّــوابــغ تُــبّع في حــير؟

هـ) لم كان الاستفهام في الأمثلة الآتية مفيداً: التّقرير و التعجب، و التّمني على التّرتيب:

قال تعالى: «ألم نُربِّك فينا وليدا؟»

قالت إحدى نساء العرب تشكو ابنها:

أنشأ يـــمزّق أثـوابي يـؤدّبـني ... أ بَعْد شـيبي يـبغي عـندي الأدبـا؟

و قال أبو العتاهية في مدح الأمين:

تَذكّرْ أمين اللّه حقّي و حرمتي و ما كنتَ توليني لعلّك تذكر
فَمَنْ لي بالعين الّتي كنتَ مرّةً إليّ بها في سالف الدّهر تنظرُ؟

و) ماذا يُراد بالاستفهام فيما يأتي:

١. قال البحتري:

هل الدّهرُ إلّا غمرة و انجلاؤها وَشيكا و إلّا ضيقه و انفراجُها؟

و له أيضا:

ألست أعمّهم جوداً و أزكا هُمُ عُوداً و أمضاهُم حُساما؟

٢. قال أبو الطيّب في المديح:

أتلتمس الأعداء بعد الذي رأت قيام دَليل أو وُضوح بيانِ؟

و أيضا له في الرّثاء:

من للمَحافل و الجَحافل و السُّرى فَقدتْ بفقدِك نيّراً لا يَطلَعُ؟

و له أيضا:

و مَنْ لم يعشق الدّنيا قديماً؟ ولكن لا سبيل إلى الوصال

و له أيضاً:

و لَستُ أُبالي بعد إدراكي العُلا أكان تُراثاً ما تَناولتُ أم كسباً؟

و له أيضاً:

و ما لَك تُعنَى بالأَسِنّة والقنا؟ و جدّك طَعّانٌ بغير سِنان

و له أيضاً:

يفنى الكلامُ و لا يُحيط بفضلكم أ يُحيط ما يَفنَى بما لا يَنفدُ

٣. قال أبو تمام:

ما أنتِ يا دنيا أ رُؤيا نائم أم ليل عُرسٍ أم بساطُ سُلاف؟

٤. قال ابوالعلاء المعرّي:

أتظنّ أنّك للمعالي كاسب و خبيّ أمرك شِرّة و شَنار.

ز)

١. استعمل كلّ أداة من أدوات الاستفهام في جملتين مفيدتين و أجب عن كلّ سؤال تأتي

به، و اجعل غرضك من الاستفهام معناه الحقيقيّ.

٢. استعمل همزة الاستفهام في ستّ جمل بحيث تكون في الثلاث الأولى منها لطلب التّصور، و في الثّلاث الأخيرة لطلب التّصديق.

٣. هات ثلاث جمل أداة الاستفهام في كلّ منها «أنّى» و استوف المعاني الّتي عرفتها لهذه الأدات.

د) التّمنّي

و هو طلب الشيء المحبوب الّذي لا يتوقّع حصوله: إمّا لكونه مستحيلا، أو لكونه بعيد المنال.

فقول الشّاعر:

ألا ليت الشّباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

و قول الآخر:

ليت الكواكب تدنو لي فأنظِمَها ... عقودَ مدح، فما أرضى لكم كلمي

الشّاعران يطلبان مستحيلا، إذ مهما تمنّى المرء عود الشّباب فإنّ أمنيّاته تبقى صرخةً في وادٍ و حلما لا يتحقّق أبداً، و كذلك تمنّي الإنسان دنوّ كواكب السّماء منه ليقطفها و يصوغَ منها عقد مدح يزين بها عنق من يحبّ تظلّ أضغاث أحلام، و حُلُمَ شاعر و حديثَ محبّ.

أمّا قول أبي فراس مخاطبا سيف الدولة:

فليتك تحلو، و الحياة مريرة ... وليتك ترضى، و الأنام غضاب

و ليت الّذي بيني و بينك عامر ... و بيني و بين العالمين خراب

إذا صحّ منك الودّ فالكلّ هيّن ... و كلّ الّذي فوق التّراب تراب

فشيء آخر، لأنّ تمنّيه أن تحلو أخلاق سيف الدولة، و يرضى قلبه و تمتدّ المودّة بينهما دروباً، أمور قد تتحقّق، و هي ليست بالمستحيلة ولكن الجفاء المستحكم، و الهجر المرير، و الانقطاع المستمرّ الذي يخيم على قلب سيف الدولة، و يتبدّى في سلوكه نحو الشّاعر الأسير جعل أبا فراس يتخيّل أنّ تلك مطالب، إن كانت ممكنة التّحقق في حياة بني الإنسان، إلّا أنّها غير ممكنة في حياة سيف الدّولة، و لا سيّما في تلك السّاعة.

و يبدو أنّ «ليت» وحدها الأداة الّتي يعبّر بها عن طلب المستحيل، أو بعيد المنال، و هي أداة التّمنّي الرئيسيّة.

و قد يشركها في طلب التّمنّي أدوات أخرى، أقلّ منها شأناً، و قد كانت في أصلها

موضوعة لأغراض أخرى، ثمّ أصبحت تعاون «ليت» في أغراضها. تلك الأدوات هي: «هل» و «لو» و «لعلّ» و «هلّا» و «ألا».

أمّا «هل» فأداة استفهام ـ كما سبق ـ ولكنّها تنتقل من معنى الاستفهام إلى ما يشبه التّمني في بعض الأساليب، فلو قلت لإنسان لا تحلم أن يزورك: «هل لك أن تشرّفني بزيارتك!؟» فقد أشربت سؤالك بتمنّ أو رجاء. و منه قوله تعالى: «فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا!»[1].

و «لو» حرف شرط غير جازم تدلّ على امتناع لامتناع، لكنّها قد تكون أداة للتّمني، كقوله تعالى: «فلو أنّ لنا كرّة فنكون من المؤمنين»[2]. حكاية عن الذين كفروا في الحياة الدّنيا، و وجدوا عاقبة كفرهم يوم القيامة، و حينئذ راحوا يتمنّون أن لو عادوا كرّةً ثانية إلى الدّنيا، إذن لكانوا في مقدمة مواكب المؤمنين، ولكن هيهات ما تمنّوا.

و «لعلّ» أداة ترجٍّ، و التّرجّي، ممكن الوقوع و الحدوث غالبا، و أدواته شتى، ولكن هذه الأداة (لعلّ) تشرب معنى عدم توقع الحصول، و بُعد تحقيق المرجوّ، فتنقلب من الرّجاء إلى التّمني مع الشّاعر:

أسِربَ القطاهل مَن يعير جناحه لعلّي إلى من قَدْ هوِيت أطيرُ

مستحيل جدًا أن يعير الطّير جناحه، و من غير المعقول و الممكن أن يطير الإنسان طيراناً حقيقيّاً إلى أحبّائه الّذين يهوى.

و «هلّا» و «ألا» و هما حرفا تنديم إذا سبقتا الفعل المضارع، نحو: هلّا تقوم! و ألا تجيء معي!

و يعتقد البلاغيّون أنّ هاتين الأداتين تضيفان إلى معنى التّنديم و التحضيض معنى التّمنّي.

الأسئلة و التّمارين

١. هات مثالين لعلّ أداة تفيد التّمني و استعمل في كلّ منها «ليت» و بيّن السبب البلاغيّ في اختيار هذه الأداة.

---

١. الأعراف، ٥٣. ٢. الشعراء، ١٠٢.

٢. ما الفرق بين التّمني و بين التّرجي في الطلب؟

٣. بيّن ما في الأمثلة الآتية من تمنّ أو ترجّ، و بيّن السّرّ في استعمال ما جاء من الأدوات على غير وضعه الأصليّ:

ـ قال مروان بن أبي حفصة في رثاء معن بن زائدة:

فليت الشّامتين به فدوه   وليت العُمرَ مدّ له فطالا

ـ و قال أبو الطيب في رثاء أخت سيف الدّولة:

فليت طالعةَ الشّمسين غائبة   وليت غائبة الشّمسين لم تغب

و قال آخر:

علّ اللّيالي الّتي أضنتْ بفرقتنا   جسمي ستجمَعُني يوما و تجمعه

ـ قال تعالى: «يا هامان ابن لي صرحا لعلّي أبلغ الأسباب...»

و قال تعالى أيضاً: «يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون».

قال الشّاعر:

أيا منزلَيْ سَلْمى سلام عليكما   هل الأزمن اللّاتي مضَينَ رواجع

و قال آخر:

ليت المدائح تَستوفِي مناقبه   فما كُليبٌ و أهل الأعصر الأول؟

قال جرير:

ولّى الشّبابُ حميدةً أيّامُه   لو كان ذلك يُشترى أو يَرجِعُ

قال ابن الرّومي في شهر رمضان:

فليت اللّيل فيه كان شهراً   و مرّ نهارُه مَرَّ السّحاب

ـ لو يأتينا فيحدّثنا ـ لعلّي أحجّ فأزورك ـ يا ليتني اتخذت مع الرّسول سبيلا ـ هل إلى مردّ من سبيل ـ لو تتلو الآيات فتشقّ سمعي. قال الشّاعر:

كلّ من في الكون يشكو دهره   ليت شعري هذه الدنيا لِمَنْ؟

قال تعالى: «فهل إلى خروج من سبيل»

هـ) النّداء

و هو طلب المتكلّم إقبال المخاطب بحرف من أحرف النّداء، و إن شئت فقل: هو طلب إقبال المدعوّ بحرف نائب مناب «أدعو» سواء كان ذلك الحرف ملفوظا، نحو: «يا داود إنّا جعلناك

خليفة في الأرض»[١]، أو مقدرا، نحو: «يوسف أعرض عن هذا»[٢].

حروف النّداء. و هي على المشهور خمسة: يا، و أيا، و هيا، و أي، و أ، و تدلّ على ما يأتي من المعاني:

أ) الهمزة و أي: ينادى بها القريب.

ب) أيا وهيا: ينادى بها البعيد.

ج) يا، لكلّ مناد: قريباً أو بعيداً أو متوسطاً.

و هذه الأدوات قد تستخدم في حقيقة ما وضعت له من نداء قريب أو بعيد، أو متوسط، و حينئذ تكون جارية وفق مقتضى الظّاهر، لكنّها قد تستعمل على عكس ما وضعت له، فينادى البعيد بأداة نداء القريب، و ينادى القريب بأداة نداء البعيد لاعتبارات يلحظها الأديب البليغ.

قد يريد في خروجه بأدوات عن معناها الأصلي زيادة في المدح، أو مبالغة في الذّم، أو إظهارَ عاطفة جامحة.

ينادى أحبابه الّذين سكنوا في البلد البعيد بأداة «الهمزة» الّتي هي للقريب، كأنّه يتخيّلهم قريبين منه، يسمعون نداءه، و يحسّون بنبضات قلبه، فيقول:

أسكّانَ نعمان الأراكِ تيقّنوا بأنّكم في رَبع قلبيَ سُكّانُ

و قد ينادَى القريب الدّاني الّذي يراه و يسمعه آناء اللّيل و أطراف النّهار بأداة لاينادى بها إلّا البعيد، مثل «أيا» و «يا» إشارة إلى أنّ هذا الذي يناديه عالي المرتبة، عظيم الشأن بينه و بين مناديه عوالم شاسعة، من المستحيل أن يقترب منها أو يكون فيها، و لذلك فهو يخاطبه على هذه الصورة:

يا مَنْ يُرَجّى للشّدائد كلّها يا من إليه المُشتكَى و المفزَع

المُرجّى للشّدائد، و الّذي إليه المشتكى و المفزع هو اللّه. و هو قريب، بل هو مع الإنسان أنّى كان، ولكن أدب الخطاب دعا الشّاعر أن يلتزم حدود الضّراعة و الأدب و الخلق الرّفيع، فناداه بتلك الأداة.

و قد ينادى القريب بأداة البعيد احتقاراً و امتهاناً، أو لكونه شارداً، كأنّه ـ رغم قربه الجغرافي ـ بعيد عن القلب، و العين، فيقال له:

---

١. دراسة و نقد...؛ ص ١٢٨ ناقلا عن المواهب؛ ص ٣٨.

٢. يوسف، ٢٩.

أيــا هــذا أتــطمع في المـعالي — و مــا يحـظى بهـا إلّا الرّجـال؟

و يقال له إذا كان حاضرَ الذّهن غائب العقل:

أيا من عـاش في الدّنـيا طـويلا — و أفــنى العـمر في قـيل و قـالِ

و أتــعب نـفسه فـيما يـسفني — و جمّــع مــن حـرام أو حـلال

هَبِ الدّنــيا تــقاد إليك عــفوا — أليس مـــصير ذلك للــزّوال؟

لقد ظهر ممّا سبق أنّ صيغ النّداء موضوعة لطلب إقبال البعيد أو القريب أو المتوسط، بمعنى أنّه لوحظ في معناها شيئان: طلب الإقبال، و الفاصلة المكانيّة. و قد تخرج عن معناها الأصلي لأغراض و لطائف بلاغيّة تجعل مسائل النّداء من صميم المباحث البلاغيّة:

فالموضوعة لنداء البعيد ـ قد تستعمل في القريب و بـالعكس مجـازا عـلى سـبيل الاستعارة التّبعيّة لنكت ـ إضافة على ما سبق ـ:

منها: الدّلالة على بلادة المخاطب و غفلته و انّه لا يتنبّه إلا باجتهاد و امتداد صوت، نحو: يا أيّها الغبيّ، أين تذهب!؟. و كقول أبي العتاهية يعني نفسه:

أيــا مــن يـؤمّل طـولَ الحَـياة — و طـولُ الحـــياة عــليه خـطر

إذا مــا كـبرتَ و بـان الشّـباب — فلا خيرَ في العـيش بـعد الكـبر

و منها إظهار الحرص على إقبال المنادى، لأنّ النّفس إذا اشتاقت إلى الشيء تحسب الزّمان و المكان قبل الوصول إليه طويلاً و بعيداً، نحو: «يا موسى أقبل»[1].

و منها: التّحسّر، نحو: «يا ليتني كنت ترابا»[2]. قال الشّاعر:

فياقبر معنٍ كيف واريتَ جـوده — و قد كان منه البرُّ و البحر مُترعا

و منها: التّعجّب، كقول الشّاعر:

يــا لكِ مــن قــبّرةٍ بمَــعْمَرٍ — خلالكِ الجوُّ فبيضي و اصـفري!

و مثل: يا للماء!

و منها: الاغراء، نحو قولك لمن أقبل يتظلّم: يا مظلومُ، فأنت تريد إغراءه على بثّ الشّكوى و إظهار التّظلّم و لا تطلب إقباله لأنّه حاصل.

و منها: الاستغاثة، نحو: يا للّٰه للمؤمنين!

و منها: التّضجّر، و التّحيّر، و التّدلّه، كما نرى في نداء الأطلال و المنازل و المطايا، قال الشّاعر:

---

١. القصص، ٣١. ٢. النبأ، ٤٠.

أيا منازل سلمى أين سلماكِ   من أجل هذا بكيناها بكيناكِ

و منها: الاختصاص، و هو في الاصطلاح تخصيص اسم ظاهر أتى بعد ضمير المتكلّم، بياناله بحكم قد علّق على ذلك الضّمير، و هذا الاسم يمكن أن يكون «أيّها» مع صفته، نحو: أنا أكرم الضّيف أيّها الرّجل! أو معرّفا بأل نحو: نحن العرب أقرى النّاس للضّيف. أو معرّفا بالإضافة، نحو: ـ نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، أو معرّفا بالعلميّة، نحو: بنا تميماً يكشف الضّباب.

و المراد هاهنا، تخصيص ذلك الاسم إذا جاء على صورة المنادى بالحكم، مثل: نحن ذخائر الوطن أيّها الطّلاب!

فالأصل فيه، تخصيص الطّلاب بطلب الإقبال على المتكلّم، ولكنّه جرّد من ذلك المعنى و نقل إلى تخصيصه بما أسند إلى ضمير «نحن» إذ ليس المراد بالطّلاب شيئا غير ما يدلّ عليه ضمير المتكلّم.

و فائدة الاختصاص إمّا التّفاخر، نحو: أنا أكرم الضّيف أيّها الرجل.

أو التّصاغر، نحو: أنا المسكين أيّها الرّجل.

أو مجرّد بيان المقصود بذلك الضمير، نحو: أنا أدخل أيّها الرّجل.

و منها: النّدبة، نحو: يازيداه، كأنّك تدعوه و تقول له: تعال، أنا مشتاق إليك.

يخيّل إلينا أنّ هذه المعاني المستفادة من أدوات النّداء ـ كما بيّنها البلاغيّون ـ راجعة إلى الأدوات ذاتها، إضافة إلى المعنى العامّ الّذي تضمّنه الكلام، لا إلى الأدوات وحدها ـ كما قالوا ـ إذن فليس لنا أن نقول بأنّ هذه الأدوات تختلف في معانيها، إنّما نقول: إنّ ظلال معنى الجملة و إيحاءاته تضفي على الأداة شفافيّة مستمدّة من هذا المعنى، فتتلون الأداة، فتوحي بأنّها للتّحبّب، أو للإغراء، أو للتحقير أو لسوى ذلك من المعاني.

الأسئلة و التّمارين

١. هات مثالين للهمزة المستعملة في نداء البعيد، و بيّن السّبب في خروجها عن أصل وضعها في كلّ من المثالين.

٢. هات مثالين للمنادى القريب المنزّل منزل البعيد لعلوّ مكانته.

٣.هات مثالين للمنادى القريب المنزّل منزل البعيد لانحطاط منزلته.

٤. هات مثالين للمنادى القريب المنزّل منزل البعيد لغفلته و شرود ذهنه.

٥. مثل للنداء المستعمل في التّحسر و الزّجر و الإغراء.

٦. ناد من يأتي، مستعملاً أدوات النّداء استعمالاً جارياً على خلاف الأصل من حيث قرب المنادى و بعده، و بيّن العلل البلاغيّة في هذا الاستعمال:

أ) غائباً تحنّ إلى لقائه. ب) منصرفا عن عمله تدعوه إلى الجدّ.

ج) سفيها تنهاه عن التعرّض للكرام. د) عظيما تخاطبه و ترجوه أن يساعدك.

٧. ما ذا يراد بالنّداء في الأمثلة الآتية:

أ) أعـدّاءُ مـا للعيش بعدك لذّة ... و لا لخـليل بهـجة بخـليل

ب) يا شجاعُ أقدم (تقوله لمن يتردّد في منازلة العدوّ)

ج) دعـوتك يـا بُنيّ فـلم تجبني ... فـرُدت دعـوتي يأسـاً عـليّا

د) بـالله قـل لي يـا فـلا ... نُ وَلِي أقـولُ ولي أُسـائل

أتـريد في السّـبعين مـا ... قـد كُـنتَ في العـشرين فـاعل

٨. بيّن أدوات النّداء في الأمثلة الآتية، و ما جرى منها على أصل وضعه في نداء القريب أو البعيد، و ما خرج منها عن ذلك مع بيان الأسباب البلاغيّة في الخروج:

قال أبو الطّيب:

يا صائد الجَحفَل المرهُوب جـانبه ... إن اللُّيوث تـصيد النّـاس أحـدانـا

أيا رَبِّ قد أحسنتَ عَودا و بدأةً ... إليّ فلم ينهض بـإحسانك الشّكرُ

قال تعالى: «إني لأظُنُّكَ يا موسى مسحُوراً»

ـ أمحمّدُ، لا ترفع صوتك حتّى لا يسمَع حديثَنا أحد.

ـ أيا هذا، تنبّه فالمكاره مُحدِقة بك.

ـ يا هذا لا تتكلّم حتّى يؤذن لك.

قال أبو الطيّب في مدح كافور:

يـا رجـاء العيون في كلّ أرض ... لم يكـن غـيرُ أن أراك رجـائي

ـ أي بُنيّ، أعد عَلَيّ ما سمعتَ منّي.

الإنشاء غير الطّلبي

و هو ما لا يستدعي مطلوبا في الأصل.

و قد مال البلاغيّون إلى إخراجه من صميم المباحث البلاغيّة لقلّة الفوائد البلاغيّة في صيغه و أساليبه، و لأنّ أكثرها أخبار نقلت إلى الإنشاء، و لذلك نقتصر فيه على أهمّ مواضعه استطراداً للبحث عن الإنشاء، فنقول: الإنشاء غير الطّلبي يشمل:

١. أساليب المدح و الذّم. تقول: نعم الأنيس الكتاب، و بئس المصاحب جليس السّوء و يدخل في ضمن أساليب المدح و الذّم: الأفعال المحوّلة إلى معنى المدح و الذّمّ، كقولك: طاب سعيد نفساً، و خبث زيد أصلاً.

٢. أساليب العقود. و يستعمل الفعل الماضي معها كثيراً، فتقول: بعتك هذا الكتاب ـ و اشتريت منك هذه الحقيبة. و وهبت لك هذا القلم. و قبلت النّكاح و التّزويج، و هكذا.

٣. أساليب القسم. و يكون القسم بأحرفه المشهورة، و هي الواو و الباء و التّاء، تقول: و اللّه إنّ هذا لَحَقٌّ، و باللّه ما فعلتُ ذلك، و «تاللّه لأكيدنّ أصنامكم»، كما يكون القسم بغير تلك الأحرف، فتقول: لَعَمْرُك إنّ البعث حقّ، و حقّك ما جئتُ بريبة، و هكذا...

٤. صيغ التّعجب. و التّعجّب في حقيقته أن ترى الشيء يعجبك، تظنّ أنّك لم تر مثله، و يكون قياساً بصيغتين: «ما أفعله» و «أفعل به» فتقول: ما أجمل السماء! و أكرم بزيد. و يكون سماعاً بصيغ شتّى، نحو: للّه درّه عالماً، «و كيف تكفرون باللّه و كنتم أمواتاً فأحياكم؟»

٥. أساليب الرّجاء. و أفعال الرّجاء هي: عسى، و حرى، و اخلولق.

تقول: عسى اللّه أنْ يأتي بالسّعادة، و حرى الغافل أن يصحو، و اخلو لقت السّماء أن تمطر.

كذلك يكون الرّجاء بالحرف «لعلّ» كقول ذي الرّمة:

لعلّ انحدارَ الدّمع يُعقِب راحةً من الوجد أو يشفي شجيّ البلابل

و قد تكون «لعلّ» بمعنى «كي» نحو: «لعلّكم تتقون» فحينئذ لا تعد من صيغ الأسلوب الإنشاء غير الطلبي.

و يخيّل إلينا أن ما ذكره العلماء من ألوان الإنشاء غير الطلبيّ جدير أن يدرج في سلك الأخبار اللهمّ إلّا أسلوب الرّجاء، فهو أقرب إلى الإنشاء الطلبي و به ألصق و ببحث التّمني يلحق[1].

تبادل الخبر و الإنشاء

فقد سبق القول بأنّ الكلام قد يخرج عن مقتضى الظّاهر و بيّنا أيضا بأنّ أساليب الإنشاء، و هي: (الأمر، و النّهي، و الاستفهام و التّمني و النّداء) كلّها تخرج عن أصل وضعها و تستعمل

---

١. راجع: البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد؛ ج ١، ص ٧٨ـ٨٠.

في معان آخر غير المعاني الّتي وضعت لها، و هذا الأصل (أي الخروج عن مقتضى الظّاهر) له صور متعدّدة تتحقّق في موضعها المناسب لها، فالأدب و الذّوق قد يقودان المتكلم إلى إيقاع الخبر موقع الإنشاء و بالعكس لنكت بلاغيّة لا تؤدّيها الأحكام الأصليّة:

أ) وقوع الخبر موقع الإنشاء. قديقع الخبر موقع الإنشاء لأغراض، منها:

١. التّفاؤل و إدخال السّرور في قلب المخاطب، نحو: هداك اللّه لصالح الأعمال، أي اللهمّ اهده، فترك هذا الكلام الإنشائيّ و عبّر عنه بالفعل الماضيّ الدّال عل تحقّق الحصول للتّفاؤل.

٢. إظهار الحرص في وقوعه، نحو: رَزقني اللّه لقاءك، أي اللهم ارْزقني لقاءه، فعبّر عنه بلفظ الماضي، لأنّ الطّالب إذا عظمت رغبته في شيء كثر تصوّره إيّاه، فربّما يخيل إليه حاصلا فيورده بلفظ الماضي، فالتّعبير بلفظ الماضي علامة الحرص و الرّغبة في وقوع مدلول الإنشاء.

٣. الاحتراز عن صورة الأمر، كقولك لمن تعظّمه و تبجّله، و لا تحبّ أن تخاطبه بما هو في الظّاهر أمر: يستمع مولاي لحظة إلى كلامي، أي استمع لحظة...

٤. حمل المخاطب على تحصيل المطلوب، كقولك لمن لا يحبّ أن يخالفك و يكذّبك: تأتيني غداً أي ايتني غدا، فترك لفظ الإنشاء و عبّر عنه بالخبر حملاً للمخاطب على الإتيان بألطف وجه إذ لو لم يأت لصار المتكلّم كاذباً في الظّاهر.

٥. التّنبيه على كون المطلوب قريب الوقوع لقوّة الأسباب، كقولك للأساتذة بعد إعطاء الفرصة و تمهيد أسباب البحث و التّحقيق: تسترجمون و تألّفون و تدرسون.

٦. القصد إلى المبالغة في الطّلب حتّى كأنّ المخاطب سارع في الامتثال، نحو قوله سبحانه: «و إذ أخذنا ميثاقكم، لا تسفكون دماءكم»[1]. لم يقل لا تسفكوا، قصداً للمبالغة في النّهي، حتّى كأنّهم نُهوا فامتثلوا، ثمّ أخبر عنهم بالامتثال.

٧. الاحتراز عمّا يكرهه المخاطب من عدم التّقوى، نحو: «وفّقك اللّه» بخلاف اللهمّ وفّقه.

فالخبر في أمثال هذه الصّور مجاز أو كناية، و ذلك لأنّ حصول الفعل في المستقبل لازم لطلب الفعل في الجملة، فذكر اللّازم و أريد الملزوم على ما هو المعروف في الكناية.

---

١. البقرة، ٨٤.

ب) وقوع الإنشاء موقع الخبر. و قد يعكس، فيقع الإنشاء موقع الخبر للـطائف، منها:

١. إظهار العناية بالشيء و الاهتمام بشأنه، كقوله تعالى: «قل أمـر ربّي بـالقسط و أقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد»[1]. لم يقل: و إقامة وجوهكم، إشعاراً بالعناية بأمر الصّلاة لعظيم خطرها و جليل قدرها في الدّين.

٢. التّحاشي، و الاحتراز عن مساواة اللّاحق بالسّابق، كقوله تعالى: «قال إنّي أشهد اللّه، و اشهدوا أنّي بريءٌ ممّا تشركون»[2]. لم يقل و أشهدكم، تحاشيا و فرارا من مسـاواة شهادتهم بشهادة اللّه.

٣. إظهار معنى الرّضا بوقوع الدّاخل تحت لفظ الطّلب، إظهاراً إلى درجة كأنّ المرضي مطلوب، قال كثيّر:

«أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة» فذكر لفظ الأمر بالإساءة ثمّ عطف عليه بـلفظ «أحسني» أو الأمر بضدّ الإساءة تنبيها بذلك[3].

فتغير الأسلوب من خبر إلى إنشاء يدفع السّآمة و يثير الانتباه و يحرّك الشّعور، و تحوّل الأسلوب من إنشاء إلى خبر يبعد القلق و يعيد الطمأنينة و يلطف من حدّة الشّعور، فالانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر يعطي النصّ حيويّة و حياة، قلّ أن نجد لها مثيلا إذا خلا النّصّ من هذا التّحوّل و هذا الانتقال.

---

١. الأعراف، ٢٨. ٢. هود، ٥٤.

٣. راجع: دراسة و نقد...؛ ص ١٤٠ـ١٤٢.

٢. المسند إليه

المسند إليه هو الرّكن الأصيل في الكلام، و يكون أكثر أهميّة و أهمّ قيمة من الرّكن الثّاني، لأنّه يمثّل الرّكن الثّابت في الجملة، في حين يمثّل «المسند» الرّكن المتغيّر فيها.

هذا العمود الثّابت الأصيل الّذي يدور على محوره كثير من الأمور الّتي تدلّ على بلاغة الكلام، لا يكون على صورة واحدة، و إنّما يأتي على صورشتيّ: قد يكون محذوفا، و قد يكون مذكورا. و هذا المذكور قد يكون نكرة، و قد يكون معرفة، و قد يكون متقدّما، و قد يكون متأخرا و هكذا...

ولكلّ من هذه الصّور مكان، لا يقوم غيرها مقامها. و البليغ الحقّ هو الّذي يعرف هذه المقامات، و يضع كلّ شيء في موطنه المناسب، و تلك هي البلاغة في حقيقتها، أو ليست معرفةَ مقتضى الحال؟

بيد قارئنا الكريم نأخذ لنطوي رحلة المقامات و نقف على بعض أسرارها، أوجواهرها، لعلّنا نصل في نهاية المطاف إلى تعرّف سرّ «التعبير الفنّي» الّذي هو عنصر من عناصر «الإعجاز».

و لتسهيل الفهم على القارئ نذكر له مواقع المسند إليه في الجملة على وجه العموم، فإذا ما زاد فيها شيء على ما ذكرنا فهو إمّا «مسند» أو «قيد» من قيودهما، أو قيد أحدهما.

و مواضع المسند إليه سبعة:

١. الفاعل، نحو: «جاء الحقُّ و زهق الباطلُ»

٢. نائب الفاعل، نحو: «خُلِقَ الإنسانُ ضعيفا»

٣. المبتدأ الذي له خبر: «هو اللّهُ الخالقُ البارئُ المصوّر»

٤. مرفوع المبتدأ المشتق: «أ راغبٌ أنت عن آلهتي يا ابراهيم»، ــ ما محمود فضلُك.

٥. ما كان أصله مبتدأ، نحو: «كان اللّه عليماً حكيماً»

٦. المفعول الأوّل للأفعال الّتي تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ و خبر، نحو: رأيتُ اللّهَ أكبرَ كلِّ شيءٍ.

٧. المفعول الثاني للأفعال الّتي تنصب ثلاثة مفاعيل، نحو: أعلمت زيدا عمرا فاضلا.

حذف المسند إليه

و اعلم أنّ البليغ يميل إلى أسلوب الحذف و الإيجاز أكثر ممّا يميل إلى أسلوب الذّكر و الإسهاب، لأنّه يرى الأوّل عنواناً للبلاغة و مقياسا للذّكاء و قدرة فائقةً على التّعبير البديع.

الرّجل البليغ يختار الإيجاز إذا أمكنه التّعبير عن فكرته بألفاظ قليلة، و يفضّله على الإطناب إذا لم يكن فيه زيادة معنى أو توضيح، و يرى في هذا الإيجاز سموّاً ببيانه و سموّا كذلك بمن يخاطبه أو يتحدّث إليه.

و القاعدة الذّهبيّة الّتي يتبنّاها أرباب الذّوق هي تفضيل القليل من الكلام على كثيره، إذا كان كلٌّ منهما يحمل المعنى نفسه، و لهذا قالوا: «إذا تمّ العقل نقص الكلام» و أيضا: «خير الكلام ما قلّ و دلّ».

و يشترط البلاغيّون في المحذوفات جميعا ـ على اختلاف ضروبها ـ أن يكون في الكلام ما يدّل عليها، و إلّا كان الحذف تعمية و إلغازاً لا يصار إليه بحال. فالقرينة شرط في صحّة الحذف إذا اقترن بها غرض من الأغراض.

و يعدّد العلماء عدداً من الأغراض فيها يحذف المسند إليه، منها:

١. الابتعاد عن فضول الكلام. لقد عبّر علماء البلاغة قديما عن هذه القاعدة بكلمة: «الاحتراز عن العبث» و كانوا يقصدون إلى أنّه يجب أن يحذف من الكلام كلّ ما كان نافلا، أو ما دلّت عليه العبارة و إن كان محذوفا.

أ) فلو سألك سائل: كيف صحّتك، فأجبت: «جيّدة» فإنّك تعني دون شكّ: «صحّتي» جيّدة. و لقد حذفت كلمة «صحّتي» لأنّها مفهومة من سياق السؤال، و أدركت أنّ ذكرها عبث لا فائدة منه.

ب) و لو قرأت قول اللّه تعالى: «من عمل صالحا فلنفسه و من أساء فعليها»[١]. عرفت أنّ تقدير الكلام: من عمل صالحا «فعمله» لنفسه، و من أساء «فإساءته» عليها، لأنّ الكلمتين المحذوفتين مفهومتان من سياق الجملة.

من هذه الأمثلة و أشباهها استنتج العلماء أن المسند إليه يحذف إذا صحّ الاستغناء عنه، و كان ذكره عبثا في الجملة، كما وقع في جواب استفهام أو شرط، و ما إلى ذلك.

٢. ضيق المقام عن إطالة الكلام. و يكون ذلك في حالة التّحدّث إلى مريض لا يستطيع التّفصيل و الإطالة، أو في حالة الخوف من فوات فرصة، أو التّنبيه على خطر داهم.

تصور أنّك كنت في خطّ النّار تقبع مع رفاق السّلاح في الخنادق، و أمامكم الصّواريخ الصيادة لطائرات العدوّ، و كان أحد الرّفاق غافلا يتلهى، و لمحتَ في الوقت ذاته طيّارة عدوّ من بعيد قادمة، في هذه الحال ليس أمامك مجال في تنبيهه لإطالة الكلام، فتقول له: طيّارة، و

---

١. فصّلت، ٤٦.

هو يفهم بسرعة: «تلك» طيّارة و تكون بليغاً في تنبيهك حين حذفت المسند إليه.

و على مثل هذا الموطن يقاس الكلام في رؤية غريق، أو حريق أو ما شابه...

٣. تيسير الإنكار عند الحاجة. هذا باب شديد اللزوم في أيّام المحن و الخطوب و الدّسائس و الجواسيس و المخبرين، و لا سيّما إذا كانوا و راء كلّ باب و خلف كلّ متحدّث، و في كلّ مكان، فقد تكون مع صديق تأمنه و تثق به و تريد أن تحدّثه عن إنسان ما، و تخشى في الوقت ذاته الأذى و الضّرر، فتقول له: نَهَبَ النّاسَ، و سَلَبَ الأغراضَ، و فعل كذا و كذا، دون أن تذكر اسمه، و صديقك يفهم أنّ الّذي تعنيه: فلان.

حذف المسند إليه في هذا الموطن يتيح لصاحب القول الإنكار إذا دعت الحاجة، و إذا جوبه بقوله هذا فإنّ خصمه لا يستطيع إثبات المحذوف، لأنّ المتّهم قد ينكر أنّه كان يقصد فلاناً من النّاس.

٤. اتباع الاستعمال الوارد عن العرب. تقول العرب: رَمْيَةٌ من غير رامٍ، و هم يقصدون: «هذه» رمية من غير رام.

و تقول: نعم الرّفيق سعيدٌ، و هم يقصدون «هو» سعيد.

و تقول أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيمُ، قاصداً إنشاء الذّمّ، و تقدير الكلام على هذا الوجه «بضمّ الرجيم»: «هو» الرّجيم.

٥. المحافظة على الوزن الموسيقي. تقول: مَنْ طَابتْ سَرِيرَتُه حُمِدَتْ سيرتُه. و أصل الكلام: من طابت سريرته حَمِدَ النّاسُ سيرتَه.

و الفرق بين العبارتين: أنّ الأولى تمّ فيها السّجعُ و النّغم الموسيقي بين (سريرته و سيرته)، و أنّ الثانية نقص فيها النّغم الموسيقي كثيراً لضمّ التّاء في (سريرته) و فتحها في (سيرته).

و حفاظاً على اكتمال النّغم فضّل المتحدّث بهذه العبارة حذف المسند إليه الأصلي الّذي قُدّر بـ«النّاس»، و استعاض عنه ببديل هو نائب الفاعل المتمثّل في «سيرته»، و مثله قول الشّاعر:

و ما المال و الأهلون إلّا ودائع و لابدّ يوماً أن تردّ الودائع

٦. تعيّن المحذوف و ظهوره. لو سمعتَ قائلاً يقول: «خالق الخَلق»، إذن لفهمت رأساً بدون أدنى شكّ أنّه هو اللّه وحده، و أنّ أصل القول: «اللّه» خالق الخلق، و لمّا كان «اللّه» وحده هو المتفرد بالخلق أمكن الاستغناء عن ذكره لتعيّنه و ظهوره، و مثله: وَضَعَ «الكتابَ» في النّحو.

٧. عدم الفائدة من ذكره. و عدم الفائدة تتأتى من الجهل به، أو عدم تعلّق أيّ غرض من الأغراض البلاغيّة في ذكره. فلو قيل لك: «سُرِق بيتي»، فهمتَ أنّ القائل يجهل الفاعل، و أنّه لم يزدك معرفة لو قال لك: سرق «سارق» بيتي، لأنّك لا تعرف ذات السّارق، و لافائدة زائدة في الكلام لو ذكر المسند إليه.

و بعد، فهناك مقاصد أخرى يحذف فيها المسند إليه كالخوف منه، أو الخوف عليه، أو تعظيمه، فلا يذكر اسمه على كلّ لسان، أو تحقيره فيصان اللّسان عن التّلفظ بذكره أو باسمه، أو الرّغبة في إبهامه و غير ذلك.

القاعدة الأساسيّة في هذا الموضوع هو تقصّي السّبب الفني لعدم ذكره، و إظهار القيمة البديعيّة لهذا الحذف و فضله على الذكر[1].

التمارين

بيّن دواعي الحذف فيما يأتي:

قال الشّاعر:

قـوم إذا أكَـلوا أخـفوا كـلامَهُم	و استَوثَقُوا مِن رِتاجِ البـاب و الدّار

قال آخر:

أضاءت لهم أحسـابُهم و وجـوهُهم	دُجَى اللّيل حتّى نظّم الجـزعَ ثـاقِبه

نجـوم سماء كـلّما انـقضّ كـوكبٌ	بـدا كـوكبٌ تأوي إليـه كـواكـبه

و قال آخر:

سأشكُـرُ عـمراً إنْ تـراخَتْ منيّتي	أيـاديَ لم تُمـنَنْ و إن هـي جـلّتِ

قال تعالى: «فصبر جميل»[2]. و أيضا: «طاعة معروفة»[3].

قال النبيّ (ص): أنا النبيّ لا كذب ـ أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة و لا فخر ـ

ـ الحمدللّه الحمدُ ـ لا تخاطب السّفيه اللئيمُ ـ و أحسن إلى الفقير المسكينُ ـ خلاق لما يشاء

ـ أنا ابن عبدالمطلب.

قالت الشّعراء:

حـيّو العُـروبةَ في عُـليا مـراتـبها	و خـيرِ فـرسانها شيباً و شُبّانا

---

١. راجع: البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد؛ ج ١، ص ١٢٣ـ١٣١.

٢. يوسف، ٨٣.

٣. النّور، ٥٣.

ـ و إنّي رأيت البخل يُزري بأهله فأكرمتُ نفسي أن يقالَ بخيل
ـ حريص على الدّنيا مضيع لدينه و ليس لما في بيته بمضيع
ـ عليل الجسم ممتنع القيام شديدُ السّكر من غير المُدام
ـ ملوك و إخوان إذا ما مدحتُهم أُحَكَّمُ في أموالهم و أقرّبُ
ـ أما و الّذي أبكى وأضحكَ والّذي أماتَ و أحْيَى و الّذي أمرُه الأمْرُ
ـ لَسِنٌ إذا صعد المنابر أو نضا قلماً شأى الخُطباءَ و الكُتّابا

قال تعالى: «و استوت على الجوديّ»[1]. و قال أيضا: «حتّى توارت بالحجاب»[2].

ذكر المسند إليه

كلّ لفظ في الكلام يدلّ على معنى، خليق بالذّكر، لتأدية المعنى المراد به، و لهذا يذكر المسند إليه وجوباً إذا كان ذكره ضروريّاً و لا مقتضي لحذفه لعدم وجود قرينة تدلّ عليه عند حذفه، و إذا حذف ـ على هذه الحال ـ كان الكلام مُعَمًّى مبهماً لا يُستبان منه المراد.

و قد يترجّح الذّكر مع وجود قرينة تمكّن من الحذف، حين لا يكون منه مانع، و من مرجحات الذّكر:

١. قلّة الثّقة بالقرينة. هذه الثّقة الضّعيفة سببها ضعف القرينة أو ضعف فهم السّامع كقولك: «الإحسان يستعبد الإنسان» فذكر المسند إليه «الإحسان» في هذه العبارة واجب لضعف الدّلالة على الّذي «يستعبد الإنسان» إذ قد يفهم السّامع في حال الحذف أنّ المحذوف هو «المال» أو أنّه «الجاه» أو «المرأة» أو «الاستعمار» أو «الفقر» أو غير ذلك، و كلّ منها صحيح في حدّ ذاته، و القرينة لا تفصح أنّ ماتريده هنا هو «الإحسان» و لذلك وجب ذكره.

٢. التّسجيل و الإقرار. قد يكون هناك متّهم أمام قاضٍ يحاكمه، فيسأله القاضي أسئلة شتى، و يستطيع في النّهاية أن ينتزع منه اعترافاً صريحاً و يسجّل القاضي اعترافه الصّريح، فيذكر قول المتّهم ـ مثلا ـ: «نَعَم زيدٌ هذا أَقْرَضَني ألف دينار».

هذا الذّكر للمسند إليه «زيد» واجب الذّكر في هذا الموطن، لئلّا يبق في كلام المتّهم أيّ شك في اعترافه، و لئلّا يستطيع أن ينكر فيما بعد، فيقول: ما قصدتُ في اعترافي «زيداً»، وإنّما كنت أقصد إنساناً آخر، و بهذا التّسجيل انتفى الشّك، و تأكّد الإقرار.

٣. التّلذّذ بذكره. و يأتي هذا ـ غالبا ـ على ألسنة المحبّين، عند ما يذكرون المحبوب، و

---

١. هود، ٤٣.
٢. ص، ٣٢.

لا فرق بين حبّ للخالق ـ جلّ جلاله ـ أو لرسول الإنسانيّة (ص) أو لمخلوق من البشر، فللنّاس فيما يعشقون مذاهب، و مقتضي ذلك إمّا تكرار اسم المحبوب و ما يتعلّق به أو بسط الكلام و إطالته معه كقوله تعالى: «هي عصاي أتوكّأ عليها و أهشّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى»[١]. فقد كان يكفي لموسى أن يقول: «عصاي»، بل «عصا» من غير أن يذكر المسند إليه اعتمادا على القرينة، ولكن المقام يوجب بسط الكلام.

و مثله قول الموحد: الله ربّي، الله حسبي. قالوا: «من أحبّ شيئا أكثر من ذكره»، قال المتنبي في هذا المعنى:

أسـاميا لم تـزده مـعرفةً و إنّما لذّةً ذكرناها[٢]

تمثّل أحمد شوقي في مسرحيّته الشعريّة «مجنون ليلى» قيس بن الملوح العامري، و هو يتغنّى بليلى بعد أن طرق سمعه اسمها في إحدى غيبوباته، فقال:

ليلى! مُنادٍ دعا ليلى فخفّ له نَشوانُ في جَنَبات الصّدر عِرْبيد
ليلى! نداءٌ بليلى رَنَّ في أُذني سِحرٌ لَعَمري له في النّفس ترديد
هل المنادون أهلوها و إخوتُها أم المنادون عشّاقٌ معاميد؟
إن يَشركونِيَ في ليلى فلا رَجَعتْ جبالُ نجدهم صوتاً و لا البيد
ليلى! لعلّي مجنون يُخيَّلُ لي لا الحيّ نادَوا على ليلى و لا نودوا

لقد ذكر في هذه الأبيات الخمسة وحدها اسم ليلى سبع مرّات، و لا شك أن تلذذه بذكر اسمها هو الدّافع إلى تكراره ليس إلّا.

٤. التّعظيم أو التّحقير. قد يسألك صديق: من عندك اليوم؟ فتجيبه مزهوّاً بزائرك العظيم: سيّد البلاد ضيفي الليلة ـ بحرالعلم و قرين التّقوى و العدل في بيتنا، أو تقول له و وجهك عابس: أحد اللؤماء سوف يزورني الليلة.

و هناك أغراض أخرى ذكرها البلاغيّون، منها: زيادة التّقرير و الإيضاح، و الردّ على المخاطب، و التّعريض بغباوة السّامع، و التّقدير و الإجلال، و التّهويل، و إفادة الثبوت المطلق، و بسط الكلام في الموطن المحبوب و سواها.

الذي يعنينا من هذا الباب كلّه هو أن الذّكر إذا كان أبلغ، و فيه فائدة و رجحان على الحذف، وجب. و اللّبيب هو الّذي يقدّر كلّ شيء قدرَه، فيحذف في المواطن الّتي يحسن فيها

---

١. طه، ١٨.
٢. التّبيان؛ ص ٥٧.

الحذف، و يذكر في المواطن الّتي يحسن فيها الذّكر[1].

التمارين

بيّن أسباب ذكر المسند إليه و حذفه فيا يأتي:

«و أنا لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أرادبهم ربّهم رشدا».

ـ الرئيس كلّمني في أمرك ـ الأمير نشر المعارف و أمّن المخاوف ـ محتال مراوغ ـ منضجة للزّرع مصلحة للهواء ـ زيد صديق.

قال الشّاعر:

فعبّاس يصدّ الخطب عنّا و عباس يجير من استجارا

و قال آخر:

و إنّي من القوم الذين هُمُ هُمُ إذا مات منهم سيّد قام صاحبه

و أيضا:

أنا مصدر الكلم البوادي بين المحاضر و النّوادي

أنا فارس أنا شاعر في كلّ ملحمة و نادي

أيضا:

إن حلّ في روم فيها قيصرٌ أو حلَّ في عُرْبٍ ففيها تُبَّعُ

أيضا:

تسائلنى ما الحبّ؟ قلت: عواطف منوّعة الأجناس موطنها القلب

أيضا:

الله أنجحُ ما طلبتُ به و البرُّ خير حقيبة الرّحل

أيضا:

هم القوم إن قالوا أصابوا و إن دُعُوا أجابوا و إن أعطَوا أطابُوا و أجزَلُوا

تعريف المسند إليه

الأصل في المسند إليه أن يكون معرفة، لأنّه المحكوم عليه، أو لأنّه العنصر الثّابت، و لا بدّ

---

۱. راجع: البلاغة العربيّة...، ج ۱، ص ۱۳۲ـ۱۳۴.

للثابت أن يكون معلوماً معروفاً ليكون المعنى واضحاً، و الحكم عليه بيّناً.

و التّعريف يكون على وجوه شتّى ـ كما في النّحو ـ إذ يكون بالإضمار، و بالعلميّة، و بالموصوليّة، و بالإشارة، و بلام التّعريف و بالإضافة. و لكلّ من هذه الوجوه أغراض ينبغي أن تقف عليها:

تعريف المسند إليه بالإضمار

و الضّمير ـ كما تعرف ـ لفظ يدلّ على متكلّم أو مخاطب أو غائب في أصل وضعه

ففي مقام التّكلّم:

أنا ما عَتَبْتُ على الصِّحاب ... فليس في الدّنيا صِحاب
أنا كالمسافر لاح لي ... أيكٌ و أغرتني قباب
أنا لا أرجّي غير جبّا ... ر السّماء و لا أهاب

و في مقام الخطاب:

و إذا سألتَ عن الذّنو ... ب فإنّ أدمعي الجواب
أنتَ المرجّى لا تُنا ... خ بغير ساحتك الرّكاب
أنت اللُّبانةُ في الجوا ... نح لا النّوار و لا الرّباب

و في مقام الغيبة:

خُلِقَ الشّاعرُ و البؤسُ معاً ... فهما خلّان لم يفترقا
قد سرى في الكون حتّى لم يدع ... في قلوب النّاس قلباً مُغلَقاً
هو حزن هادئٌ في غبطة ... و هو لو ذقتَ نعيم في شقا

و اعلم أنّ ما سبق من مدلولات الضّمائر هي المعاني الأصليّة الّتي إذا استعملت تلك الأدوات فيها، كانت حقيقة، فالضمائر من هذه النّاحية ليست من المباحث البلاغيّة.

ولكن كثيرا ما تخرج تلك الضمائر إلى معانى أخرى، لنكت بلاغيّة و إيحاء فوائد لاتؤدّيها المعاني الأصليّة، و بهذا الاعتبار يلتقي مبحث الضمائر مع المباحث البلاغيّة و يؤول إليها. و يعدّ من مصاديق «الخروج عن مقتضى الظّاهر»، منها:

أ) وضع الضّمير موضع الظّاهر. و قد يخرج الكلام عن مقتضى الظّاهر فيوضع المضمر موضع المظهر، و لم يتقدّم مرجع الضّمير:

١. كضمير الشأن، نحو: «قل هو الله أحد»، أي الشأن: الله أحد.

٢. و ضمير القصّة، نحو: «فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتي في الصدور»، أي القصّة كذلك.

٣. و عود الضمير على متأخّر لفظا و رتبة، و قد أجازه بعض، نحو: «أهان غلامه زيداً».

٤. و مجرور ربّ، نحو: «ربّه رجلا».

٥. و المعمول لأوّل المتنازعين، نحو: أكرمني و أكرمته زيدٌ.

٦. و المستتر في باب «نعم»، نحو: نعم رجلا سيعدٌ.

و يسمّى هذا العدول بـ«الإضمار في مقام الإظهار» أيضا. و من العلل البلاغيّة في ذلك، أن يتمكّن من ذهن السامع ما يعقب الضّمير، لأنّه بالضّمير يتهيّأ له، و يتشوّق إليه، و الحاصل بعد الطّلب أعزّ من المنساق بلا تعب، فإذا عبرت عن الشيء مضمراً كان الكلام مبهما، و لا تتعرّف مَنِ المقصود بالضّمير، إذ لم يتقدّم ما يدلّ عليه عندئذ تتشوّق النّفس إليه، و تترتّب معرفته، فإذا ذكرت بعد ذلك رسخ في النّفس و تمكّن منها كلّ التّمكّن و تأكّد زيادة تأكّد، فلا يتوقّع النسيان له، أو الغفلة عنه.

ب) وضع الظّاهر موضع الضّمير. قد يوضع الظّاهر (سواء أكان علماً، أو صفة، أو اسم إشارة) موضع الضّمير، لأغراض كثيرة، منها:

١. كمال العناية بالأمر الّذي اختصّ بحكم بديع، نحو:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه   و جاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الّذي ترك الأوهام حائرة   وصيّر العالم النّحرير زنديقا

فمقتضى الظاهر أن يقول: (هو الذي ترك...)، لتقدّم مرجع الضّمير من إعياء مذاهب العاقل، و رزق الجاهل، ولكنّه لم يعبّر بالضّمير و عبّر بالظّاهر و هو اسم الإشارة، لذلك.

٢. تمكين المعنى في ذهن السّامع و تثبيته، كقوله تعالى: «و بالحقّ أنزلناه و بالحقّ نزل»، و الظاهر يقتضي أن يقول: «و به نزل»، ولكنّه وضع الظّاهر موضع الضّمير زيادة في تمكين صفة الحقّ لما أنزل الله، و منه: «الله الصّمد» و الاقتضاء فيه أن يقال: «هو الصّمد» فأعاد لفظ الجلالة زيادة في تمكينه و تثبيته و حضوره في البال.

٣. الاستعطاف، كقول الشّاعر:

إلهي عبدك العاصي أتاكا   مقرّاً بالذّنوب وقد دعاكا

و كان ينبغي أن يكون الكلام: أنا أتاك، ولكنّه عبّر بالاسم الظّاهر (عبدك) جلباً

للعطف و الشفقة. و منه أيضا: اللهم عبدك يسألك المغفرة، أي أنا أسألك.

٤. إظهار الخضوع أو التّواضع، كقولك: تلميذك يلتمس زيارتك، أو: خادمك يتقرّب إليك، قائلا تجاه من هو أعظم منك شأناً، و الأصل: أنا أتقرّب أليك و أنا ألتمس زيارتك.

و يسمّى هذا العدول بـ«الإظهار في مقام الإضمار» أيضا.

و هناك أغراض أخرى مذكورة في الكتب المبسوطة البلاغيّة فليراجع الطّالب[1].

ج) الالتفات. و هو ـ على المشهور ـ الانتقال بالأسلوب من ضمير الخطاب أو الغيبة أو التّكلم إلى ضمير آخر من هذه الضّمائر، بشرط أن يكون التعبير الثّاني على خلاف مقتضى الظّاهر، و يكون مقتضى الظّاهر أن يعبّر عنه بغير هذا الطّريق، و يدلّ الضمير الثاني على نفس الشيء الّذي دلّ عليه الضّمير الأوّل. و يسمّى التّفاتا، لالتفات المتكلّم من ضمير إلى ضمير آخر، مأخوذاً من التّفات الإنسان من يمينه إلى شماله و من شماله إلى يمينه.

و ينقسم الالتفات إلى أقسام، و المشهور منها ستة:

١. التّفات من التّكلّم إلى الخطاب، كقوله تعالى: «و مالي لا أعبد الّذي فطرني و إليه ترجعون»، و الأصل: و إليه أرجع.

٢. التّفات من التّكلّم إلى الغيبة، كقوله تعالى: «إنّا أعطيناك الكوثر فصلّ لربّك و انحر» حيث لم يقل: فصلّ لنا، لأنّ اسم الظّاهر (ربّ) بمنزلة الغائب.

٣. التّفات من الخطاب إلى التّكلّم، كقول علقمة بن عبدة:

طحابك قلب في الحسان طروب بعيد الشبا عصرحان مشيب
يكلّفني ليلى و قد شطّ وليها و عادت عواد بيننا و خطوب

ففي جملة «يكلّفني ليلى» التّفات من الخطاب في «طحابك» إلى التّكلّم، حيث لم يقل يكلّفك. و فاعل يكلّفني ضمير القلب و «ليلى» مفعوله الثاني، و المعنى: يكلّفني ذلك القلب ليلى و يطالبني بوصلها.

٤. التّفات من الخطاب إلى الغيبة، كقوله تعالى: «حتّى إذا كنتم في الفلك و جرين بهم»، أي جرين بكم.

٥. التّفات من الغيبة إلى التّكلم، كقوله تعالى: «الله الّذي أرسل الرّياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد...» أي فساقه إلى بلد.

---

١. راجع ـ مثلاً ـ: المطول، ص ٩٩ـ١٠٢.

٦. التّفات من الغيبة إلى الخطاب، كقوله تعالى: «مالك يوم الدّين إيّاك نعبد» أي إيّاه نعبد.[١]

و من العلل البلاغيّة المذكورة في بابه، هي أنّ النفوس تنفرّ من الشيء إذا أخذه أخذا واحدا، و تستريح إلى إحداث الأمر بعد الأمر، فنجدها تسكن إلى الشيء إذا أخذ من ألوان شتّى، فيتجدّد نشاطها، لما في الكلام من تغيير و تلوين.

تعريف المسند إليه بالعلميّة

يؤتى بالمسند إليه علما، لإحضار معناه في ذهن السّامع، إبتداء باسمه الخاص ليمتاز عمّا عداه، كقوله تعالى: «و إذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت و اسماعيل».

و قد يقصد به مع هذا أغراض أخرى، تناسب المقام:

١. تعظيم المسند إليه أو إهانته كما في الألقاب، نحو: حضر سيبويه، عند رؤيتنا لعالم نحويّ رفيعِ المُستوَى في علمه. و أَنْفُ النّاقة عندنا، لإنسان جَشِعٍ، و أيضا: جاء تأبّط شرّاً.

٢. التّفاؤل، نحو: جاء النّور و يقصد إنسان في زيّ العلم و التّقوى.

٣. التّشاؤم، نحو: ذهب الشّرّ ـ بحمدالله ـ و يقصد إنسان.

٤. التّلذّذ، كقول الشّاعر:

إذا ما بـدت ليـلى، فكُـلّيَ أعـين   و إن هي ناجتني، فكُلّي مسـامع.

٥. الكناية عن معنى ملازم للعلم، كما في قولهم: «طلع علينا أبو الهيجاء»، لإنسان عُرِفَ بمُمارَستِهِ الحربَ، لأنّ الهيجاء اسم من أسماء الحرب.

٦. التّبرّك، نحو: الله أكرمني، في جواب: هل أكرمك الله؟

تعريف المسند إليه بالإشارة

يُؤتى بالمسند إليه اسم إشارة، إذا تعيّن طريقا لإحضار المشار إليه في ذهن السامع بأن يكون حاضراً محسوساً و لا يَعرف المتكلّم و السّامع اسمه الخاص، و لا معيّناً آخر، كقولك أتبيع لى هذا؟ مشيراً إلى شيء لا تعرف له اسماً، و لا وصفا.

أمّا إذا لم يتعيّن طريقا لذلك، فيكون لأغراض أخرى:

---

١. نفس المصدر؛ ص ١٠٤ـ١٠٥.

١. كمال العناية و تمييزه أكمل تمييز، نحو: «هذا بعلي» قال الفرزدق:

هذا الّذي تعرف البطحاء وطأتـه و البيت يعرفه و الحـلّ و الحـرم

٢. للتعريض بغباوة المخاطب، نحو:

أولئك آبـائي فـجئني بـمثلهم إذا جـمعتنا يـا جـرير المجامع

٣. بيان موقعه و حاله في القرب، أو التوسط، أو البعد، نحو: «هذه بضاعتنا» ـ ذاك صديق ـ ذلك يوم الوعيد.

٤. تعظيمه بالقرب، نحو: «إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم»، و قال الشّاعر:

لقـد طـاب لي فـيك هـذا الغـرا م و إن صـحّ لي أنّـه مـتلفي

٥. تعظيمه بالبعد، نحو: «ذلك الكتاب لا ريب فيه». و قال الشّاعر:

أ أحبابنا! هل ذلك العيش راجع كما كـان؟ إذ أنـتم و نحـن جميع

٦. تحقيره بالقرب، نحو: «هل هذا إلّا بشر مثلكم»، و قال الشّاعر:

يـا هـذه لا تـغلطي و الله مـالي فـيك خـاطر

٧. تحقيره بالبعد، نحو: «فذلك الّذي يدعّ اليتيم».

٨. و التّنبيه على أنّ المشار إليه المعقّب بأوصاف، جديرٌ لأجل تلك الأوصاف بما يذكر بعد اسم الإشارة، كقوله تعالى: «أولئك على هدىً من ربّهم و أولئك هم المفلحون».

و كثيرا ما يُشار إلى القريب غير المشاهد بإشارة البعيد تنزيلاً للبعد عن العيان منزلة البعد عن المكان، نحو: «ذلك تأويل مالم تستَطِعْ عليه صبرا»[1].

تعريف المسند إليه بالموصوليّة

يُعرَّف المسند إليه بالاسم الموصول لأغراض عدّة، منها:

١. ألّا يعلم المخاطب شيئا عن المسند إليه إلّا ماجاء في صلة الموصول، كما قال ـ تعالى ـ في قصّة موسى ـ ع ـ: «فأصبح في المدينة خائفا يترقّب فإذا الّذي استنصره بالأمس يستصرخه، قال له موسى إنّك لغويّ مبين» حيث استُعمِل المسند إليه اسماموصولا لأنّ المخاطب لا يعلم من حاله غير طلب النّصرة من موسى.

٢. التّفخيم و التّهويل، نحو: «فغشيهم من اليمّ ماغشيهم» و كقول الشّاعر يصف تأثير

---

١. جواهر البلاغة؛ ص ١٢٩ـ١٣٠.

الخمر في العقل:

مَضى بها ما مَضَى من عقل شارِبِها　　و في الزُّجاجة باقٍ يَطلُبُ الباقي

٣. التّنبيه على خطأ وقع من المخاطب، نحو: «إنّ الّذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم»، و قول الشّاعر:

إنّ الذين ترونهم إخوانكم　　يشفي غليل صدورهم أن تُصرَعوا

٤. التّشويق، و ذلك فيما إذا كان مضمون الصّلة حكماً غريبا، كقول الشّاعر:

و الّذي حارت البريّة فيه　　حيوان مستحدث من جماد

٥. إخفاء الأمر عن غير المخاطب، كقول الشّاعر:

و أخذت ما جاد الأمير به　　و قضيت حاجاتي كما أهوى

٦. استهجان التّصريح بالاسم، نحو: «الّذي ربّاني أبي» إذا كان اسمه قبيحا كمن اسمه: بطة أو برغوث أو كلب أو غيرها.

٧. التّوبيخ، نحو: الّذي أحسن إليك قد أسأت إليه.

٨. الاستغراق، نحو: الّذين يأتونك أكرمهم.

٩. الإيهام، نحو: «لكلّ نفس ما قدمت».

و اعلم أنّ التّعريف بالموصوليّة مبحث دقيق المسلك، غريب النّزعة يُوقِفك على دقائق من البلاغة و تُؤنِسك إذا أنت نظرتَ إليها بثاقب فكرك، و تُثلج صدرك إذا تأمّلتها بصادق رأيك فأسرار و لطائف التّعريف بالموصوليّة لا يمكن ضبطها، و اعتبر في كلّ مقام ماتراه مناسبا.[1]

تعريف المسند إليه باللّام

قبل الحديث عن هذا القسم يقتضي أن نذكر بعض أقسام اللّام مبيّناً و مناسباً للمقام.

المقترن بأل: اسم سبقته «أل» فأفادته التّعريف، فصار معرفة بعد أن كان نكرة، كالرّجل و الكتاب و الفرس.

و هي إمّا أن تكون لتعريف الجنس، و تسمّى «الجنسيّة» و إمّا لتعريف أمر معهود، و يقال لها «العهديّة».

---

١. نفس المصدر؛ ص ١٣١ـ١٣٢.

أل العهديّة. و هي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. العهد الذّكري، و هي ما سبق لمصحوبها ذكر في الكلام كقولك: جاءني ضيف فأكرمت الضّيف، أي: الضيف المذكور، و منه قوله تعالى: «كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول».

٢. العهد الذّهنيّ، و هي ما يكون مصحوبها معهودا ذِهناً فينصرف الفكر إليه بمجرّد النّطق به، مثل «حضر الأستاذ» و كأن يكون بينك و بين زميلك عهد بأستاذ، فتريد الأستاذ المعهود ذهنا بينك و بين زميلك.

٣. العهد الحضوري، و هي ما يكون مصحوبها حاضراً، مثل: جئت اليوم، أي: اليوم الحاضر الّذي نحن فيه. و منه: «اليوم أكملت لكم دينكم...».

أل الجنسيّة. و هي تنقسم إلى قسمين: الاستغراقيّة، و الحقيقيّة.

١. و الاستغراقيّة إمّا أن تكون لاستغراق جميع أفراد الجنس، و هي ما تشمل جميع أفراده، كقوله تعالى: «و خلق الإنسان ضعيفا» أي كلّ فرد منه.

و إمّا لاستغراق جميع خصائصه، مثل: أنت الرّجل أي: اجتمعت فيك كلّ صفات الرّجال.

و علامة «أل» الاستغراقيّة أن يصلح وقوع «كلّ» موقعها، كما رأيت.

٢. و الحقيقيّة، و هي على قسمين أيضاً:

أ) الحقيقيّة الّتي تبيّن حقيقة الجنس و ماهيّته و طبيعته بقطع النظر عمّا يصدق عليه من أفراده، و لذلك لا يصحّ حلول «كلّ» محلّها، و تسمّى «لام الحقيقة و الماهيّة و الطّبيعة» و ذلك مثل «الإنسان حيوان ناطق»، أي حقيقته أنّه عاقل مدرك، و ليس يقصد أنّ كلّ إنسان كذلك، و مثل: «الرّجل أصبر من المرأة»، فليس كلّ رجل كذلك، فقد يكون من النّساء من تفوق بجَلَدِها و صبرها كثيراً من الرّجال، فأل هنا لتعريف الحقيقة غير منظور بها إلى أفراد الجنس، بل إلى ماهيّته من حيث هي.

ب) و الحقيقيّة الّتي تشير إلى الحقيقة في ضمن فرد مبهم، إذا قامت القرينة على ذلك، كقوله ـ تعالى ـ: «و أخاف أن يأكله الذئب»، و مثل: «ادخل السّوق و اشترى اللحم» و لا تريد بذلكَ ماهيّة السّوق أو اللّحم، بل فردين من هاتين الحقيقتين.

و بعد، فيستَخدم المُسند إليه معرّفا بأل: إمّا للإشارة إلى الأمر المعهود ذهنا أو ذكراً أو حضوراً، و إما للإشارة إلى الحقيقة و الماهيّة أو إلى الحقيقة في ضمن فرد مبهم ـ كما سبق

ذكره ـ و قد يقتضي المقام العدول عن هذه الأصول و الأساليب، كاقتران الخبر بلام الجنس لتخصيص المسند إليه بالمسند المعيّن و عكسه «حقيقة»، نحو: و هو الغفور الودود، و مثل: «و تزوّدوا فإنّ خير الزّاد التّقوى» أو «إدّعاء» للتّنبيه على كمال ذلك الجنس في المسند إليه، نحو: سعيد العالم، أي الكامل في العلم، فيعدّ ذلك من البلاغة كما ثبت في مظانّه.

تعريف المسند إليه بالإضافة

يُعرَّف المسند إليه باضافته إلى المعرفة بغيةَ تحقيق أحد المعاني التّالية:

١. لإفادة الاختصار، نحو: كتابي جديد. أصلها: «الكتاب الذي هولي» جديد. و قد قامت الإضافة مقام التّطويل.

٢. لتعظيم المضاف، أو لتعظيم المضاف إليه، نحو: صديق الملك زارني ـ ربّي الّذى أعطى كلّ شيء.

٣. لتحقير المضاف، أو المضاف إليه، نحو: ولد السارق قادم ـ جهالتي توقعني في المهالك.

و اعلم أنّ في هذه الاعتبارات فوائد قليلة، لا يظنّ أنّ الإضافة هي الّتي جاءت بها، و ليس فيها كبير بلاغة أيضا، و الّذي يقتضي هنا هو التّفحّص عن أساليب الإضافة و ما فيها من معاني التّخصيص و التّعريف، و من إضافة المشبّه به إلى المشبّه نحو «لجين الماء» ـ مثلاً ـ، و ما إلى ذلك من الأساليب الّتي قد تعطي البلاغة، و الحاكم فيها، هو الذّوق ـ كما قلنا مكرّراً ـ.

تنكير المسند إليه

ينكّر المسند إليه لعدم علم المتكلّم بجهة من جهات التّعريف حقيقة أو ادّعاءً، كقولك: جاءهنا رجل يسأل عنك إذا لم تعرف ما يعيّنه من عَلَم أوصلة أو نحوهما، و قد يكون لأغراض أخرى، منها:

١. التّكثير، نحو: «و إن يكذّبوك فقد كذّبت رسل من قبلك، (أي رسل كثيرون).

٢. التّقليل، نحو: «و رضوان من الله أكبر» و مثل: لو كان لنا من الأمر شيء.

٣.التّعظيم و التّحقير، كقول ابن أبي السّمط:

له حاجب عن كلّ أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

أي له مانع عظيم، و كثير عن كلّ عيب، و ليس له مانع قليل، أو حقير عن طالب

الإحسان، فيحتمل التّعظيم و التّكثير و التّقليل و التحقير.

٤. إخفاء الأمر، نحو: قال رجل: إنّك انحرفت عن الصّواب، فتخفى اسمه حتّى لا يلحقه أذًى.

٥. قصد الإفراد، نحو: ويلٌ أهون من ويلين، أي ويل واحد.

٦. قصد النّوعيّة، نحو: لكلّ داء دواء، أي لكلّ نوع من الدّاء نوع من الدّواء[١].

تقديم المسند إليه

للناس جميعا قواعد سلوكيّة يحبّونها و يحبّون من يقوم بها، من هذه القواعد تقديم العالم على الجاهل، و الكبير على الصغير، و الفاضل على المفضول. و ذلك حين يهمّون بدخول منزل أو الخروج منه، أو البدء بطعام، أو عمل أيّ شيء آخر، فالمقدّم هو المستحقّ الاحترام.

و انتقلت هذه القاعدة إلى البلاغة، فإذا نحن نقدّم الأهمّ على المهمّ، و ذا الفائدة على غير ذي الفائدة، و الأصيل على الدّخيل، و الثّابت على المتحوّل.

و انطلاقا من قواعد السّلوك هذه نقدّم المسند إليه إذا حمل الأغراض التّالية و ما شابهها:

١. التّشويق إلى الكلام المتأخّر. قال أبو العلاء المعريّ:

و الّذي حارت البريّة فيه ... حيوان مستحدث من جماد

فأوّل البيت فيه تشويق للسّامع على معرفة كنه هذا الّذي حارت الدّنيا فيه، و داخت العلوالم من فعاله، و السّامع يتساءل: من هو هذا المخلوق؟ من أيّ عجينة صنع، هل هو يمشي على قدمين أو أربع، أو يزحف على وجهه أو على بطنه، هل هو من عالم الإنسان أو الحيوان أو الجماد؟ و تتراكض الأسئلة، و تتتابع تفتش عن الجواب.

ثمّ يأتي الجواب: إنّه «حيوان مستحدث من جماد» إذن هو الإنسان الّذي خُلِقَ من فخار، و جُبِل من التّراب و آدم أوّل المخلوقات صنعه الله من طين أوّل ما صنعه.

إذن، في التّقديم فائدة التّشويق، و لهذا فحقّ التّشويق التقديم.

٢. التّلذّذ بذكره. لقد سبق أن ذكرنا أنّ المحبّ يلتذّ في ذكر محبوبه، باسمه يفتتح كلامه، و باسمه ينهي حديثه، باسمه يبتدئ يومه، و على اسمه ينام، و هو على لسانه آناء

١. نفس المصدر؛ ص ١٣٧ـ١٣٨.

اللّيل و أطراف النّهار.

هل من المعقول أن يسبق هذا المحبوب كلام؟ و هل من شريعة الحبّ أن يتقدّم على المحبوب شيء؟:

الله نور السّماوات و الأرض ـ ليلاي منكنّ أم ليلى من البشر؟

٣. التّعجيل بالمسرّة أو بالمساءة. تصوّر أنّك تقدّمت لامتحان فيه يتقرّر مصيرك فإذا نجحت فيه قضيت العمر سعيداً، و إذا أخفقت قضيّته مبتئسا حزينا.

و اقترب موعد ظهور النتيجة، فرأيت نفسك لا تطيق الوقوف و لا المشي و لا، انتظار إعلان النتيجة، فأرسلت صديقاً يستطلع لك الجواب.

لو كان هذا الصّديق بليغا لبشرّك بالصّورة التّاليه: النّاجح أنت، و لا يقول: أنت ناجح، إذ يقدّم كلمة التّفاؤل الّتي تنتظرها و تحبّ سماعها أكثر من انتظاره كلمة (أنت)، و كذلك يقاس على المساءة و التّشاؤم.

٤. اختصاصه بالخبر الفعلي إذا سبق بنفي. هذا العنوان يتطلّب شرحاً:

إذا قلت: «ما فعلت هذا»، فأنت تنفي عنك فعلا لم يثبت أنّه مفعول. و إذا قلت: «ما أنا فعلت هذا» فأنت تنفي عنك فعلا ثبت أنّه مفعول.

في المثال الأوّل «ما فعلت هذا» تنفي عن نفسك الفعل، ولكنّك لا تثبته لغيرك و لا تنفيه عنه، أنت حياديّ في الجواب اكتفيت بالكلام عن نفسك، فقد يكون غيرك قد فعله، و قد لايكون فَعَله.

أمّا في المثال الثّاني «ما أنا فعلت هذا» فأنت أوقعتَ نَفي الفعل عن نفسك و اعترفت بأنّ هذا الفعل كائن لكنّك لم تفعله أنت و إنّما فعله سواك، في هذه العبارة نفيت عن نفسك الفعل و أثبتّه على سواك. فلو قلت: «ما أنا كسرت الزّجاج» قصدت نفي الكسر عن نفسك، و أثبته عل غيرك، و فهم من الجملة أنّ كسر الزّجاج حاصل و واقع، و الكاسر ليس أنت، و إنّما هو إنسان آخر.

إذن، في قولنا «ما أنا فعلت هذا» نفي عن المذكور و إثبات لغير المذكور.

و مادام في هذا التّركيب نفي و إثبات، فلا يصحّ أن يقال: ما أنا كسرت الزّجاج و لا غيري، لأنّ في الكلام شبه تناقض إذ في قولنا «ما أنا كسرت الزّجاج» نفي كسر الزّجاج عنّي و إثباته في الوقت ذاته على غيري، و إذا لحقت العبارة «لا غيري» كان التّناقض، إذ كيف تثبت الكسر على الغير ثمّ تنفيه عنه؟

و إذا أردنا نفي الكسر عنّا و عن غيرنا وجب أن تقول: «ما كسرت أنا الزّجاج و لا كسره غيري»، أو «ما كسرت الزّجاج و لا غيري» بتقديم الفعل. كذلك يصحّ أن تقول «أنا ما كسرت الزّجاج و لا غيرى» بتقديم المسند إليه و تأخير حرف النّفي.

٥. إفادة التّخصيص، و يكون التّخصيص في حال الإثبات، تقول: أنا كتبت هذه الصّفحة، فهذه الجملة تفيد تخصيصك بالكتابة.

فإذا أردت أن تنفي مشاركة غيرك بالكتابة فيمكنك أن تقول مؤكّدا: «أنا كتبت هذه الصفحة وحدي»، فكلمة «وحدي» نفت المشاركة.

و إذا أردت أن تنفي قيام غيرك بالكتابة فيمكنك أن تقول مؤكّدا: «أنا كتبت هذه الصّفحة لا غيري».

٦. تقوية الحكم و تقريره. و ذلك حين تقول: محمد يعطي الجزيل، و خالد لا يكذب. و سبب التّقوية أنّ «محمدا» مسند إليه، و كذلك «خالد»، أمّا المسند في الأولى فهو الفعل (يعطى) و في الثانية (لا يكذب) و أنت تعلم من النّحو أنّ فاعل الفعل (يعطي و لا يكذب) ضمير مستتر فيه جوازا تقديره (هو) يعود على (محمّد) أو على (خالد)، و الضّمير (هو) المسند إليه، فكأنّك قلت مرّتين خالد لا يكذب ـ خالد لا يكذب ـ مثلا ـ و قد ثبت هذا في مبحث المسند فراجع.

و تقديم المسند إليه في الجملة الّتي خبرها جملة فعليّة أقوى من قولك: «يعطي محمّد الجزيل»، و «لا يكذب خالدٌ» لأنّ الإسناد لم يحدث إلّا مرّة واحدة، و لهذا قلنا: إنّ تقديم المسند إليه يقوّي الحكم.

٧. النّصّ على عموم السّلب أو سلب العموم. فالنّص على عموم السلب يعني شمول النّفي لكلّ فرد من أفراد المسند إليه، و يكون عادة بتقديم أداة من أدوات العموم على أداة النّفي: كلّ الطّلاب لم يحضروا. ففي هذا المثال تقدّمت أداة العموم (كلّ) و تأخّر أداة النفي (لم) فهي من مصاديق عموم السّلب أو شمول النّفي، تعني نفي حضور جميع الطّلاب.

أمّا سلب العموم أو نفي الشّمول بتقديم أداة النّفي و تأخير أداه العموم، نحو: ما كلّ الطّلاب حضروا. و بهذا الشّكل يكون الحضور قد ثبت لبعض الطّلاب و نفي عن بعض آخر.

و اعلم أنّ من الأساليب البلاغيّة هنا أسلوب يستعمل كثيرا مع لفظتي «مثل» و «غير» على النّحو التّالي:

أ) ورد في أساليب العرب قولهم: «مثلك لا يخون»، و هذه الجملة تعني إثبات عدم

الخيانة لمثل المخاطب. و المماثل معنى عامّ يشمل المخاطب و غيره ممّن يماثله. فإذا ثبت عدم الخيانة للمماثل لزم ثبوته للمخاطب كذلك، باعتباره أحد أفراد المعنى العام الكلّيّ.

ب) و ورد أيضا في أسلوبهم قولهم: «غيرك لا يبخل» و تعني هذه الجملة نفي البخل عن غير المخاطب، و لزم ثبوته له[1].

تأخير المسند إليه

يؤخّر المسند إليه إذا كان المقام يقتضي تقديم المسند، و سيجيء بعض المواضع الّتي يجب فيها تقديمه.

الأسئلة و التّمارين

أ) ما هو المسند إليه؟ ما هي أحواله؟ متى يجب ذكره؟ ما هي الوجوه الّتي ترجّح ذكره عند وجود القرينة، متى يحذف؟ ما الفرق بين المعرفة و النّكرة في ذلك؟ لم يعرّف المسند إليه بالإضمار؟ ما هو الأصل في الخطاب لم يعرّف المسند إليه بالعلميّة؟ لم يعرّف بالإشارة؟ لم يعرّف بالموصوليّة؟ لأيّ شيء ينكّر المسند إليه؟ لِمَ يقدّم المسند إليه؟ ما الفرق بين عموم السلب و سلب العموم؟ لِمَ يؤخر المسند إليه؟

ب) عيّن المسند إليه فيما يأتي، ثمّ بيّن سبب إيراده مطابقا لمقتضى الحال:

١. لسان الفتى نصف و نصف فؤاده.

٢. ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه.

٣. و على الله فليتوكّل المؤمنون.

٤. لا يعطي و لا يمنع إلّا الله.

٥. عليّ كتب الدرس (جواب: ما الّذي عمل عليّ؟).

٦. محمود نعم التّلميذ.

٧. خلق الإنسان من عجل.

٨. ألم يجدك يتيما فآوى؟

٩. أهين الأمير!

---

١. البلاغة العربيّة...؛ ج ١، ص، ١٢٣ـ١٥٢.

۱۰. وأنت الّذي أخلفتني ما وعدتني و أشمتَ بي من كان فيك يلوم
۱۱. أبو لهب فعل كذا.
۱۲. أمير المؤمنين يأمرك بكذا.
۱۳. أنت الّذي أعانني، و أنت الّذي سرّني.
۱٤. سعيد يقتحم الأخطار (بعد مدحه).
۱٥. صاحبك يدعو إلى وليمة العرس.

ج) بيّن أحوال المسند إليه الّتي يطابق بها مقتضى الحال فيا يأتي.

۱. غافل أنت والليالي حُبالى بصنوف الرّدى تروح وتغدو
۲. أعندي وقد مارستُ كلّ خفيّة يصدق واش أو يخيب سائل
۳. لله الأمر من قبل و من بعد.
٤. إلى الله أشكو أنّنا بمنازل تحكّم في آسادهنّ كلاب
٥. و لي همّة لا تطلب المالَ للغنى ولكنّها منك المودّة تطلب
٦. و من نكد الأيّام أن يبلغ المنى أخو اللّؤم فيما ، الكريم يخيبُ
۷. إلى الله أشكو أنّني كلّ ليلة إذا نمت لم أعدم خواطر أوهام
فإن كان شرّا فهو لا شكّ واقع و إن كان خيرا فهو أضغاث أحلام
۸. يدُ المعروف غُنم حيث كانت تحمّلها شكور أم كفور
ففي شكر الشّكور لها جزاء و عند الله ما جحد الكفور
۹. أنلهو و أيّامنا تذهب و نلعب و الدّهر لا يلعب
۱۰. ثلاثة تشرق الدّنيا ببهجتها شمس الضّحى و أبو اسحاق و القمرُ
۱۱. ثلاثة يجهل مقدارها الأمن و الصّحة و القوت
فلا تثق بالمال من غيرها لو أنّه درّ و ياقوت
۱۲. أ أنت تجود، إنّ الجود طبع و مالك منه يا هذا نصيب
۱۳. ممّا خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً.
۱٤. و من عجب الأيّام بغي معاشر غِضاب على سبقي إذا أنا جاريتُ
يغيظهم فضلي عليهم و نقصهم كأنّي قسمت الحظوظَ فحابيتُ[1].

---

۱. مقتبس من: جواهر البلاغة؛ ص ۱٤۲ـ۱٤٦.

٣. المسند

المسند: أحد ركني الجملة، فعليّة كانت أم اسميّة، و قد سبق بأنّه الرّكن المتغيّر فيها. و لتسهيل الفهم على القارئ نذكر له مواقع المسند في الجملة على وجه العموم:

١. الفعل التّام، نحو: قدم الحبيب.

٢. اسم الفعل، نحو: شتّان ما بين الفريقين.

٣. خبر المبتدأ، نحو: الحياة كفاحٌ.

٤. المبتدأ الّذي ليس له خبر، نحو: أقائم أنت بواجبك؟

٥. ما كان أصله لمبتدأ، أ) كان المتنبّي شاعرا. ب) إنّ الله غنيٌّ عن العالمين.

٦. المفعول الثاني للأفعال الّتي تنصب مفعولين، أصلهما مبتدأ و خبر، نحو: وجدت الوفاء نادراً.

٧. المفعول الثالث للأفعال الّتي تنصب ثلاثة مفاعيل، نحو: أعلمت الجدَّ الفوزَ محقّقاً.

حذف المسند

لقد ذكرنا في موجبات حذف المسند إليه قاعدةً هي: أنّه لا يحذف شيء إلّا إذا قامت قرينة تدلّ على المحذوف، و كان موجب الحذف أقوى من موجب الذّكر و أبلغ. و هنا و في هذا المجال نعيد القول ذاته، و نقوله عن موجبات حذف المسند. فيحذف المسند لأغراض عدّة، منها:

١. ضيق المقام بسبب توجّع، أو بسبب محافظة على الوزن، كقول الشّاعر:

و من يكُ أمسى بالمدينة رحله ... فإنّي و قيّار بها لغريب

فتحسّر الشّاعر السّجين على الغربة و توجّع من الكربة و ذلك يقتضي الاختصار فحذف المسند (أي: إنّي غريب و قيّار أيضا غريب) بذلك و لمحافظة الوزن أيضا. وقيّار اسم جمل له أو فرس. و أيضا مثل:

نحن بما عندنا و أنت بما عِنْ ... دَك راضٍ و الرأي مختلف

أي: نحن بما عندنا راضون، و أنت بما عندك راض.

٢. الاحتراز عن العبث في ذكره، كقوله ـ تعالى ـ:

«قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربّي» فقد حذف الفعل المسند إلى ضمير المخاطب و هو (أنتم)، لأنّ لفظة «لو» لا تدخل إلّا على الأفعال، و هذه قرينة على حذف المسند

(تملكون) لوجود مفسّره أيضا في الكلام.

۳. اتّباع الاستعمال عن العرب، في أمثال ما يأتي:

أ) بعد «إذا» الفجائيّة، نحو: خرجت فإذا العواصف، و التّقدير: (العواصف شديدة).

ب) بعد جواب الاستفهام، نحو: من عندكم؟ فتقول: ضيف، أي: عندنا ضيف.

٤. أن يقع المسند في جواب سؤال محقّق أو مقدّر، نحو:

أ) «و لئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض؟ ليقولُنّ: الله» التّقدير: خلقهنّ الله.

ب) قال الشّاعر:

لِيُبكَ يزيدُ ضارع لخصومة و مختبط ممّا تطيح الطّوائح

فكلمة «ضارع» فاعل لفعل محذوف تقديره «يبكيه»، فكأنّ سائلا سأل: من يبكيه؟ فأجيب: ضارع لخصومة. و كقوله تعالى: «يسبّح له فيها بالغدوّ و الآصال، رجال» و التّقدير من يسبّحه؟ و الجواب: يسبّحه رجالٌ.

فمن هذه النّماذج نستنتج أنّ كثيرا من الأغراض الجارية هنا يشبه أغراض حذف المسند إليه و لذلك قال صاحب التّلخيص: «و أمّا تركه فلما مرّ في حذف المسند إليه»[1].

ذكر المسند

يذكر المسند حيث يجب الذّكر، كما يحذف حيث يجب الحذف و يحسن، فمن موجبات الذكر:

۱. ضعف الاعتماد على القرينة، نحو: المال عصب الحياة فإنّ السامع قد لا يفهم صفة المال لو لم تذكر له، فلقد يفكر أنّ المال زينة الحيَاة الدّنيا، أو خير من العلم، أو جالب للسعادة أو سبب للشّقاء، أو مستعمر للأفراد و الشّعوب أو غير ذلك، هذا الغموض هو الدّاعي إلى ذكر المسند.

۲. زيادة التّقرير و الإيضاح، يسأل القاضي الشّاهد في قاعة المحكمة: من فعل تلك الفعلة الشّنعاء؟ يجيبه الشّاهد: زيد هو الّذي فعل تلك الفعلة الشّنعاء. زيادة في التّقرير و الايضاح و إبعاداً للّبس و الغموض.

۳. الردّ على المخاطب، فلو سأل سائل: من يُحيِي العظام و هي رميم؟ فالجواب يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة.

---

۱. المطول؛ ص ۱۱۰.

تنكير المسند

يكون المسند نكرة لأغراض عدّة، منها:

١. عدم إرادة تعيينه أو حصره، نحو: زيد كاتب. فأنت تريد بكلمة «كاتب» أن تصفه بصفة الكتابة، ليس إلّا دون زيادة في المعنى أو نقصان.

٢. التّعظيم و التّفخيم، نحو: إنّ سعديًا شاعرٌ، فالوصف لسعديّ بالشّاعريّة قد تحمل في طواياها تفخيا أو تعظيا.

٣. التّقليل و التّحقير، نحو: نصيبي من ميراث أبي شيءٌ. فالوصف للموروث بكلمة «شيء» قد تشير إلى قلّة أو إلى كميّة تافهة لا قيمة لها.

في الحقيقة، ليست النكرة في تركيب حروفها هي الّتي حملت معنى التّفخيم أو التّقليل أو التّعظيم أو غير ذلك، إنّما سياق الجملة من ناحية، و لهجة المتحدّث من جهة ثانية و نفسيّة المخاطب من جهة ثالثة، و مقتضى الحال أوّلا و أخيرا هي الّتي لوّنت النّكرة بتلك الألوان، و تستطيع أن تلوّنها بأكثر ممّا فعلت بكثير، و هذا أصل يجري في كثير من المسائل البلاغيّة فاحفظه.

تعريف المسند

الأصل في المسند الاسمي أن يكون نكرة، نحو: زيد كاتب، و يعدل عن تنكيره إلى تعريفه لدواع بلاغيّة، منها:

١. إفادة التّعيين أو التّخصيص: إنّ علماء البلاغة عبّروا عن هذه الغاية بقولهم: «إفادة السّامع حكما بأمر معلوم عنده بإحدى طرق التّعريف على أمر معلوم له كذلك».

بيان ذلك: أنّ الشيء قد يكون له صفتان من صفات التّعريف، و يعلم المخاطب اتّصافه بإحداهما دون الأخرى، فتخبره باتّصافه بها، و حينئذ يجب تقديم المحكوم عليه «المسند إليه» و تجعله مبتدأ، و تؤخّر المحكوم به «المسند» و تجعله خبراً.

مثال ذلك: عليٌّ الخطيب. فالمخاطب يعرف «عليًا» بعينه، و يعرف في الوقت نفسه أن في البلدة خطيبا، ولكنّه لا يدري أنّ علياً هذا هو «الخطيب»، و حينئذ تجعل المعلوم عنده مبتدأ، و هو «عليّ» و تجعل المجهول الّذي هو «الخطيب» خبراً فتقول له: عليّ الخطيب.

و إذا كان يعرف العكس، أي يعرف أنّ في البلدة خطيبا، و يعرف أشخاصاً كثيرين كأحمد و سعيد، و منصور و زيد و بكرو عليّ ولكنّه لا يدري من هو الخطيب، فتعيّنه له، و

ذلك بأن تجعل المعلوم «الخطيب» مبتدأ، و المجهول الّذي هو «عليّ» خبراً. فتقول له: الخطيب عليٌّ. بعبارة أخرى نلتفت إلى الثّابت و المتغيّر في الجملة، فتقدّم الثّابت ثمّ نأتي بالمتغيّر.

٢. المبالغة في قصر المسند على المسند إليه: إذا وصفنا رجلاً بقولنا: «أنت الأديب» نكون قد قصرنا أوصافه على صفة الأدب، و تجاهلنا الأدباء الباقين تجاهه:

حُسنُك عِطرُ العطر في جنتي ... على غناها و لُبان اللبان
و مُلْكُك البدرُ و شمس الضّحى ... و ما يصوغان و ما يغزلان

تقديم المسند

يقدّم المسند على المسند إليه لأغراض، أهمّها:

١. قصر المسند إليه على المسند. فلوقلت: «إيرانيّ أنا» فكلمة «إيرانيٌّ» مسند مقدّم و كلمة «أنا» مسند إليه مؤخّر.

هذا التّركيب يقصر المتكلّم الذي هو «أنا» على صفة الإيرانيّة، لا يتعداها إلى سواها.

و لو قرأنا قوله تعالى في وصف خمور الجنّة: «لا فيها غَوْلٌ»[1]. فهمنا قصر «عدم وجود الغول» في خمور الجنّة وحدها.

و فرق كبير بين قولنا: «لا غول فيها» و قوله «لا فيها غول».

العبارة الأولى تنفي وجود الغول في هذه الخمرة، ولكنّها لا تتعدى في النفي إلى خمور غيرها، فقد يكون فيها الغول ـ الذي يغتال العقول ـ و قد لا يكون. أمّا الآية فتقصر عدم وجود الغول في خمرة الجنّة، و تثبت وجوده في غيرها.

٢. التّفاؤل أو التّشاؤم. نحبّ من يقول لنا: سعِدَ صباحُك، و طاب يومك، أكثر من قوله: صباحُك سعيد، و يومك طيّب. لأنّه بدأ بالكلمة ذات الوقع الحَسَن على آذاننا و قلوبنا.

و نكره من يقول لصاحبه: خسرت تجارتك، لأنّه قليل ذوق، إذ كان يستطيع الإخبار عن خبر السّوء بقوله: تجارتك خسرت، و الفرق بسيط، يكمن في استهلال الكلام و بدئه ليس إلّا.

٣. التّشويق إلى المسند إليه.

ثلاثة تشرق الدّنيا ببهجتها ... شمس الضّحى و أبو اسحاق و القمر

---

١. الصّافات، ٤٧.

فكلمة «ثلاثة» مسند، لأنّه نكرة، و قد ازدانت بأوصاف مشوقة إلى معرفة هذه الصّفات، هذا التّشويق هو المسوّغ للمسند أن يحلّ أوّلاً.

المسند الجملة

يكون المسند جملة فعليّة أو اسميّة لغايات: منها:

١. تقوية الإسناد، نحو: طلعة تفرح العيون، و نحو: المؤمنون إذا ما بايعوا صدقوا، و نحو: المرهفات أنت سيّدها.

٢. إفادة التّجدّد أو الثبوت.

و التّجدّد يكون في المسند الفعلي كما يكون الثبوت في المسند الاسمي، و الأمثلة ظاهرة[1].

الأسئلة و التمارين

١. ما هو المسند؟ ما هي أحواله؟ لأيّ شيء يذكر المسند؟ لأيّ شيء يحذف؟ لِمَ يقدّم؟ لِمَ يؤخّر؟ لم يعرّف؟ لِمَ ينكّر؟ لم يؤتى به جملة؟

٢. عيّن أنواع المسند فيما يأتي، ثمّ بيّن وجوه البلاغة فيه:

غلامي سافر ـ أخي ذهبت جاريته ـ أنا أحبّ المطالعة ـ الحقّ ظهر ـ زهرة العلم أنضر من زهرة الرّوضة ـ له همم لا منتهى لكبارها ـ ما هذا الرّجل إنسانا ـ كتاب في صحائفه حكم ـ الغضب آخره ندم ـ كأنّه الكوثر الفيّاض ـ «بل الله فاعبد، و كن من الشاكرين» ـ «و لم يكن له كفوا أحد».

٣. بيّن أسباب التّقديم و التّأخير، و الذكر و الحذف و المعرفة و النّكرة للمسند فيما يأتي:

ـ ما كلّ ما فوق البسيطة كافيا ... فإذا قنعت فبعض شيء كافي

ـ و ما أنا وحدي قلت ذا الشّعر كلّه ... ولكنّ شعري فيه من نفسه شعري

ـ إذا شئت يوما أن تسود عشيرة ... فبالحلم سُدْ لا بالتّسرع و الشّتم

ـ أ في الحق أن يعطي ثلاثون شاعراً ... و يحرم مادون الرّضا شاعر مثلي

ـ بك اقتدت الأيّام في حسناتها ... و شيمتها لولاك همّ و تكريب

ـ و كالنّار الحياة فمن رماد ... أواخرها و أولها دخان

---

١. البلاغة العربية...؛ ج ١، ص، ١٥٣ـ١٦٢.

ـ سعيدا كلّمت، و إيّاك مدحت ـ سلّمت واقفا على زيد ـ فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا ـ و إن كذّبوك فقل: لي عملي ولكم عملكم ـ عند الشدائد تعرف الإخوان ـ إنّ أكرمكم عندالله أتقاكم.

ـ خير الصّنائع في الأنام صنيعة   تنبو بحاملها عن الأذلال
ـ بسيّدِ العفاف أصون عزّ حجابي   و بعصمتي أسمو على أترابي
ـ لكلّ جديد لذّة غير أنّني   وجدت جديد الموت غير لذيذ
ـ سلام الله يا مطر عليها   و ليس عليك يا مطر السّلام
ـ ثلاثة ليس لها إياب   الوقت و الجمال و الشّباب

ـ «أفي الله شك!؟» ـ «ولكم في الأرض مستقرّ و متاع إلى حين» ـ

ـ لو خُيِّرَ المنبر فرسانَه   ما اختار إلّا منكم فارسا
ـ لولا المشقّة ساد النّاس كلّهم   الجودُ يفقِر و الإقدام قتّالُ

٤. عيّن أسباب الحذف و نوع المحذوف من المسند في الأمثلة التّاليه:

«ذلكم أزكى لكم و أطهر، و الله يعلم و أنتم لا تعلمون» ـ قال النبيّ (ص): «إنّ أحبّكم إليّ و أقربكم منّي مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الّذين يألفون و يؤلفون» ـ قال أبو العتاهية:

جزى الله عنّي صالحا بوفائه   و أضعف أضعافا له في جزائه
صديق إذا ما جئتُ أبغيه حاجةً   رَجعتُ بما أبغي، و وجهي بمائه

قال البحتري يمدح الفتح بن خاقان:

رزين إذا القوم خفت حلومهم   وقور إذا ما حادث الدّهر أجلبا
فتى لم يضيّع وجه حزم و لم يبت   يلاحظ أعجاز الأمور تعقّبا

٤. إطلاق الحكم و تقيـيده

الإطلاق و التقييد وصفان للحكم، فالإطلاق أن يقتصر في الجملة على ذكر المسند إليه و المسند حيث لا غرض يدعو إلى حصر الحكم، ضمن نطاق معيّن بوجه من الوجوه، نحو: الوطن عزيز.

و التّقييد أن يزاد على المسند و المسند إليه شيء يتعلّق بهما، أو بأحدهما، ممّا لو أغفل لفاتت الفائدة المقصودة أو كان الحكم كاذبا، نحو: الولد النجيب يسرّ أهله.

بيان ذلك: إذا اقتصر في الجملة على ذكر جزأيها (المسند إليه و المسـند) فـالحكم «مطلق»، و ذلك حين لا يتعلّق الغرض بتقييد الحكم بوجه من الوجوه ليذهب السّامع فيه كلّ مذهب ممكن.

و إذا زيد عليهما شيء ممّا يتعلّق بهما، أو بأحدهما فالحكم «مقيّد»، و ذلك حيث يراد زيادة الفائدة و تقويتها عند السّامع، لما هو معروف من أنّ الحكم كلّما كثرت قيوده ازداد إيضاحاً و تخصيصاً، فتكون فائدته أتمّ و أكمل، ولو حذف القيد لكان الكلام كذبا، أو غير مقصود، نحو قوله تعالى: «و ما خلقنا السّماوات و الأرض و ما بينهما لاعبين»، فلو حذف الحال و هو (لاعبين) لكان الكلام كذبا، بدليل المشاهدة و الواقع.

و نحو: «يكاد زيتها يضيئ»، إذ لو حذف «يكاد» لفات الغرض المقصود، و هو إفادة المقاربة.

و اعلم أنّ معرفة خواص التّراكيب و أسرار أساليب و ما فيها من دقيق الوضع، و باهر الصّنع، و لطائف المزايا، يسترعي لُبك إلى أنّ التّقييد بأحد الأنواع الآتية، يكون لزيادة الفائدة و تقويتها عند السّامع ـكما ذكرنا آنفا ـو التّقييد يكون: بالتّوابع، و ضمير الفصل، و النواسخ، و أدوات الشّرط، و النفي، و المفاعيل الخمسة، و الحال، و التّمييز، فنذكر من كلّ واحد منها نماذجَ حسب ما يسعها هذا المختصر ـبعون الله و تأييده ـ:

التقييد بالنعت

يُؤتى بالنعت لأغراض عدّة، منها:

١. تخصيص المنعوت بصفة تميّزه إن كان نكرة، نحو: جاءني رجل عالم، و نحـو: «و جاء من أقصى المدينة رجل يسعى».

٢. توضيح المنعوت إذا كان معرفة لفوائد:

أ) الكشف عن حقيقته، نحو: الجسم الطّويل، العريض، يشغل حيّزاً من الفراغ.
ب) التّأكيد، نحو: تلك عشرة كاملة ـ و أمس الدّابر كان يوماً عظيماً.

التقييد بالتوكيد

ليس المراد من أسلوب التّأكيد، هو النّوع الذي يعتبر فرعا من التّوابع فقط، بل أردنا ما هو أعمّ من ذلك سواء أكان من التّوابع أم لم يكن، مادمنا نلحظ فيه معنى التوكيد. فمن فوائد التوكيد البلاغيّة:

١. تقرير الكلام، أي جعله مستقرّاً ثابتاً لا يحتمل الظّن أو يداخله الريب، فإذا قلت: جاء سعيد سعيد، بالتوكيد أزلت عن السّامع كلّ غفلة، وردّدته إلى تمام اليقظة.

٢. إثبات الشّمول، فإذا قلت: جائني القوم، ربما تبادر إلى الذّهن أنّ الّذي جاء هو بعض القوم، و ليس جميعهم، ولكنك إذا أتيت بجملة «كلّهم»، فلن يتوهّم أحد بمجئ بعضهم دون بعض.

التقييد بالبدل

و اعلم أنّ من أنواع البدل المعترف بها في مسائل البلاغيّة ثلاثة: بدل الكلّ، و بدل البعض و بدل الاشتمال، أمّا بدل الغلط و بدل النسيان فلا يجيئان في كلام الفصحاء، هذا هو المشهور عندهم، و فيه نظر، بحثنا عنه فيما كتبناه حول تطوّر البلاغة تفصيلا.

و قيمة البدل البلاغيّة تتلخّص في الايضاح بعد الابهام، و التّوكيد بعد الاخبار، فإذا قلت أكرمت محمداً أخاك، بيّنت انّك تريد بمحمد الأخ، و صار و اضمحالك مَنِ المراد بمحمد بعد أن كان مبهما. و أمّا التّوكيد، فلأنّ البدل يكون على نيّة تكرار العامل من جهة، ولدلالة المبدل منه على البدل، أي دلالة محمّد على الأخ فجرى البدل من المبدل منه مجرى التّوكيد لتكراره.

و إذا قلت في بدل البعض: أخذت سعيدا يده، فقد وضحت أوّلا الجزء المأخوذ بعد أن كان مبهما، و أكّدت ثانيا، لانّك ذكرت اليدَ مرّتين، مرّة ضمن سعيد، و أخرى بلفظها.

و إذا قلت في بدل الاشتمال: أعجبني زيد علمه، فالبدل هنا فائدته البيان بعد الاجمال، و التّفسير بعد الابهام أمّا التّأكيد فإنّك قد تقول أعجبني زيد إذا أعجبك علمه، فذكر العلم بعد ذلك يكون بمثابة التّكرار فيحصل التّوكيد، لأنّ ما يذكر أوّلا، يكون موطئاً

لما يذكر ثانيا، و هذا ما قصد إليه سيبويه حين أشار بأنّ «البدل يأتي للتوكيد و التّبيين»[1].

التقييد بعطف البيان

يُؤتى بعطف البيان لمقاصد عدّة، أهمها: التّوضيح للمتبوع باسم مختصّ به، نحو: قال أبو عبدالله جعفر بن محمّد الصادق.

التقييد بعطف النّسق

يؤتى بعطف النّسق لأغراض كثيرة، منها:

١. تفصيل المسند إليه باختصار، نحو: جاء زيد و بكر، فإنّه أخصر من: جاء زيد، و جاء بكر.

٢. تفصيل المسند مع الاختصار أيضا، نحو: جاء سعيد فنصور، أو ثمّ منصور، لأنّ الفاء ـ مثلا ـ تدلّ عل تفصيل المسند. و قد استعملت حروف العطف في غير معانيها الأصليّة مجازا و ذلك من البلاغة كما بيّن في مواضع تفصيله.

التقييد بضمير الفصل

يؤتى بضمير الفصل لمقاصد كثيرة، منها:

١. التّخصيص، نحو: «ألم يعلموا أن الله هو يقبل التّوبة عن عباده».

٢. تمييز الخبر عن الصّفة، نحو: العالم هو العامل بعلمه.

التقييد بالنواسخ

التقييد بالنّواسخ يكون للأغراض الّتي تؤديها معاني ألفاظ النّواسخ، كالاستمرار و التّوقيت و الصيرورة و التّمنّي و التّأكيد، و قد استعملت في غير معانيها الأصليّة فتخرج بذلك عن مقتضى الظّاهر و توجد بلاغة في الكلام حسب ما تقتضيه.

التقييد بالشّرط

التقييد بالشّرط يكون للأغراض الّتي تؤديها معاني أدوات الشّرط، كالزمان، و المكان و

---

١. الكتاب؛ ج ١، ص ٧٥ و ٤٤٦.

الحال، و استيفاء ذلك و تحقيق الفرق بين تلك الأدوات يذكر في علم النّحو. و أمّا مواضع بلاغتها، فلخروجها عن معانيها الأصليّة و استعمالها في غيرها مجازا.

التقييد بالنفي

يكون ذلك لسلب النسبة على وجه مخصوص، ممّا تفيده أحرف النفي. و البلاغة فيه تعرف من خروجها عن معانيها الأصليّة.

التقييد بالمفاعيل و نحوها

و اعلم أنّ التّقييد بالمفاعيل و نحوها يكون لبيان نوع الفعل، أو ما وقع عليه، أو فيه، أو لأجله، أو بمقارنته و يفيد بالحال لبيان هيئة صاحبها و تقييد عاملها، و يُقيّد بالتمييز لبيان ما خفي من ذات أو نسبة. فتكون القيود هي محط الفائدة، و الكلام بدونها كاذب، أو غير مقصود بالذّات.

و قد انتقلت هذه القيود من مواضعها و انحرفت عن أصولها و موازينها فتفيد أموراً هامّة بلاغيّة، مذكورة في مظانّها، فليراجع الطالب.

٥. أحوال متعلقات الفعل

للفعل في اللّغة العربيّة مقام كبير، و عليه يعتمد التّعبير، و منه تصدر المعاني، و له تأثير هامّ في بلاغة الكلام.

هذا الفعل الّذي رأينا في مواطن سابقة أنّه يفيد التّجدّد و الحدوث، و يحمل معنى الزمنيّة في صياغته، فيدلّ على زمن انقضى، أو زمن حاضر، أو زمن قادم في المستقبل.

يتقدّم على فاعله، أو يتأخّر عنه، و في تقدّمه يحمل غاية يسعى إليها، و في تأخّره دلالة يرمي إليها.

و يتعدّى إلى مفعول، و إلى أكثر من مفعول، فيظهر المتعدّى عليه عيانا، و لا يظهر أحيانا أخرى، و إنّما يشمّ القارئ رائحته و يعرف مكانه، و قد لا يتعدّى على أحد فيلزم حدوده، و يكتفي بفاعله و يقعد هادئاً مستريحاً و مريحاً.

و يسوق المتعدي أحياناً ـ ما تعدّى عليه أمامه و يقدّمه على نفسه أحياناً أخرى لغاية في نفسه.

و ترتبط به مفاعيل شتّى و أحوال، و ظروف و تمييز، فإذا هي معه كيان واحد، تتأخّر عنه فتؤدّي دوراً، و تتقدّمه فتؤدّي دوراً آخر.

و ها نحن أولاء نفصّل القول في هذه المواقع، لعلّنا في نهاية المطاف نستطيع الوقوف على سرّ التّعبير الفنيّ البديع أو لعلّنا نستطيع التّصرّف بالكلام فننشئ تعبيراً فنيّاً بديعاً.

أحكام الفعل و المفعول

الفعل يلابس المفعول بوقوعه عليه كما يلابس الفاعل بوقوعه منه، فيذكر معه لإفادة تعلّقه به كما يذكر الفاعل لذلك، فإذا لم يذكر المفعول فلا يخلو من أن يكون المراد إثبات الفعل للفاعل أو نفيه عنه مع قطع النّظر عن تعلّقه بالمفعول أو مع النّظر إلى تعلّقه، فإن كان مع قطع النّظر عن تعلّقه به نُزّل الفعل المتعدّى منزلة اللازم، و يتّسع مدلوله من نطاق محدود في المفعول إلى نطاق عامّ و مدلول واسع.

لنقرأ قوله تعالى: «قل: هل يستوى الّذين يعلمون و الّذين لا يعلمون؟»[١]، فإنّ مدلولها يتجلّى في السؤال هل يستوى من له علم و من لا علم له؟

---

١. الزّمر، ٩.

هذا الحذف للمفعول جعل الفعل المتعدّي «يعلمون» كاللّازم، و اتّسع بعد ئذما يمكن أن يدلّ عليه، و يصحّ المعنى لو قلنا: «هل يستوي الّذين يعلمون علوم الدّين، أو علوم الفلك، أو الحساب، أو علم النّفس أو السّباحة، أو فنّ الصّيد أو... إلى آخر ما هنالك من أمور في الحياة، مع الذين لا يعلمونها؟»

لقد اتسع مدلول «يعلمون» حين حذف مفعوله اتّساعاً كبيراً.

و مثله حين تقول: فلان يعطي و يمنع، و يضرّ و ينفع، و يصل و يقطع حذفت المفاعيل المخصوصة المحدودة المعنى، و راح الفعل قابلاً تفسيره كلّ معنى، أو كاللازم.

حذف المفعول

إذا كان المفعول مخصوصاً فإنّه يحذف لدواع، منها:

١. التّبيين بعد الإبهام. و يكون ذلك بعد فعل المشيئة غير المعداة إلى شيء إذا سبقت بأداة شرط، على أن يكون المفعول عامّاً لا خاصاً، نحو: «لو شاء الله لجمعهم على الهدى»[١]، و التّقدير: لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم. و مثله قولك: لو شئت قمت، التقدير: لو شئت القيام لقمت.

تفسير ذلك أنّك حين قلت: «لو شئت» علم السّامع أنّك علّقت المشيئة بشيء، فيقع في نفسه أنّ هناك شيئا تعلّقت به مشيئتك بأن يكون أولا يكون، فإذا قلت «قمت» عرف ذلك الشيء. و هذا معنى «البيان بعد الإبهام».

٢. دفع توهّم غير المراد. قال البحتري:

و كم ذُدتَ عنّي من تحامل حادث   و سَوْرةِ أيّام حَزَزْن إلى العظم

لو ذكر الشّاعر مفعول الفعل «حززن»، و قال: «حَزَزْن اللحم» لتوهّم السّامع أنّ الحزّ لم يكن أليما عنيفاً كما أراده الشّاعر، فدفع عن سامعه هذا التّوهّم فحذف المفعول و صوّر له أنّ الحزّ مضى في اللحم حتّى لم يردّه إلّا العظم.

٣. التّأدّب في الحديث. قال البحتري:

قد طلبنا، فلم نجدلك في السؤ   دَدِ و المجد و المكارم مثلا

أصل البيت: قد طلبنا لك مثلا و شبيهاً في السّوددِ و المجد و المكارم فلم نجد مَن يماثلك.

---

١. الأنعام، ٣٥.

لقد حذف مفعول «طلبنا» و لم يحذف مفعول «لم نجد» فلماذا؟

و يعلم أنّ البحتري كان في غاية التّهذيب في هذا الحذف للفعل «قد طلبنا»، و في الذّكر لفعل «لم نجد». و السّبب أنّه من العيب أن يقال الملك، أو وزير، أو أمير، أو ممدوح، أو حبيب: قد طلبنا لك مثلا فلم نجد، لأنّ الازماع على طلب مثيل، و التّصريح بهذا الطلب معيب جدّاً.

٤. التّعميم مع الاختصار. مثل ذلك لو قلت لصاحبك الّذي آلمك بقوله و بفعله: «قد كان منك ما يؤلم»، فأنت حذفت مفعول «يؤلم» مريدا التّعميم في المعنى و الشّمول، فكأنّك قصدت: قد كان منك ما يؤلمني، يؤلم كلّ إنسان.

تقديم المفعول على الفعل

الأصل في المفاعيل، و الحال، و التّميز أن تلي فعلها لأنّها تابعة له، و متعلّقة به، و لا تتقدّمه إلّا لغاية فنيّة، و غرض معنويّ. و من هذه الأغراض:

١. ردّ الخطأ في التّعيين. تقول: «زيداً عرفت» لمن اعتقد أنّك عرفت إنسانا، و أنّه غير زيد. فتقديم «زيداً» ثبّت المرئيّ، و نفى توهّم سواه.

فاذا أردت توكيدا أكثر فقل: «زيداً عرفتُ لا غيره» و نحبّ أن نوضح نكتة في هذا الموضوع تتلخص في أنّ تقديم المفعول أفاد إثباتاً و نفياً في آن واحد، إثباتاً لرؤية زيد، و نفياً لرؤية سواه.

فإذا قال قائل: ما زيداً رأيت و لا غيره، بطل كلامه، لأنّه وقع في التّناقض، إذ نفى رؤية زيد نفياً مؤكّدا ـ بطريق تقديم المفعول ـ و أثبت في الوقت ذاته أنّ الرؤية كانت لغير زيد، و ذلك في مطلع الكلام ـ ما زيداً رأيت ـ و التّناقض كان في قوله «و لا غيره» أذ كيف يثبت رؤية غير زيد في أوّل الكلام، و ينفيه في آخره؟ لقد سبق مثل هذا البيان عند قولنا: «ما أنا قلت هذا و لا غيري».

٢. إرادة التّخصيص. و التّخصيص ملازم للتقديم أبداً.

تقول متوجّهين إلى الله ـ سبحانه ـ: «إيّاك نعبد و إيّاك نستعين» بمعنى نخصّك يا ربّنا بالعبادة و الإستعانة، لا نعبد سواك و لا نستعين بغيرك ، و مثل هذا: «إلى الله ترجعون، إلى الله المصير».[1]

---

١. البلاغة العربيّة...؛ ج ١، ص ١٦٣ـ١٧١.

و أمّا تقديم معمولات أخرى فيكون اختلاف التّرتيب (أي التّقديم و التأخير) إمّا لأمر معنويّ، نحو: «و جاء من أقصي المدينة رجل يسعى»، فلو قيل: «و جاء رجل من أقصي المدينة» توهّم أنّ المجرور متعلّق في المعنى برجل، أي رجل هو من أقصى المدينة، و الحال أنّ المراد تعلّقه بفعل المجيئ و إمّا لأمر لفظيّ، نحو: «و لقد جاءهم من ربّهم الهدى»، فلو قيل: «و لقد جاءهم الهدى من ربّهم» لاختلفت فواصل الآيات، لأنّ قبل هذه الآية كذا: «أفرأيتم اللّات و العُزّى و مناة الثالثه الأخرى...».

و إمّا للأهمّيّة، نحو: «قتل الخارجيّ فلان» فذكر المفعول أهمّ فإنّ الإعلام بقتل الخارجي أهمّ عند أهل البلد من تعريفهم بالقاتل.

و قد يتقدّم بعض الفضلات على بعض، إمّا لاصالة له في التّقدّم لفظاً، نحو: حسبت زيداكريما، فإنّ زيداً و إن كان مفعولاً في الحال لكنّه مبتدأ في الأصل.

أو معنى، نحو: أعطى زيد عمراً درهماً، فإنّ عمراً و إن كان مفعولاً بالنسبة إلى زيد لكنّه لا يخلو من معنى الفاعليّة بالنّسبة إلى الدرهم، لأنّه آخذ، و الدرهم مأخوذ.

و إمّا لإخلال في تأخيره ببيان المعنى، نحو: مررت راكباً بزيد، فلو أُخّرت الحال توهّم أنّها من المجرور و المراد كونها من الفاعل.

و اعلم أنّ التّقديم مطلقا قد يكون للاهتمام، أو التّبرك، أو الاستلذاذ، و نحو ذلك، و لم نتعرض لكلّ ذلك هنا اختصاراً، و لأنّه قد سبق الكلام، عليه في المسنداليه و المسند، فليراجع.

الأسئلة و التّمارين

١. عيّن المتقدّم من ركني الجملة أو من متعلّقات الفعل، و اذكر سبب تقدّمه:

ـ قال تعالى: «و له من في السّماوات و الأرض كلّ له قانتون».

ـ الدّنيا دارعناء، ليس لأحد فيها البقاء، و غدا تسرّ.

بأيّ لفظ تقول الشّعر زعنفة تجوز عندك لا عرب و لا عجم

ـ أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال: لا إله إلّا الله بقلبه خالصا.

ـ ألقت مقاليدها الدنيا إلى رجل مازال وقفاً عليه الجود و الكرم

قال تعالى: «إنّا نحن نُحيي و نميت و إلينا المصير».

ـ يساورني طولَ الدّجى و أساوره ملال و طرفي ساهد الليل ساهره

٢. كوّن أربع جمل تقدّم في أولاها «الخبر» ليفيد التّشويق إلى المبتدأ ـ و تقدّم في الثانية «المبتدأ» لتعجيل المسرّة ـ و في الثالثه «الحال» لأنّه موضع الإنكار ـ و في الرابعة «الظرف» لأنّه موضع العناية.

٣. اشرح معنى التّخصيص، و اذكر مواضع في باب التّقديم.

٤. أيّ أجزاء الجملة يفيد تقديمه التّلذّذ، أو التّعظيم؟

٥. ما هي متعلّقات الفعل؟ و ما أسباب تقديمها عليه؟

٦. كيف تشوق لكلّ من المبتدأ و الخبر؟ و متى يفيد المبتدأ التّعميم إذا قدمته و متى يدلّ على التّخصيص بالخبر؟

٧. ميّز المبتدأ الذي جرى في التّقديم على أصله من الّذي تقدّم زائداً؟

٨ . العبارات التّالية تقدّم فيها بعض أجزاء الكلام على بعض اذكر المتقدّم، و بيّن نوعه في كلّ عبارة:

ـ إثنان لا يستغني عنهما إنسان: العلم و المال.

ـ إليك على بعد المزار وصعبه ... نوازع شوق ما تردّ عوازبه

ـ قال تعالى: «فويل لهم ممّا كتبت أيديهم و ويل لهم ممّا يكسبون».

ـ قبيح أن يحتاج الحارس إلى من يحرسه.

ـ قال تعالى: «كانوا قليلا من الليل ما يهجعون، و بالأسحارهم يستغفرون».

ـ إلى الله كلّ الأمر في الخلق كلّهم ... و ليس إلى المخلوق شيء من الأمر

٩. بيّن المتقدّم من ركني الجملة، و متعلقات الفعل، و سبب تقدّمه فيا يأتي:

ـ قال تعالى: «الله يبسط الرّزق لمن يشاء و يقدر».

ـ منهومان لا يشبعان: طالب علم و طالب مال.

ـ كتب ابن المعتزّ لأحد خلانه: قلبي نَجِيّ ذكرك و لساني خادم شكرك.

ـ كلّ حيّ و إن أقام كنوح ... في أمان من الرّدى سوف يفني

ـ أنشا يزق أثوابي يؤدّبني ... أ بعد شيبي يبغي عندي الأدبا؟

ـ أنا أكرمتك و في منزلي آويتك.

ـ لك عندي و عند صحبي أياد ... سوف تبق و كلّ شيء سيفنى

ـ فمثل علاك لم أر في المعالي ... و لا تاجا كتاجك في الجلال

بَناهَا فأعلى و القَنا يقرع القَنا ... و موج المنايا حولها متلاطم

قال تعالى: فَلِلّٰهِ الآخرةُ و الأولى.

٦. القصر

القصر لغة: الحبس، قال تعالى: «حور مقصورات في الخيام»[١]، أي محبوسات فيها. و اصطلاحاً، هو: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، نحو: «لا رازق إلّا الله» فالشيء الأوّل هو المقصور، و الثّاني هو المقصور عليه، و الطّريق المخصوص لذلك، «طريق القصر».

قبل الخوض في هذا المبحث نودّ أن نسلّط الضّوء على ما يصطلح في هذا الباب تسهيلا للطّالب، فنقول:

معنى كلمتي «المقصور» و «المقصور عليه».

ذكرنا تعريف القصر و قلنا: إنّه تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوصة ثمّ بيّنّا أنّ الشيء الأوّل هو المقصور، و الثاني، هو المقصور عليه.

بيان ذلك: لو قلنا: «لا فتى إلّا عليّ» نكون قصرنا صفة «الفتوّة» على شخص «عليّ» وحده، دون سواه من العالمين. فكلمة «لا فتى» هي «المقصور» و شخص «عليّ» هو «المقصور عليه».

و قد وصلنا إلى هذا التّخصيص و الحصر بطريق نفي الفتوّة عن كلّ إنسان، و إثباتها لعليّ وحده، و هذا ما عَنَوْه بقولهم: «بطريق مخصوصة».

و إذا قلنا: «لا خالق إلّا الله» نكون قصرنا صفة «الخلق» على «الله» وحده.

فكلمة «لا خالق» هي «المقصور» و كلمة «الله» هي «المقصور عليه». و قدتمّ القصر بطريق النّفي و الإثبات.

و إذا قلنا: «إنّما أنت المُرَجَّى للشّدائد» نكون قصرنا المخاطب الممدوح «أنت» على «موطن الرّجاء و الأمل وقت الشّدائد».

فكلمة «أنت» مقصور و «المرَجّى للشّدائد» مقصور عليه. و قدتمّ القصر بطريق الأداة «إنّما».

معنى كلمتي: «الصّفة» و «الموصوف» في القصر.

تتردّد في بحث القصر كلمتان: صفة و موصوف، فيقال: «قصر صفة على موصوف» و «قصر موصوف على صفة» و من الواجب فهم المقصود منهما قبل تفصيل الموضوع.

«الصّفة» في القصر غير «النّعت» في علم النّحو، فإذا قلنا: «جاء الصّيف» نكون

---

١. الرحمن، ٧٢.

وصفنا «الصيف» بالمجيئ، «فالصّيف» موصوف، و جاء «صفة».

و إذا قلنا: «السّماء صافية»، نكون وصفنا «السّماء» بالصّفاء، «فالسّماء»: موصوفة، و «صافية» صفة.

و إذا قلنا: «لكلّ مقال مقام» نكون وصفنا «كلّ مقال» باختصاص «مقام»، فـ«لكلّ مقال» موصوف و «المقام» صفة.

في المثال الأوّل، قلنا عن الفعل «جاء» صفة، و في الثّاني قلنا عن الخبر «صافية» صفة، و في الثالث قلنا عن المبتدأ المؤخّر «مقام» صفة؛ و في هذا خلاف البلاغة عن النّحو.

فالمراد بالصّفة هنا ما يقابل الذّات، و هو المعنى الّذي يقوم بغيره، سواء دلّ عليه بالوصف، كـ«كاتب» في قولك: ما زيد إلّا كاتب، أو دلّ عليه بغير الوصف كالفعل في قولك ما زيد إلّا يكتب.

و المراد بالموصوف هنا: كلّ ما يقوم به غيره، و الغالب أن يكون دالّا على ذات كما في الأمثلة السابقة.

فالنّسبة بين الصّفة المعنويّة (هنا) و بين النحويّة عموم و خصوص من وجه، لتصادقهما في نحو: أعجبتني هذه التّضحية، و انفراد الصفة المعنويّة في نحو: «جاء الصّيف»، و انفراد النحويّة في مثل: «أحسِنْ بهذا الرّجل».

معنى كلمتي: «قصر حقيق» و «قصر إضافي».

القصر الحقيقيّ، ما اختص فيه المقصور بالمقصور عليه، بحيث لا يتجاوزه إلى غيره أصلا، على وجه الحقيقة، أو على وجه الادّعاء ـ المبالغة ـ.

لِنعُدْ إلى المثال السّابق: «لا خالق إلّا الله» لقد قصرنا صفة «الخلق» على «الله» وحده، و هو قصر حقيقيّ، إذ ليس في الوجود أحد يستطيع أن يخلق.

و لو قلنا: «ما زيدٌ إلّا كاتب» فإنّا قصرنا شخص «زيد» على صفة الكتابة، و نفينا عنه كلّ صفة أخرى سواها.

بعبارة أخرى: حصرنا زيداً بصفة واحدة في الدّنيا، لا يتّصف بغيرها، و هي صفة الكتابة، أي ليس شاعراً و لا رجلاً و لا آكلاً، و لا شارباً، و لا ....

هذا القصر هو قصر موصوف على صفة، و هذا النوع يكاد يكون مستحيلا.

أمّا إذا قلنا: لا فتى إلّا عليّ، فهو قصر صفة على موصوف.

فقد يكون في البلد رجال، فيهم شجاعة، و فيهم فتوّة، ولكنّهم لا يُعدّون شيئاً بجانب

شجاعة عليّ و فتوّته، نكون قد تجاهلنا وجودهم و حصرنا الشجاعة و الفتوّة في عليّ حقيقيّا على سبيل المبالغة، أو الادّعاء.

القصر الإضافي، هو تخصيص المقصور بالمقصور عليه بالنّسبة إلى شيء معيّن، بمعنى أنّه لا يتجاوزه إلى بعض ملحوظ لا إلى جميع ماعدا المقصور عليه، و يسمّى هذا القسم «القصر المجازي» أيضا.

فإذا قلنا: إنّما أنت شاعر، فغرضنا تخصيص المخاطب بصفة الشّاعريّة، و قصره عليها، فلا يتعداها إلى النّثر، أو الخطابة أو الفنون الأدبيّة الأخرى.

و إذا قلت: ما مسافر إلّا خليل، فإنّك تقصد قصر السّفر عليه بالنسبة لشخص غيره، كزيد مثلا، و ليس قصدك أنّه لا يوجد مسافر سواه إذ الواقع يشهد ببطلانه، فالقصر الإضافي يكون دائما بالنسبة إلى شيء معيّن.

القصر الإضافي باعتبار اعتقاد المخاطب. هذا اللون من القصر الإضافي يتدخل فيه العقل، و الذّكاء و النّباهة، و دراسة نفسيّة المخاطب، و فهم الجوّ الّذي يلُفّ تفكيره، و المحيط الّذي يعيش فيه ليكون الكلام وفق مقتضى الحال.

من هذه المنطلقات نتقدم إلى تقسيم القصر ـ منظوراً فيه إلى حال المخاطب ـ فنجده ثلاثة أقسام:

١) قصر إفراد، ٢) قصر قلب، ٣) قصر تعيين.

١. قصر الإفراد. يُخاطَب به من يعتقد الاشتراك

قد يعتقد المخاطب أنّ زيدا و عمراً ارتكبا معاً جريمةً و أردت أن تنفي اشتراكهما في هذه الجريمة، و تقصرها على زيد وحدَه، فتقول: ما المجرم إلّا زيد، فتكون قد أفردت زيداً، و قطعت عن مخاطَبِكَ فكرة الاشتراك مع عمرو، فهذا اللون هو المسمّى: «قصر إفراد».

مثال آخر: قد يعتقد مخاطبك بأنّك طالب في النّهار و عازفٌ في اللّيل، و تريد أن تنفي من ذهنه هذه الازدواجيّة في العمل: طلب العلم في النّهار، و العزف في الملاهي في اللّيالي. فتقول له: ما أنا إلّا طالب علم. هذه الجملة، فيها قصرإضافيّ: قصر الموصوف على صفة، و هي قصر إفراد لأنّها نفت فيه الشّركة مع العزف.

٢. قصر القلب. يُخاطَب به من يعتقد العكس

قد يظنّك أحد النّاس تاجراً، و أنت في الحقيقة طالبٌ، و تريد أن تقلب له مفهومه، فتقول له: إنّما أنا طالب، أي لا تاجر. قصرتَ نفسك على صفة الطّالب، قصراً إضافياً، من نوع القلب ـ

لأنّ المخاطب يعتقد العكس.

و قد يظنّ أنّك عدوّ، فتقول له: ما أنا إلّا صديق فهذا «قصر القلب».

و قد يظنّ أنّ الشّاعر سعيدٌ، فتدلّه على أنّه خليل، فتقول: ما الشّاعر إلّا خليل.

إذن «قصر القلب» من الإضافي، و فيه يقصد إفهام المخاطب عكس ما يعتقد عن طريق أسلوب القصر.

٣. قصر التّعيين. يُخاطب به من يشكّ أو يتردّد

تقول لشخص يشكّ في اسم النّاجح: أ هو سعيد أم منصور؟ إنّما الناجح سعيد، و يتردّد شخص في زيد، هل هو مسافر أو مقيم، فتقول له: ما زيد إلّا مقيم.

أ رأيت إلى هذا اللّون من التّقسيم إلى إفراد و قلب و تعيين؟ إنّ الحكم فيه يعتمد على فهمك حالة المخاطب الخارجيّة أو النفسيّة. ففي هذه الحالة تخاطبه بأسلوب القصر، و في كلّ لون من هذه الألوان تكون بين أمرين: فتنفي أحدهما، أو تعكسه، أو تختاره.

طرق القصر

و اعلم أن القصر تتحقّق بأسباب تسمّى طرق القصر، و هي كثيرة، أهمّها أربعة:

١) النّفي و الاستثناء، ٢) إنّما، ٣) العطف، ٤) التّقديم.

١. النفي و الاستثناء. قال تعالى: «و ما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل»[١].

في قصر الموصوف على الصفة. و كقول عنترة:

و لاعاش إلّا من يصاحب فتية   غطاريف، لايعنيهم النّحس و السّعد

في قصر الصفة على الموصوف. و أيضا: ما سعدي إلّا شاعر و ما كاتب إلّا ابن العميد.

إذن سواء أكان القصر قصر موصوف على صفة ـ كما في المثال الأوّل ـ أم قصر صفة على موصوف ـ كما في المثال الثاني ـ فإنّ المتقدّم هو المقصور، و ما بعد «إلّا» هو المقصور عليه دائما.

و ليس النّفي و الاستثناء يختصان بأداة معيّنة دون أخرى، بل يعمّ النّفي أيّ أداة تفيد معنى النّفي، مثل: «ليس» و «إن» و «لا»، و ما إلى ذلك، كما يشمل الاستثناء أيضا: «إلّا» و أخواتها.

---

١. آل عمران، ١٤٤.

فالمقصور عليه فيها يتأخر عن المقصور و يقع بعد «إلّا» بلافصل ـ كما سبق ـ

٢. إنّما. و هي تأتي إثباتا لما يذكر بعدها، و نفياً لما سواه، نحو: إنّما الحكيم ابن سينا، و إنّما الرّازي طبيب. فتستعمل لقصر الصّفة على الموصوف، كقوله تعالى: «إنّما تُنذِر مَن اتّبع الذّكرَ و خشِيَ الرحمٰنَ بالغيب»[1]، و قولهم: إنّما يعجّل من يخشى الفوت.

و لقصر الموصوف على الصّفة، كقوله تعالى: «إنّما أنت منذر من يخشاها»[2]. و المقصور عليه فيها يأتي دائما في نهاية الجملة.

٣. العطف. و يكون العطف بحروف تقتضي ثبوت ضدّ حكم ما قبلها لما بعدها، و هي: «لا»، و «بل»، و «لكن».

أمّا «لا» فمثل: الفخر بالعلم لا بالمال، العالِمُ زيدٌ لا بكرٌ. و المقصور عليه في «لا» يقع قبلها، معطوفاً[3] عليه، فيكون دائما مقابلا لما يجيء بعد «لا» معطوفا، ففي المثال الأوّل «العلم» هو المقصور عليه، و «الفخر» هو المقصور.

و أما «بل» و «لكن» فمثل: ما الفخر بالمال، بل بالعلم ـ ما الفخر بالنسب لكن بالتّقوى. و المقصور عليه فيهما بعدهما معطوفاً، ففي المثال الأوّل «العلم» هو المقصور عليه كما أنّ المقصور هو «الفخر» أيضا.

٤. التّقديم. و نعني بالتقديم: تقديم ما حقّه التّأخير، و قد سبق أنّ التّقديم يفيد التخصيص، و ذكرنا القصر بأنّه: تخصيص شيء بشيء، ففي مثل: «إيّاك نعبد...» و «على الله توكّلت» و راكبا جئت و عربيّ أنا؛ يوجد القصر، و يأتي المقصور عليه دائما مقدّما.

و اعلم أنّ للقصر وسائل خارجة عن هذه الأدوات تدلّ عليها الجملة، كقولك: زارني محمد وحده ـ و جاء خالد لا غير ـ و وصل زيد فقط ـ و اختصّ محمد بالكتابة ـ و الشعر مقصور على السعدي، و هكذا. و نحن لا نعدّ هذه من طرق القصر الاصطلاحيّة[4].

الأسئلة و التّمارين

١. ما هو القصر لغة و اصطلاحاً؟ كم قسماً للقصر؟ ما هو القصر الحقيقيّ؟ ما هو القصر

---

١. يس، ١١. ٢. النازعات، ٤٥.

٣. و قدسها في ذلك مؤلّف البلاغة العربيّة؛ راجع: ج ١، ص ١٨٢.

٤. جواهر البلاغة؛ ص ١٧٩ـ١٩٠ و البلاغة العربية...؛ ج ١، ص ١٧٥ـ١٨٤ و دراسة و نقد...؛ ص ١٤٦ ـ ١٦١.

الإضافي؟ كم قسماً للقصر الإضافي؟ ما مثال قصر الصّفة على الموصوف من الحقيقي؟ ما مثال قصر الصّفة على الموصوف من الإضافي؟ ما مثال قصر الموصوف على الصّفة من الحقيقي و الإضافي؟ على من يُرَدّ بقصر الإفراد؟ على من يرد بقصر القلب أو التّعيين؟ ما هي طرق القصر المصطلح عليها في هذا الباب؟ لماذا يجب تأخير المقصور عليه مع إنّما؟ متى يجب تأخير المقصور عليه؟ أيمكن وقوع القصر بين الفعل و معمولاته؟

٢. بيّن نوع القصر و عيّن كلّاً من المقصور و المقصور عليه فيما يأتي:

قال لَبِيد:

و ما المرء إلّا كالهِلال و ضوئه ... يوافي تمام الشهر ثمّ يغيب

و قال ابن الرّومي:

أمواله في رقاب النّاس من مِنَنٍ ... لا في الخزائن من عين و من نشب

و قال:

و ما عجبنا و إن أصبحتَ تُعجبُنا ... أن تُجتَني ذَهباً من موضع الذهب

لكن عَجبنا لعرف لا نكافئهُ ... و نستزيدُك منه أكثر العجب

و قال الشّاعر:

إلى الله أشكو لا إلى النّاس أنّني ... أرى الأرضَ تبقى و الأخلّاء تذهب

٣. هات جملتين لقصر الصّفة على الموصوف بحيث يكون في الأولى حقيقيّاً و في الثانية إضافيّاً.

٤. هات جملتين لقصر الموصوف على الصّفة بحيث يكون القصر فيهما إضافيّا.

٥. مثل لكلّ طريق من طرق القصر بمثالين يكون القصر عليه في أوّلها صفة، و في ثانيها موصوفاً.

٦. هات مثالين لقصر الموصوف على الصّفة بحيث يكون طريق القصر في أولهما العطف ببل، وفي ثانيها العطف بلكن.

٧. اجعل الجمل الآتية مفيدة للقصر، ثمّ بيّن نوع القصر و طريقه:

الفراغ مفسدة ـ بركة المال في أداء الزّكاة ـ السّلامة في التّأنّي ـ صداقة الجاهل تعب ـ طول التّجارب زيادة في العقل ـ يدوم السّرور برؤية الإخوان ـ غَدرَك من دلّك على الإساءة ـ يسود المرء قومه بالإحسان إليهم.

٨. ما يسُرُّ الوالدين إلّا نجابةُ الأبناء.

متى يكون القصر في هذه الجملة قصر قلب؟ و متى يكون قصر إفراد؟ و متى يكون قصر تعيين؟.

٩. بيّن نوع القصر و طريقه، و عيّن كلّاً من المقصور و المقصور عليه فيما يأتي:

قال تعالى: «إنّما عليك البلاغ و علينا الحساب»

قال ابن الرومي:

معروفُه في جميع النّاس مُقتَسَم ... فحمده في جميع النّاس لا العُصَب

و قال:

يهتزّ عِطفاه عند الحمد يسمعه ... من هزّة المجد لا مِن هزّة الطرب.

قال:

و ما قلت إلّا الحقَّ فيك و لم تزل ... على منهج من سُنّة المجد لاحِب

قال ابن المعتزّ:

ألا إنّما الدّنيا بلاغ لغاية ... فإمّا إلى غيٍّ و إمّا إلى رُشد

و قال:

و ما العيش إلّا مدّةٌ سوف تنقضي ... و ما المالُ إلّا هالكٌ و ابن هالك

قال أبو الطّيب:

برجاء جودك يطرد الفقرُ ... و بأنْ تُعادَى ينفَدُ العُمرُ

و قال:

ليس التّعجّبُ من مواهب ماله ... بل من سلامتها إلى أوقاتها

قال تعالى:

«و ما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت و إليه أنيب».

قال الشّاعر:

إلى الله أشكو أنّ في النفس حاجةً ... تمرّ بها الأيّام و هي كما هيا

قال أبو الطيّب:

راحل أنت و اللّيالي نزول ... و مضرٌّ بك البقاء الطّويل

قال ابن الرومي:

و ما يريغون بالنُّعمى مُكافأةً ... لكن يُقضُّونَ ما للمَجدِ من أرَب

١٠. أيّ الجملتين أبلغ في مدح سعيد؟ وضّح السبب؟

أ) إنّما يجيد الخطابة سعيد. ب) إنّما سعيد يجيد الخطابةَ.

١١. عيّن كلّ ما يتعلّق بالقصر فيما يأتي:

قال الشّاعر:

ألا إنّ خـــير الودّ ودّ تـــطوعت   بـه النّـفس لا ودّ أتى و هـو متعب

قال المتنبي:

و الظّـلم مـن شيم النـفوس فـإن تجد   ذا عـــفّة فـــلعلّةٍ لا يـــظلم

قال الطغرائي:

و إنّمـــا رجـــل الدّنـــيا و واحـــدها   مـــن لا يـــعوّل في الدّنـيا عـلى رجـل

قال الغزي:

إنّمــــا هـــذه الحـــياة مـــتاع   و السّــفيه الغــبيّ مــن يـصطفيها

مـا مـضى فـات، و المـؤمّل غـيب   و لك السّــاعة الّـــتي أنت فـــيها

قال مهيار:

و مـا الحــرص إلّا فـضلة لو نـبذتها   لمـا فـاتك الرّزق الّــذي أنت آكــله

قال أبو فراس:

إذا الخـــلّ لم يــهجرك إلّا مــلالة   فـــليس له إلّا الفـــراق عـــتاب

٧. الوصل و الفصل

سئل بعض البلغاء، ما هي البلاغة، قال: معرفة الفصل و الوصل!

الوصل عطف جملة على أخرى بالواو، و الفصل تركه.

و اعلم أنّه إذا توالت الجملتان، لا يخلو الحال من أن يكون للأولى محلّ من الإعراب أولا. و إن كان لها محلّ من الإعراب فلا بدّ من أن يقصد تشريك الثانية لها في حكم الإعراب، أولا، فإنْ قصد التّشريك عطفت الثانية عليها، نحو: «الله يحيي و يميت»، و إلّا فصلت عنها، نحو: «قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون ـ الله يستهزئ بهم».

لم يعطف قوله «الله يستهزئ بهم» على ما قبله لئلّا يشاركه في حكم المفعوليّة للقول، و هو ليس ممّا قالوا ـ كما سيأتي ـ.

و إن لم يكن لها محلّ من الإعراب، فإن كان لها حكم لم يقصد إعطاؤه للثانية، وجب الفصل، دفعا للتشريك بينهما، نحو: «إنّما أنت منذر و لكلّ قوم هاد، الله يعلم ما تحمل كلّ شيء».

لم يعطف قوله: «الله يعلم» على ما قبله لئلّا يشاركه في حكم القصر، فيكون ـ تعالى ـ مقصوراً على هذا العلم.

و إن لم يكن لها ذلك الحكم، نحو: زيد خطيب و عمرو فقيه، أو قصد إعطاء حكمها للثانية، نحو: إنّما زيد كاتب و عمرو شاعر، وجب الوصل ـ كما رأيت ـ ما لم تكن إحدى الجملتين مطلقا منقطعة عن الأخرى انقطاعاً كاملا بحيث لا يصلح ارتباطهما، أو متصلة بها اتصالا كاملا بحيث لا تصحّ المغايرة بينهما. فيجب الفصل لتعذّر ارتباط المنفصلتين بالعطف و عدم افتقار المتصلتين إلى ارتباط به، و يحمل شبه كلّ واحد من الكمالين عليه فيعطى حكمه ـ و سيأتي توضيح ذلك في أثناء الكلام ـ.

و هنا نحبّ أن نقف وقفة نبيّن فيها موقف العطف في هذا الباب، و هو: أنّ الوصل يجيء بالواو دون بقيّة أحرف العطف، لأنّها تدلّ على مطلق الجمع، و لذا قد تخفى الحاجة إليها، فلايدركها إلّا من أوتي حظّا من حسن الذّوق أمّا غيرها من حروف العطف فتفيد مع الجمع معان زائدة كالترتيب مع التّعقيب ـ مثلا ـ في الفاء، و أخواتها الّتي إذا عطف بواحد منها ظهرت الفائدة، و لا يقع اشتباه في استعماله، كما أنّ بعض أحرف العطف لا تدلّ على الجمع أصلا.

و اشترط في العطف بالواو أن يكون بين الجملتين «جامع» كالموافقة في نحو: «يقرأ و

يكتب»، و كالمضادّة و شبهها في نحو: «يضحك و يبكي»، و إنّما كانت المضادّة في حكم الموافقة، لأنّ الذّهن يتصوّر أحد الضّدين عند تصوّر الآخر فالعلم يخطر على البال عند ذكر الجهل كما تخطر الكتابة عند ذكر القراءة.

مواضع الوصل

قد سبق أنّ الوصل عطف جملة على أخرى «بالواو»، و يقع ذلك في ثلاثة مواضع:

الأوّل: إذا اتّحدت الجملتان في الخبريّة و الإنشائيّة لفظاً و معنى، أو معنى فقط، و لم يكن هناك سبب يقتضى الفصل بينهما، و كانت بينهما مناسبة تامّة في المعنى.

فمثال الخبريّتين، قوله تعالى: «إنّ الأبرار لفي نعيم و إنّ الفجّار لفي جحيم» في هذه الكريمة جملتان خبريتان وصلت الثانية بالأولى لأنّ بين الجملتين تناسبا فى الفكر. فإذا جرى في الذّهن حال الأبرار تصوّر حال الفجّار.

و مثال الإنشائيّتين، قوله تعالى: «فادع و استقم كما أمرت»، و قوله أيضا: «و اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا» وَصَل جملة «و لا تشركوا» بجملة «و اعبدوا» لاتّحادهما في الإنشاء، و لأنّ المطلوب بهما ممّا يجب على الإنسان أن يؤدّيه لخالقه، و يختصّه به.

و مثال المختلفتين، قوله سبحانه: «إنّي أُشهد الله و اشهدوا أنّي بريءٌ ممّا تشركون»، أي: إنّي أشهد الله و أُشهدكم، فتكون الجملة الثّانية في هذه الآية إنشائيّة لفظاً، ولكنّها خبريّة في المعنى. و نحو: اذهب إلى فلان، و تقول له: كذا و كذ. فتكون الجملة الثانية من هذا المثال خبريّة لفظا، ولكنها إنشائيّة معنى، أي: «و قل له».

فالاختلاف في اللفظ، لا في المعنى المعوّل عليه و لهذا وجب الوصل. و عطف الجملة الثّانية على الأولى لوجود الجامع بينهما، و لم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما، و كلّ من الجملتين لا موضع له من الإعراب.

الثاني: إذ اختلفت الجملتان خبرا و إنشاء، و أوهم الفصل خلاف المقصود.

قد تسأل صديقك عن صحّة أخيه، فتقول له: هل شُفِيَ أخوك؟، فإذا قال لك: لا. عافاه الله. فهو مصيب من جهة القاعدة البلاغيّة الموجبة للفصل بين الجملتين إذا اختلفتا خبرا و إنشاءً، لأنّ «لا» تقوم مقام جملة خبريّة، «عافاه الله» جملة إنشائيّة للدّعاء. و هو مخطئ في التّعبير، بل في الذّوق كذلك، لأنّه قد يُفهم من جوابه الدّعاء على أخيه بعدم المعافاة، و طبيعيّ أنّه لا يقصد هذا، لذا وجب الوصل في هذا الموطن، و القول: لا و عافاه الله.

و قد يسألك صديق لك: ألك حاجة فأقضيها؟ فتقول له: لا و حفظك الله.

الثالث: إذا كان للجملة الأولى محلّ من الإعراب و قُصد تشريك الجمله الثانية لها في الإعراب حيث لا مانع، نحو: سعيدٌ يقول، و يفعل. فجملة «يقول» في محلّ رفع خبر المتبدأ، و كذلك «يفعل» معطوفة على جملة يقول، و تشاركها بأنّها في محلّ رفع خبرتان للمبتدأ، فاشتراك الجملتين في الحكم الإعرابيّ يوجب الوصل.

و حكم هذه الجملة حكم المفرد المقتضى مشاركة الثاني للأول في إعرابه.

و الأحسن أن تتفق الجملتان في الاسميّة و الفعليّة، و الفعليّتان في الماضويّة و المضارعيّة، أي: أن تعطف الاسميّة على مثلها، و كلّ من الماضويّة و المضارعيّة على مثلها، و كذا الاسميّتان في نوع المسند من حيث الإفراد، و الجملة، و الظرفيّة.

و لا يحسن العدول عن ذلك إلّا لأغراض، منها:

أ) حكاية الحال الماضية، و استحضار الصور الغريبة في الذهن كقوله تعالى: (إنّ الذين كفروا و يصدّون عن سبيل الله، ففريقا كذّبتم و فريقاً تقتلون».

ب) إفادة التّجدّد في إحداهما، و الثبوت في الأخرى، كقوله تعالى: «أجئتنا بالحقّ أم أنت من اللّاعبين» فقد لو حظ في الأوّل تعاطي الحقّ، و في الثانية الاستمرار على اللعب، و الثبات على حالة الصّبا.

مواضع الفصل

قد تتقارب الجمل في معناها تقارباً تامّاً، حتّى تكون الجملة الثانية كأنّها الجملة الأولى، و قد تنقطع الصّلة بينهما:

إمّا لاختلافهما في الصّورة، كأن تكون إحدى الجملتين إنشائيّة و الأخرى خبريّة.

و إمّا لتباعد معناهما، بحيث لا يكون بين المعنيين مناسبة، و في هذه الأحوال يجب الفصل في كلّ موضع من المواضع الخمسة الآتية، و هي:

الأوّل: أن يكون بين الجملتين اتّحاد تامّ و امتزاج معنويّ، حتى كأنّهما أفرِغا في قالب واحد، بحيث تنزل الثّانية من الأولى منزلة نفسها، و يسمّى ذلك «كمال الاتصال» و يقع في ثلاثة مواضع:

١. أن تكون الجملة الثانية بمنزلة البدل من الجملة الأولى، نحو: «أمدّكم بما تعلمون أمدّكم بأنعام و بنين»، هذا في بدل البعض، و أمّا في بدل الكلّ، فكقوله تعالى: «بل قالوا مثل

ما قالوا الأوّلون، أئذا متنا وكنّا ترابا و عظاما أئنّا لمبعوثون» فجملة «قالوا أئذا متنا و كنّا ترابا...»، كالبدل المطابق لـ«قالوا». و أمّا بدل الاشتمال كقول الشّاعر:

أقول له ارحل لا تقيمنّ عندنا و إلّا فكن في السّرّ و الجهر مسلما

فجملة «لا تقيمنّ» بمنزلة البدل من جملة «ارحل» بدل الاشتمال لأنّ بينهما مناسبة بغير الكليّة و الجزئيّة.

٢. بأن تكون الجملة الثانية بياناً لإبهام في الجملة الأولى، كقوله ـ سبحانه: «فوسوس إليه الشّيطان، قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد»، فجملة «قال يا آدم» بيان لما وسوس إليه.

٣. بأن تكون الجملة الثانية مؤكّدة للجملة الأولى، بما يشبه أن يكون توكيدا لفظيّاً أو معنويّاً، كقوله تعالى: «فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا».

الثاني: أن يكون بين الجملتين تباين تامّ، بدون إيهام خلاف المراد، و يسمّى ذلك «كمال الانقطاع»، ويقع في موضعين:

١. أن تختلف الجملتين خبرا و إنشاء، لفظا و معنى، أو معنى فقط، نحو: قال نصيرالدين الطوسي قدّس الله نفسه. و مثل: تكلّم، إنّي مصغ إليك. و كقول الشاعر:

و قال رائدهم أرسوا نزاولها فحتف كلّ امرئ يجري بمقدار

أي: أوقفو السفينة كي نباشر الحرب، و لا تخافوا من الموت، فإنّ لكلّ أجل كتاب، فالمانع من العطف في هذا الموضع أمر ذاتي لا يمكن دفعه أصلاً، و هو كون أحدهما جملة خبريّة، و الأخرى إنشائيّة، و لا جامع بينهما.

٢. أن لا تكون بين الجملتين مناسبة في المعنى، و لا ارتباط، بل كلّ منهما مستقلّ بنفسه، كقولك: سعيد كاتب الشجرة مثمرة، فإنّه لا مناسبة بين كتابة سعيد و إثمار الشجرة. و أيضا: إنّما المرء بأصغريه ـ كلّ امرئ رهن بمالديه.

فالمانع من العطف في هذا الموضع «أمر ذاتي» لا يمكن دفعه أصلا، و هو التّباين بين الجملتين، و لهذا وجب الفصل، و ترك العطف. لأنّ العطف يكون للرّبط، و لا ربط بين جملتين في شدّة التّباعد و كمال الانقطاع.

الثالث: أن تكون بين الجملتين رابطة قويّة، حيث تقع الثانية جوابا للأولى، فتفصل عنها كما يفصل الجواب عن السؤال و يسمّى ذلك «شبه كمال الاتّصال»، كقوله سبحانه «و ما أبرّئ نفسي إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء»، و كقول الشاعر:

زعم العوازل أنّني في غمرة صدقوا، ولكن غمرتي لا تنجلي

ففي الكريمة: الجملة الثانية شديد الارتباط بالجملة الأولى لأنّها جواب عن سؤال نشأ من الأولى: «لِمَ لا تبرّئ نفسك؟» فقال: «إنّ النفس...» فهذه الرّابطة القويّة بين الجملتين مانعة من العطف، فأشبهت حالة اتّحاد الجملتين، و بذلك ظهر الفرق بين كمال الاتصال و بين الموضع نفسه.

و أمّا الشعر، فكأنّه سُئل: أصدقوا في زعمهم أم كذبوا؟ فأجاب: صدقوا.

الرابع: أن تسبق جملة بجملتين يصحّ عطفها على الأولى لوجود المناسبة، ولكن في عطفها على الثّانية فساد في المعنى فيترك العطف بالمرّة، دفعا لتوهّم أنّها معطوفة على الثّانية، و يسمّى ذلك «شبه كمال الانقطاع» كقول الشّاعر:

و تظنّ سلمى أنّني أبغي بها بدلاً أراها في الضّلال تهيم

فجملة «أراها» يصحّ عطفها على جملة «تظنّ» لكن يمنع من هذا توهّم العطف على جملة «أبغي بها» فتكون الجملة الثالثة من مظنونات سلمى، مع أنّها غير المقصود، و لهذا امتنع العطف بتاتا و وجب أيضا الفصل.

و المانع من العطف في هذا الموضع «أمر خارجيّ احتماليّ» يمكن دفعه بمعونة قرينة، و من هذا و ممّا سبق يفهم الفرق بين كلّ من: «كمال الانقطاع» و «شبه كمال الانقطاع».

الخامس: أن تكون بين الجملتين رابطة قوية و تناسب شديد، لكن يمنع من العطف مانع، و هو عدم التّشريك في الحكم. و يسمّى ذلك «التوسّط بين الكمالين»، كقوله تعالى: «و إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون، الله يستهزئ بهم».

فجملة «الله يستهزئ بهم» لا يصحّ عطفها على جملة «إنّا معكم» لاقتضائه أنّه من مقول المنافقين، و الحال أنّها من مقوله ـ تعالى ـ «دعاء عليهم»، و لا يصحّ أيضا عطفها على جملة «قالوا» لئلّا يتوهّم مشاركتها في التّقييد بالظّرف، و أنّ استهزاء الله بهم مقيّد بحال خلوّهم إلى شياطينهم، و الواقع أنّ استهزاء الله بالمنافقين غير مقيّد بحال من الأحوال، و لهذا وجب الفصل.

تنبيهان

١. علم ممّا تقدّم أنّ من مواضع الوصل اتفاق الجملتين في الخبريّة و الإنشائية، و لا بدّ مع اتفاقهما من جهة بها يتجاذبان و أمر «جامع» به يتآخذان، و ذلك الجامع على ثلاثة أقسام:

أ) الجامع العقلي: و هو أمر بسببه يقتضي العقل اجتماع الجملتين في القوّة المفكرة كالاتّحاد في المسند، أو المسند إليه، أو في قيد من قيودهما، نحو: زيد: يضحك و يبكي. و يضحك زيد و عمرو. و زيد الكاتب شاعر، و عمرو الكاتب دبير. و زيد قائم و عمرو جالس. و كالتماثل و الاشتراك فيهما أو في قيد من قيودهما أيضا بحيث يكون التّماثل له نوع اختصاص بهما أو بالقيد لا مطلق تماثل، فنحو: زيد شاعر و عمرو كاتب لا يحسن إلّا إذا كان بينهما مناسبة، لها نوع اختصاص بهما، كصداقة أو أخوّة أو شركة أو نحو ذلك. و كالتضايف بينهما بحيث لا يتعقل أحدهما إلّا بالقياس إلى الآخر، كالأبوّة مع البنوّة، و العلّة مع المعلول، إلى غير ذلك.

ب) الجامع الوهميّ: و هو أمر بسببه يقتضي الوهم اجتماع الجملتين في المفكرة كشبه التّماثل الّذي بين نحو لوني البياض و الصفرة، فإنّ الوهم يبرزهما في معرض المثلين من جهة أنّه يسبق إليه أنّهما نوع واحد زائد في أحدهما عارض في الآخر بخلاف العقل فإنّه يدرك أنّهما نوعان متباينان داخلان تحت جنس واحد، هو اللّون. و كالتضاد بالذّات، و هو التّقابل بين أمرين وجوديّين بينهما غاية الخلاف يتعاقبان على أمر واحد، كالسّواد و البياض أو التّضاد بالعرض كالأسود و الأبيض لأنّهما ليسا ضدّين لذاتهما لعدم تعاقبهما على محل واحد، بل بواسطة ما يشتملان عليه من سواد و بياض.

ج) الجامع الخيالي، و هو أمر بسببه يقتضي الخيال اجتماع الجملتين في المفكرة، بأن يكون بينهما تقارن في الخيال سابق على العطف لتلازمهما في صناعة خاصة، أو عرف عام، كالقدوم و المنشار و المنقاب في خيال النجار، و القلم و الدواة و القرطاس في خيال الكاتب.

٢. لما كانت الحال تجيء جملة، و قد تقترن بالواو، و قد لا تقترن فأشبهت الوصل و الفصل، و لهذا يجب وصل الجملة الحاليّة بما قبلها بالواو إذا خلت من ضمير صاحبها، نحو: جاء سعيد و الشمس طالعة. و يجب فصلها في ثلاثة مواضع:

أ) إذا كان فعلها ماضياً تاليا «إلّا»، أو وقع ذلك الماضي قبل «أو» الّتي للتسوية، نحو: ما تكلّم سعيد إلّا قال خيراً، و كقول الشّاعر:

كن للخليل نصيراً جار أو عدلا و لا تشحّ عليه جاد أو بخلا

ب) إذا كان فعلها مضارعاً مثبتاً أو منفيّاً «بما، أو لا» نحو: «و جاؤوا أباهم عشاء يبكون» و نحو: «و ما لنا لا نؤمن بالله». قال الشّاعر:

عهدتك ما تصبو و فيك شبيبة فمالك بعد الشيب صبا متيّما

ج) إذا كانت جملة اسميّة واقعة بعد حرف عطف، أو كانت جملة اسميّة مؤكّدة لمضمون ما قبلها، كقوله تعالى: «فجاءها بأسنا بياتاً أوهم قائلون»، و كقوله أيضاً: «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين»[١].

الأسئلة و التّمارين

١. ما هو الوصل؟ ما هو الفصل؟ كم موضعاً للوصل؟ كم موضعا للفصل؟ ما هو الجامع؟ ما هو الجامع العقلي و الوهميّ و الخيالي؟ متى يجب وصل الجملة الحالية بما قبلها؟ في كم موضع يجب فصل الجملة الحالية؟

٢. بيّن مواضع الوصل و الفصل فيما يأتي، و وضّح السّبب في مثال:

قال أبو الطيب:

و ما الدّهر إلّا من رُواة قصائدي   إذا قلتُ شعراً أصبح الدّهر مُنشداً

قال أبو العلاء:

النّاسُ للنّاس من بدو و حاضرة   بعضٌ لبعض و إن لم يشعروا خَدَمٌ

قال تعالى:

«يدبّر الأمر يفصّل الآيات لعلّكم بلقاء ربّكم توقنون».

قال أبو العتاهية:

يا صاحب الدّنيا المحبُّ لها   أنت الّذي لا ينقضي تعبه

و قال آخر:

النّاس شتّى و إن عمّتهم صور   هي التّناسب بين الماء و الآل

قال أبو تمام:

ليس الحجاب بمُقصٍ عنك لي أملا   إنّ السّماء تُرجّى حين تحتجب

قال ابو العلاء:

و حبّ العيش أعبَدَ كُلّ حُرٍّ   و علّم ساغباً أكل المُرار

قال أبو الطيّب:

و للسّرّ منّي موضع لا يناله   نديم و لا يُفضِي إليه شراب

---

١. اقتباس من: جواهر البلاغة؛ ص ١٩٦ـ٢١٤ و من: عقد الجمان؛ ص ١٧١.

و قال:

يُشــمّرُ للُّـــجِّ عـــن ســاقه و يـــغمره المـــوج في السّــاحل

قال بعض الحكماء:

العبد حرّ إذا قنع، و الحرّ عبد إذا طمع.

قال ابن الرومي:

قـد يـسبق الخـير طـالب عـجل و يــرهق الشرّ ممــعناً هـربه

خطب الحجاج فقال:

اللهمّ أرني الغيّ غيّاً فأجتنبَهُ، و أرني الهُدى هدىً فأتّبعَهُ، و لا تكلني إلى نفسي فأضـلَّ ضلالاً بعيداً.

قال الشريف الرضيّ:

أعـلِمتَ مـن حـملوا عـلى الأعـواد أعلِمتَ كيف خَـبا ضِـياء النّـادي؟

قال حسان بن ثابت الأنصاري:

أصُـــونُ عـــرضِي بمـالي لا أدنّـسه لا بـارك الله بـعد العِـرض في المـال

أحـــتال للـــمال إن أودى فأكسِـبُه و لست للـعرض إن أودى بمُحتال

قال النابغة الذبياني:

حَسْب الخليلين نَأيُ الأرض بينهما هـذا عـليها و هـذا تحتها بـالي

قال الطّغرائي:

يـا وارداً سُـؤرَ عـيش كـلّه كـدر أنـفقتَ عُـمركَ في أيّـامك الأول

قال أبو الطيب:

أعزُّ مكـان في الدُّنـا سرج سـابح و خـير جـليس في الزّمـان كـتاب

و قال أيضاً:

العـين عـبري و النّـفوس صـوادي مات الحجا و قضى جـلال النـادي

قال عمارة اليمني:

و غَـــدر الفـتى في عـهده و وفـائه و غدر المـواضي في نُبُوِّ المـضارب

قال تعالى: «و إذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبرا كأن لم يسمعها، كأنّ في أذنيه وقراً».

٣. لِمَ يعيب النّاس العطف في الشطر الثّاني من أبي تمام:

لا و الّــذي هــو عـالم أنّ النوى صَـبِرٌ و أنّ أبـا الحســين كـريم

٤. لِمَ يحسن أن تقول: سعيد كاتب و زيد شاعر؟ و يقبح أن تقول: بكر مريض و خالد عالم؟.

٥. هات ثلاثة أمثلة للجمل المفصول بينها لـ «كمال الاتصال»، و استوف المواضع الثلاثة التي يظهر فيها هذا الكمال.

٦. هات مثالين للجمل المفصول بينها لـ «شبه كمال الاتصال».

٧. هات مثالين للجمل المفصول بينها لـ «شبه كمال الانقطاع».

٨. مثل بمثالين لكلّ موضع من مواضع الوصل.

٩. مثل بمثالين للجامع العقليّ و الوهميّ.

١٠. بيّن سرّ الفصل و الوصل فيما يلي:

أنت حميد الخصال تصنع المعروف و تغيث الملهوف ـ اصبر على كيد الحسود لا تضجره من مكائده ـ أشكر الله على السّراء ينجيك من الضّراء ـ إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ـ كفى بالشيب واعظا. صلاح الإنسان في حفظ الوداد.

قال بشار:

الشيب كره و كره أن يفارقني ... اعجب لشيء على البغضاء مودود

قال أبو نواس:

عليك باليأس من النّاس ... إنّ غِني نفسك في اليأس

قال الشاعر:

نفسي له نفسي الفداء لنفسه ... لكن بعض المالكين عفيف.

و قال آخر:

ألا من يشترى سهراً بنوم؟ ... سعيد من يبيت قرير عين

قال تعالى: «يدبّر الأمر يفصل الآيات».

٨. المساواة و الإيجاز و الإطناب

اللفظ الّذي يعبّر عن المراد قد يكون مساوياً لأصل ذلك المعنى، و قد يكون ناقصاً عنه، و قد يكون زائداً عليه، فالأوّل هو المساواة، و الثّاني هو الإيجاز، و الثالث هو الإطناب. فكلّ ما يخطر ببال المتكلّم من المعاني فله في التّعبير عنه بإحدى هذه الطّرق الثلاث: فتارة «يوجز»، و تارة «يسهب»، و تارة يأتي بالعبارة (بين بين).

و لا يعدّ الكلام في صورة من هذه الصور بليغا إلّا إذا كان مطابقا لمقتضى حال المخاطب، و يدعو إليه مواطن الخطاب. و هنا ثلاثة مباحث:

المساواة. و هي أن يكون اللّفظ مساوياً للمعنى المقصود من غير زيادة و لا نقصان، و إن شئت فقل: هي تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له بأن تكون الألفاظ على قدر المعاني، لايزيد بعضها على بعض، كقوله تعالى: «و ما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عنداللّه». فإنّ اللّفظ في هذه الكريمة على قدر المعنى لا ينقص عنه، و لا يزيد عليه. و كقول النبيّ (ص): «إنّما الأعمال بالنّيّات و لكلّ امرئ ما نوى»، و كقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيّام ما كنت جاهلاً و يأتيك بالأخبار من لم تزوّد

فنحن لا نستغني في هذه الأمثلة عن لفظ منها حيث لو حذف منها شيء لأخلّ بمعناها.

و الكلام الّذي ساوى لفظه معناه بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر ينقسم إلى قسمين:

١. الّذي تكون المساواة فيه مع رعاية الاختصار، و هو أن يتحرّى البليغ في تأدية المعنى أوجز ما يكون من الألفاظ القليلة الأحرف، الكثير المعاني، كقوله تعالى: «هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان»، و كقوله أيضا: «و لا يحيق المكر السّيّئ إلّا بأهله».

٢. و الذي تكون المساواة فيه بدون اختصار و يسمّى ذلك «متعارف الأوساط»، و هو تأدية المقصود من غير طلب للاختصار، فتارة يوجد الاختصار و قد لا يوجد، كقوله تعالى: «حور مقصورات في الخيام»، و الوجهان يعدان من البلاغة إلّا أنّ الأوّل أدخل فيها و أدلّ عليها.

الإيجاز. و هو تأدية المعنى الكثير باللفظ القليل مع الإبانة و الإيضاح، و إن شئت فقل: وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقلّ منها، وافية بالغرض المطلوب، مع الإبانة و الإفصاح، كقوله تعالى: «خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين».

فجمعت في هذه الكريمة مكارم الأخلاق بأسرها، فمعناها كثير و لفظها يسير. و كذا قوله: «ألا له الخلق و الأمر» هاتان الكلمتان أحاطتا بجميع الأشياء على غاية الاستقصاء،

حين أن يكون اللفظ أقلّ من المعهود عادة مع وفائه بالمراد. فإذا لم تف العبارة بالغرض سمّي «إخلالاً و حذفاً رديئاً» كقول اليشكري:

و العيش خير في ظلا ل النّوك ممّن عاش كدّاً

أراد الشّاعر: أن العيش النّاعم الرّغد في حال الحمق و الجهل خير من العيش الشّاقّ في حال العقل، لكن كلامه لا يعد صحيحاً مقبولاً.

و ينقسم الإيجاز إلى قسمين: إيجاز قصر، و إيجاز حذف.

١. إيجاز القصر. و هو ما تزيد فيه المعاني على الألفاظ، و لا يقدّر فيه محذوف. كقوله تعالى: «ولكم في القصاص حياة».

إذ الإنسان إذا علم أنّه متى قَتَلَ، قُتِلَ، امتنع عن القتل، و في ذلك حياته و حياة غيره، و بذلك تطول الأعمار، و تكثر الذرّيّة، و يقبل كلّ واحد على ما يعود عليه بالنّفع، و يتمّ النّظام، و يكثر العمران. فالقصاص، هو سبب ابتعاد الناس عن القتل، فهو الحافظ للحياة.

و هذا القسم مطمح نظر البلغاء، و به تتفاوت أقدارهم، حتّى أنّ بعضهم سئل عن البلاغة، فقال: هي «إيجاز القصر»، و قالوا فيه: «القليل الكافي خير من كثير غير شافي» و قالوا: «خير الكلام ما قلّ و دلّ» و من أجل ذلك، يسمّى: «إيجاز البلاغة» أيضا.

٢. إيجاز الحذف. و هو ما يحذف فيه شيء من العبارة بحيث لا يخلّ بالفهم، و يشترط أن يقوم دليل لفظيّ أو معنويّ على المحذوف.

و جدير بالذكر أنّ إيجاز الحذف يمكن أن يُحذف فيه حرف، أو اسم، أو فعل، أو جملة، أو أكثر من جملة:

أما الحرف، فمثل: «و لم أك بغيّاً» أي: و لم أكن. قال امرؤ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك و أوصالي

،أي: لا أبرح.

أمّا الاسم، فمثل: «و جاهدوا في الله حقّ جهاده»، أي: في سبيل الله.

أما الفعل، فنحو: «و لئن سئلتهم من خلق السّماوات و الأرض ليقولنّ الله» أي: خلقهنّ الله.

أمّا الجملة، فكقوله تعالى: «كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيّين» أي: فاختلفوا، فبعث. و نحو: «و إن أحد من المشركين استجارك فأجره» أي: إن استجارك....

و لقد رأينا كثيرا من شواهد هذا الإيجاز بالحذف في مختلف مباحث الكتاب، كان منها حين تحدّثنا عن حذف المسند إليه، و حذف المسند، و حذف المفعول، و ما إلى ذلك.

و دواعيه كثيرة، أهمّها: الاختصار، و تسهيل الضّبط و الحفظ، و تقريب الفهم، وضيق المقام، و إخفاء الأمر على غير المخاطب، و السآمة، و الضّجر، و تحصيل المعنى الكثير باللفظ القليل.

و يستحسن «الإيجاز» في: الاستعطاف، و شكوى الحال، و الاعتذار، و التّعزية، و العتاب، و الوعد، و الوعيد، و التّوبيخ، و الشّكر على النّعم، و ما إلى ذلك.

و مرجعك في إدراك أسرار البلاغة إلى الذّوق الأدبيّ، و الإحساس الرّوحي[١].

الإطناب. و هو زيادة اللّفظ على المعنى لفائدة، و إن شئت فقل: هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء، لفائدة تقويته و توكيده، نحو: «ربّ إنّي وهن العظم منّي و اشتعل الرأس شيباً»، أي: كبرت.

فإذا لم تكن في الزّيادة فائدة يسمّى «تطويلا» إن كانت الزيادة في الكلام غير متعيّنة، كقول عديّ العباديّ، في جذيمة الأبرش:

و قدّدت الأديم لراهشيه ... و ألفى قولها كذباً و ميناً

فالمين و الكذب بمعنى واحد، و لم يتعيّن الزائد منهما، لأنّ العطف بالواو لا يفيد ترتيباً و لا تعقيباً و لا معيّة، فلا يعتبر المعنى بإسقاط أيّهما شئت.

فإن كانت الزّيادة في الكلام متعيّنة، و لا يفسد المعنى يسمّى «حشواً»، كقول زُهير بن أبي سلمى:

و أعلم علم اليوم و الأمس قبله ... ولكنّني عن علم ما في غد عمي

فكلمة «قبله» زائدة، لأنّها معلومة من قوله أمس، ولكن ذكرها لا يضرّ بالمعنى.

و كلّ من «الحشو» و «التطويل» معيب في البيان، و كلاهما بمعزل عن مراتب البلاغة.

و اعلم أنّ دواعي الإطناب كثيرة، منها: تثبيت المعنى، و توضيح المراد، و التّوكيد، و دفع الإيهام، و إثارة الحميّة، و غير ذلك.

الإطناب ـ كما ذكره البلاغيّون ـ يأتي في الكلام على أنواع مختلفة، أهمّها:

١. ذكر الخاص بعد العام، كقوله تعالى: «حافظوا على الصلوات و الصّلاة الوسطى»، و فائدته التّنبيه على مزيّة، و فضل في الخاصّ حتّى كأنّه لفضله و رفعته جزء آخر مغاير لما قبله، لهذا خصّ الصلاة الوسطى (و هي العصر على قول) بالذّكر لزيادة فضلها.

---

١. اقتباس من: جواهر البلاغة: ص ٢٢٢ـ٢٢٤.

٢. ذكر العام بعد الخاص، كقوله: «ربّ اغفرلي و لوالديّ، ولمن دخل بيتي مؤمنا، وللمؤمنين و المؤمنات»، و فائدته شمول بقيّة الأفراد، و الاهتمام بالخاص لذكره ثانياً في عنوان عام، بعد ذكره اوّلا في عنوان خاصّ.

٣. الإيضاح بعد الإبهام، لتقرير المعنى في ذهن السّامع بذكره مرّتين، مرّة على سبيل الإبهام و الإجمال، و مرّة على سبيل التّفصيل و الايضاح، فيزيد ذلك نبلا و شرفا، نحو: «يا أيّها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله و رسوله و تجاهدون في سبيل الله بأموالكم و أنفسكم».

٤. التّوشيع، و هو أنّ يؤتى في آخر الكلام بمثنى مفسّر بمفردين ليرى المعنى في صورتين. تخرج فيهما من الخفاء المستوحش إلى الظهور المأنوس، نحو: العلم علمان، علم الأبدان و علم الأديان.

٥. التكرير، و هو ذكر الشيء مرّتين أو أكثر، لأغراض: كالتأكيد، أو الاستيعاب، أو زيادة التّرغيب، أو طول الفصل أو الترديد، أو التلذّذ بذكره، أو الإرشاد إلى الطريقة المثلى، فثال الاستيعاب: قرأت الكتاب باباً باباً، و فهمته كلمةً كلمةً. و مثال التّلذّذ بذكره، كقول الشّاعر:

سق الله نجدا و السلام على نجد   و ياحبّذا نجد على القرب و البعد

و من أراد الاطلاع على جميع ذلك فليراجع مظانّه.

٦. الإيغال، و هو ختم الكلام بما يفيد نكتة، يتمّ المعنى بدونها، كالمبالغة في قول الخنساء:

و إنّ صخرا لتأتمّ الهداة به   كأنّه علم في رأسه نار

فقولها: «كأنّه علم» واف بالمقصود، لكنّها أعقبته بقولها «في رأسه نار» لزيادة المبالغة.

٧. الاعتراض لغرض يقصده المتكلّم، و هو أن يؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين في المعنى، بجملة معترضة، أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب، و ذلك لأغراض كثيرة، كالدّعاء، أو التّنبيه على فضيلة شيء، أو زيادة التّوكيد، أو التنزيه، و الأخيرة كقوله تعالى: «و يجعلون لله البنات ـ سبحانه ـ و لهم ما يشتهون»، و الباقية توجد في المبسوطات البلاغيّة.

٨. التّذييل، و هو تعقيب جملة بجملة أخرى مستقلّة، تشتمل على معناها، تأكيدا لمنطوق الأولى، أو لمفهومها، نحو: «جاء الحقّ و زهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا».

٩. الاحتراس، و يقال له «التكميل»، و هو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم، فالاحتراس، يوجد حيثما يأتي المتكلّم بمعنى، يمكن أن يدخل عليه فيه لوم، فيفطن لذلك و يأتي بما يخلصه، كقول طرفة بن العبد:

فسقى ديارك غير مفسدها   صوب الرّبيع و ديمةٌ تهمي

فقوله: غير مفسدها، للاحتراس.

١٠. التّتميم، و هو زيادة فضلة، كمفعول، أو حال، أو تمييز، أو جارو مجرور، توجد في المعنى حسناً بحيث لو حذفت صار الكلام مبتذلاً، كقول ابن المعتزّ يصف فرسا:

صببنا عليها (ظالمين) سياطنا   فطارت بها أيدٍ سراعٌ و أرجل

إذ لو حذف «ظالمين» لكان الكلام مبتذلاً، لارقّة فيه، و توهّم أنّها بليدة تستحق الضّرب.

و اعلم أنّ هناك أنواعاً أخرى من الإطناب ذكرها يوجب التّطويل و لا يسعها المقام، لأنّا نقف في بداية الموضوع، و سوف نعطيكم تفصيل المباحث كلّها فيما كتبناه في البلاغة و أساسها ـ بعون الله و توفيقه ـ.

الأسئلة و التّمارين

١. ما هي المساواة؟ ما هو الإيجاز؟ ما هو الإطناب؟ كم قسما للإيجاز؟ ما هو إيجاز القصر؟ ما هو إيجاز الحذف؟ بأيّ شيء يكون إيجاز الحذف؟ كم قسما للإطناب؟ ما هو ذكر الخاص بعد العام؟ و ما هو ذكر العام بعد الخاص؟ و ما هو الإيضاح بعد الابهام؟ ما هو التّكرار؟ ما هو الاعتراض؟

٢. بيّن جمال الإيجاز أو الإطناب أو المساواة فيما يأتي: كتب طاهر بن الحسين إلى المأمون، و كان واليه على عمّاله بعد هزمه عسكرَ علي بن عيسى بن ماهان و قتله إيّاه:

كتابي إلى أمير المؤمنين، و رأسُ عليّ بن عيسى بن ماهان بين يدي، و خاتمُهُ في يدي، و عسكره مُصَرَّف تحت أمري و السلام.

وَقَّعَ أبو جعفر المنصور في شكوى قوم من عاملهم: كما تكونوا يُؤَمَّرْ عليكم.

و كتب إليه صاحب مصر بنقصان النّيل فوَقَّعَ: طَهِّرْ عسكرك من الفساد يُعطِك النّيل من القياد.

وَقَّعَ هارون الرّشيد إلى صاحب خراسان: داوِ جُرحك لا يتّسع.

و كتب ابراهيم بن المهدي في كلام للمأمون: إن عفوت فبفضلك، و إن أخذتَ فبحقّك،

فوقّعَ المأمون: القدرة تُذهِبُ الحفيظةَ.

۳. ما هو الإيغال؟ ما هو التّوشيع؟ ما هو التذييل؟ ما هو الاحتراس؟ ما هو التّتميم؟ ما هو الفرق بين التّطويل و الحشو؟ ما هي دواعي الإيجاز؟ ما هي دواعي الإطناب؟ هات ثلاثة أمثلة لإيجاز القصر و بيّن وجه الإيجاز في كلّ منها. هات أمثلة لإيجاز الحذف، بحيث يكون المحذوف في المثال الأوّل كلمة و في الثاني جملة.

٤. بيّن الإيجاز و الإطناب و المساواة، و أقسام كلّ منها فيما يأتي:

قال تعالى: «يأخذ كلّ سفينة غصباً». قال النبيّ (ص): «الضعيف أمير الرّكب». قيل لأعرابيّ يسوق مالاً كثيراً: لِمَنْ هذا المال؟ فقال: لله في يدي. قال تعالى: «ق، و القرآن المجيد، بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم»، و قال أيضا: «فسقى لهما ثمّ تولّىٰ إلى الظّلّ، فقال: ربّ إنّي لِمَا أنزلتَ إليّ من خير فقير، فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجرَما سقيتَ لنا». قال أبو الطّيب:

أتى الزّمان بنوه في شبيبته ... فسرّهم و أتيناه على الهَرَم

قال تعالى: «و قيل يا أرض ابلعي ماءك، و يا سماء أقلعي و غيض الماء و قضي الأمر، و استوت على الجوديّ، و قيل بعدا للقوم الظالمين»

قال الشاعر:

و إن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسن الثّناء سبيل

قال عليّ (ع): «آلة الرّياسة سعة الصّدر»، و قال أيضا: من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، و من رضي برزق الله لم يأسف على ما في يد غيره، و من سلّ سيف البغي قتل به، و من حفر لأخيه بئرا وقع فيها، و من هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته، و من نسي زَلَلَه استعظم زَلَل غيره، و من أعجب برأيه ضلّ، و من استغنى بعقله زلّ، و من تكبّر على النّاس ذلّ.

قال الشاعر:

حليم إذا ما الحلم زين لأهله ... مع الحلم في عين العدوّ مهيب

و قال آخر:

و ألفيته بحرا كثيرا فضوله ... جوادا متى يذكر له الخير يزدد

قال آخر:

ما أحسن الأيّام إلّا أنّها ... يا صاحبيّ إذا مضت لم ترجع

و قال آخر:

و لست بمستبق أخا لاتلمه ... على شعث أيّ الرّجال المهذب

الجزء الثاني

علم البيان

البيان في اللغة، يدلّ على الانكشاف و الوضوح، فهو ما بيّن به الشّيء من الدلالة و غيرها. قالوا: بَانَ الشّيءُ يَبِيْنُ بَيَاناً: اِتَّضَحَ، فهو بَيِّنٌ. و أَبَانَ الشّيءَ، فهو مُبِيْنٌ. و أَبَنْتُهُ أَنَا: أي: وَضَّحْتُهُ. و اسْتَبَانَ الشّيءُ: ظَهَرَ. و اسْتَبَنْتُهُ أَنَا: عرفته[1].

و دخلت هذه اللفظة في البلاغة و استعملت استعمالاً كان له مدلول خاصّ، ستعرفه فيما يأتي:

تمهيد فيه تعريف علم البيان

للتّعبير عن المعاني طرق مختلفة، و لكلّ أديب طريقته الخاصّة في التّعبير عن المعنى الّذي يريد بيانه، إلّا أنّ الخيال عنصر أساسيّ في تصوير المعنى و ترسيمه على صور مختلفة، فيُوجد له ميداناً واسعاً للتعبير عن المعنى الّذي يجول في خاطره و يدور في خلده، فإذا أراد التّعبير عن أيّ معنى يطوف حول ضميره، استطاع أن يختار من فنون القول، و طرق الكلام ما هو أقرب لمقصده، و أليق بغرضه، بطريقة تبين ما في نفسه من صور الخيال و تظهر مقاصده و توصل الأثر الذي يريده به إلى نفس السامع في المقام المناسب.

و إنّك لو تأمّلت المعاني الصادرة عن الأديب لوجدتها ليست تعبيرات عادية كتعابير المتداولة بين أفراد الناس، و إنّما يتفنّن فيها توخّياً للعمق، و توسيعاً لطاقات الإيحاء، و إمعانا في التّوضيح، و سعيا وراء الجمال، و التّأثير في نفوس النّاس، و تحريك عقولهم و عواطفهم و إحساساتهم، و إقامة المشاركة الوجدانيّة بينهم و بين الكتّاب و الشّعراء ـ مثلا ـ هذا التّفنّن في التّصوير و التعبير و في طرق البيان، هو ما يسمّى بـ«التصوير البياني»،

---

1. قاموس اللغة: مادة «بين» و معجم مقاييس اللغة: مادّة «بين».

و هو الّذي جعل له البلاغيّون علما خاصّا سمّوه «علم البيان» يقوم على قواعد و أصول يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة من اللّفظ، تتباين في وضوح دلالتها العقليّة على ذلك المعنى، مع رعاية المطابقة لمقتضى الحال، كما تتباين في جمالها و مدى إيحائها و بعد المرمى الّذي تهدف إليه.

و هذه أمثلة مختلفة تؤدّي جميعها معنى واحداً هو وصف شخص بالجود و الكرم:

فلان جواد ـ بحر ـ باسط اليد ـ مفتوح الدار ـ جبان الكلب ـ كثير الرماد و... فهكذا يمكن وصف الشّخص بالجود و الكرم.

فكلّ واحد من هذه الأمثلة يؤدّي المعنى المقصود، و هو الدلالة على جود فلان، أو وصف فلان بالجود، ولكنّه يختلف عن الآخر في الأسلوب، حيث جاء الأوّل منها (زيد جواد) خاليا من التّشبيه و من قوّة التأثير في النفوس. و جاء الثاني منها (فلان بحر) أسلوبا فيه التّشبيه و قوّة التأثير في النّفوس، كما هما يختلفان في وضوح دلالتهما على المعنى المقصود، فإنّ المبالغة الّتي نحسّها في الأسلوب الثاني، لا نجدها أثرا في الأسلوب الأوّل، و قس عليهما البواقي.

و قد حصر علم البيان في الدّلالات العقليّة (أي: الالتزاميّة و التّضمنيّة) فكانت مباحثه تشمل المجاز و الكناية، لأنّهما يمكن إيراد المعنى الواحد بهما في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدّلالة عليه، و بالنقصان. أمّا التّشبيه فدلالته وضعيّة فلا يدخل في هذا التّعريف الّذي أورده السّكاكي في مفتاحه، ولكنّه لمّا رأى أنّ الاستعارة (و هي من أنواع المجاز) تعتمد عليه اعتماداً كبيراً، اعتبره أصلاً من أصول البيان، و بذلك أصبحت مباحثه في مكتبه ثلاثة، هي: التّشبيه و المجاز و الكناية. و سار البلاغيّون على هذا التقسيم و لم يخرجوا عنه، فعلى هذا لايطلق «البيان» إلّا على جزء من البلاغة أو على أحد أقسامها الثلاثة المتعلّق بالبحث في التّشبيه و المجاز و الكناية.

فعلى ذلك نعرف أنّ غاية «علم البيان» هو تمكين المتأدّب من مجاراة البلغاء من حيث وفاؤه بمقتضيات المعاني و بمتطلبات الذّوق و الجمال، و مدى إيحائها و بُعد مرماها الذي تهدف إليه. و بإجادة قوانينه و إيداع مهارته، و فهم أساليبه المتعدّدة، و اختيار الأبلغ منها و الأوضح دلالة[1].

---

١. أساليب البيان في القرآن؛ ص ٢٠٠.

التّشبيه

التّشبيه في اللغة التّمثيل، فإذا قلت: هذا شبه هذا، فمعناه: أنّه مثيله، و شبّهت هذا بذاك، أي مثّلته به.

و أمّا في الاصطلاح، فمعناه: عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر لوجود صفة مشتركة بينهما أو أكثر بطريق خاصّ، لغرض يقصده المتكلّم.

و لعلّ ألطف تعريف له، قول ابن رشيق القيرواني: «التّشبيه: صفة الشّيء بما قاربه و شاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته، لأنّه لو ناسبه مناسبة كليّة لكان إيّاه، ألا ترى أنّ قولهم «خدّ كالورد» إنّما أرادوا حمرة أوراق الورد، و طراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه و خضرة كمائمه[1]، فلو تأمّلنا الشّعر التّالي:

فالعيش نوم و المنيّة يقظة و المرء بينهما خيال سار[2]

لفهمنا منه، أنّ الشاعر ـ مثلا ـ يعقد مماثلة ما بين العيش و النّوم لاهتدائه إلى صفات مشتركة بينهما، منها: سرعة الانقضاء، و عدم شعور الإنسان بمرور الوقت، و انصرافه إلى اللّهو و التّغافل عن الأمور المهمّة في هذه الحياة و... و هذا تعريف أديب، يحسّ بروعة التّشبيه، و يستطيع أن يتصوّره و يصوّره للآخرين، فإذا وصف العيش وحده بأوصاف عديدة لا تأثير له كذلك.

و اعلم أنّ التّشبيه من المناهج الأوليّة الّتي تدلّ عليه الطّبيعة لبيان المعنى؛ و أسلوبه من أكثر الأساليب استعمالاً و أوفرها انتشاراً لما في ذهن الإنسان من مماثلات كثيرة معقودة بين الأشياء، و لما في التّشبيه من قدرة على تقريب المعنى المقصود، إلى النّفوس، لأنّه ـ يكاد بما فيه من قوّة ـ أن يجسّد المعنى أمام النفوس[3]. و يخرج الخفيّ إلى الجليّ، و يدني البعيد من القريب.

أركان التّشبيه

إنّنا لو تأمّلنا تعاريف التّشبيه المختلفة، لوجدنا له أربعة أركان طبيعة، ففي التّعريف الّذي

---

١. العمدة؛ ج ١، ص ٢٨٦.
٢. الشعر لأبي الحسن عليّ بن محمّد التّهامي، قتل في مصر: ٤١٦ هـ في مهمّة سياسيّة.
٣. تهذيب البلاغة؛ ص ٨٠ (مع تصرّف فيه).

قدّمناه لك: «عقد مماثلة بين أمرين...» الأمر الّذي يراد إلحاقه بغيره كالخدّ (في مثل: خدّه كالورد)، هو «المشبّه».

و هو أساس التّشبيه و أحد ركنيه، و تأتي كلّ عناصر الصّورة لإبرازه و توضيحه، و جلاء هيئته، و إخراجه من خفيّ إلى جليّ، كالانتقال من المعقول إلى المحسوس، لإيصال عاطفة الكاتب أو الشّاعر، لتتمّ المشاركة بين المبدع و المتلقّي، فيتأثّر القاريّ أو السّامع، و يحسّ بانفعاله، و يدرك خياله، و يتفهّم أفكاره، قال ـ تعالى ـ: «فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلّ فِرْقٍ كالطّودِ العظيم»[1]، و قال الشاعر:

أنا كالماء إن رضيتُ صفاءً و إذا ما سخِطتُ كنتُ لهيبا

فالمشبّه: (فِرْق البحر) و (أنا)، كلّ منهما هو الركن الأساس الذي يجيء التّشبيه لخدمته، و توضيح مزاياه و صفاته، و إبرازه بالشّكل الّذي يفي بالغرض[2].

و الأمر الذي يلحق به المشبّه كالورد، هو «المشبّه به».

و هو طرف التّشبيه الآخر، أو الصّورة الّتي يراد بها تمثيل المشبّه و يأتي المشبّه به لتوضيح صور المشبّه، لما ينطوي عليه من صفات تبرّز المعنى و تجليه في صورته المختارة. و هذان الرّكنان يسمّيان «طرفي التّشبيه».

و الوصف المشترك بين الطّرفين، كالحمرة و الطّراوة، هو «وجه الشّبه».

و يغلب أن تكون هذه الصّفة في المشبّه به أقوى و أظهر منها في المشبّه، و لا يكون طرفا من أطراف التّشبيه، ولكنّه ركن من أركانه، يحدّد اتّجاه الصورة التّشبيهيّة، و يبيّن غايتها، ففي مثل: «ذاكرة الإنسان، مثل البحر عمقا و اتّساعا، فالوجه، هو العمق و الاتّساع، بهاتين الصّفتين حمت الصّورة نفسها ممّا يشوّهُ المشبّه الذي جاءت لتزيينه، و التّعريف به.

و اللّفظ الّذي يدلّ على التّشبيه، و يربط «المشبّه» بـ«المشبّه به»، هي: «أداة التّشبيه»، سواء كان حرفا أم اسما أم فعلا، و سواء كانت ملفوظة، أم مقدّرة، مثل: الكاف، و الشّبه و ضاهَى و...

و هذه الأركان قد يذكر كلّها في جملة التّشبيه، كقول الشاعر:

أنتَ كاللّيث في الشجاعة و الإقـ ـدامِ و السّيف في قراعِ الخُطوب

---

١. الشّعراء، ٦٣.

٢. جواهر البلاغة: ص ٢٤٧ و أساليب البيان في القرآن: ص ٢٤٢.

رأى الشّاعر ممدوحه (المشبّه) متّصفا بوصفين، هما الشّجاعة و مصارعة الشّدائد (وجـهـا شبه) فبحث له عن نظيرين في كلّ منهما إحدى هاتين الصّفتين قـويّة، فـضـاهاه بـالأُسد (المشبّه به) في الأولى، و بالسّيف (المشبّه به أيضا) في الثّانية، و بيّن هذه المضاهاة بأداة هي الكاف. فالبيت يشتمل على جميع أركان التّشبيه. ثمّ الأركان قد يحذف بعضها فيتحقّق به تشبيه خاص سيذكر في أثناء المباحث ـ بعون الله و مشيّته ـ كما تذكر الأركان الأربعة و أنواع كلّ واحد منها في ضمن فصول.

الأسئلة و التّمارين

١. ما هو التّشبيه؟ ما هي أدوات التّشبيه؟ ما هي أركان التّشبيه؟ هل يكون وجه الشّبه أقوى في المشبّه أم في المشبّه به؟

٢. اجعل كلّ كلمة من الكلمات الآتية وجه شبه في تشبيه من عندك:

الإشراق ـ الكرم ـ الخفّة ـ الشّجاعة ـ البله ـ البراءة ـ الوثـوب ـ الاحـتيال ـ البـخل ـ الصفاء ـ الرقة ـ الاحساس ـ الضياء، كما جعلناه في الأمثلة التّالية:

جملة التّشبيه	المشبه ـ المشبّه به ـ وجه الشبه
وجهك في الإشراق كالبدر	وجهك ـ البدر ـ الإشراق
أنت في الكرم كحاتم	أنت ـ حاتم ـ الكرم
فرسنا في الخفّة كالطّائرة	فرسنا ـ الطائرة ـ الخفة
سعيد في الشجاعة كرستم	سعيد ـ رستم ـ الشجاعة
لنا عدوّ في البله كالجمل	عدوّ ـ الجمل ـ البله
جارنا في براءته كالطفل	جارنا ـ الطفل ـ البراءة
أخوك في الوثوب كالأسد	أخوك ـ الأسد ـ الوثوب
خصمي في الاحتيال كالثعلب	خصمي ـ الثعلب ـ الاحتيال
منافسك في البخل كما دَر	منافسك ـ مادر ـ البخل
قلب أبيك في الصّفاء كالمرآة	قلب أبيك ـ المرآة ـ الصفاء
طبعك في الرّقة كالنسيم	طبعك ـ النسيم ـ الرّقة
أنت في الإحساس كالشّاعر	أنت ـ الشاعر ـ الإحساس
الكهرباء في الضياء كالشمس	الكهرباء ـ الشمس ـ الضياء

٣. كوّن تشبيهات من الكلمات الآتية و بيّن المشبّه و المشبّه به و الأداة و وجه الشّبه:
الزّهر ـ النّجم ـ الأسد ـ المدرسة ـ السّمك ـ البستان ـ الغدير ـ السّفينة ـ الصّاروخ ـ الرّبيع ـ النّور ـ الصّبر ـ التّواضع.

٤. عيّن طرفي التّشبيه و وجه الشّبه في الأبيات التالية:

ربّ ليل كأنّه الصّبح في الحسـ ... ـن و إن كان أسودَ الطّيلَسان
و سهيل كوَجنَةِ الحِبِّ في اللّو ... نِ و قلب المُحبِّ في الخفقان
كالبدر من حيث التفتَّ رأيته ... يهدي إلى عينيك نوراً ثاقبا
كالبحر يقذف للقريب جواهراً ... جوداً و يبعث للبعيد سحائبا
كالشّمس في كبد السّماء و ضوؤُها ... يغشى البلاد مشارقا و مغاربا

الفصل الأوّل: فيما يتعلّق بالطّرفين من التّشبيه و فيه مباحث

١. مادّة الطّرفين

ينقسم الطّرفان باعتبار المادة إلى حسّيّين، أو عقليّين، أو مختلفين:

أ) فالطّرفان الحسيّان هما اللّذان يدركان بإحدى الحواس الظاهرة (مثل: البصر، و السّمع، و الشّم، و اللّمس، و الذّوق).

كالوجه عند التّشبيه بالبدر، و هما يدركان بحاسة البصر.

و كالصّوت عند التّشبيه بتغريد البلابل، و هما يدركان بحاسة السّمع.

و كالنّكهة عند التّشبيه بالعنبر، و هما تدركان بحاسة الشّمّ.

و كالرُّضاب عند التّشبيه بالعسل، و هما يدركان بحاسة الذّوق.

و كالجلد النّاعم عند التّشبيه بالحرير، و هما يدركان بحاسة اللّمس.

و كلّ تشبيه اعتمد طرفاه على إحدى الحواس الظّاهرة فهو «تشبيه حسيّ»، و من ذلك الأمثلة التّالية: كلام فلان كالشّهد في الحلاوة ـ النّاس كأسنان المُشطِ في الاستواء ـ قال أعرابي: جاءُوا على خَيل كَأنّ أعناقها في الشّهرة أعلام، و آذانها في الدّقة أطراف أقلام، و فرسانها في الجرأة أُسود آجام ـ جبين فلان كصفحة المرآة صفاءً و تلألُؤاً ـ حاتم كالبحر ـ لسانه كالسّيف.

و قد فسّر «الحسيّ» بالّذي يدرك نفسه أو مادّته بإحدى الحواس الظّاهرة ليدخل «الخياليّ» فيه، و هو أنّ الأديب قد يتخيّل صورة، مادّتها الأساسيّة من المحسوسات، ولكنّ

الصّورة عند التّركيب لا وجود لها في عالم الواقع، مثال ذلك قول الصّنوبري[١]، يصف الطّبيعة في الرّبيع:

و كأنّ مُحـــــمرّ الشّـــقيـ ... قِ إذا تـــصوَّب أو تـــصعَّد
أعـــلام يـــاقوت نُـــشِرْ ... نَ عـــلى رِمـــاح من زبـرجـد

أراد الشّاعر أن يصف شقائق النّعمان، و هي حمراء الأوراق في حال ميلها نحو الأسفل ذبولا، أو نحو الأعلى تفتحا، أو تحرّكها بفعل الرّياح إلى أدنى و أعلى، رفعت عليها أعلام من اليواقيت. و كأنّ الشاعر شبّه ساق الشّقيق الأخضر بالزّبرجد كما شبّه الأوراق الحمر بالياقوت، فالأعلام الياقوتيّة المنشورة على الرّماح الزّبرجديّة ممّا لا يدركه الحسّ، لأنّ الحسّ انّما يدرك ما هو موجود في المادّة حاضر عند المُدرِك على هيئات محسوسة مخصوصة، و الحياة منذ أن كانت، و إلى يومنا هذا لم تشهد هذه الرّماح و لا هذه الأعلام، و ما هي إلّا نسيج خيال شاعر، لكن مادّته الّتي تركّب هو منها، كالأعلام، و الياقوت، و الرّماح، و الزّبرجد، كلّ منها محسوس بحاسة البصر.

ب) و الطّرفان العقليّان و هما اللّذان يدركان بالعقل أو بالحواس الباطنة (القوى الباطنة كالواهمة و المتصرّفة) مثل الوجدانيات المدركة بالقوى الباطنة كـاللّذّة و الألم، و الغضب و الرّضى، و الجوع و الشّبع، و الفرح و الترّح، و إلى غير ذلك...

فلو قلنا: إنّ العلم كالحياة، لكان طرفا تشبيهنا عقليّين، لأنّ العلم لا يذاق باللسان، و لا يشمّ بالأنف، و لا يلمس باليد و إنّما يدركه العقل وحده، و كذا الشأن في الحياة.

و قد فسّر «العقليّ» بما لا يكون نفسه و لا مادّته مدركا بإحدى الحواس الظّاهرة، ليدخل فيه الوهميّ الّذي لا يكون للحسّ مدخل فيه لكونه غير منتزع منه[٢]، بل أنّ القوّة الواهمة الّتي يكون في الباطن و تفعل فيه قد تخترع صورة لا وجود لها في الواقع، مادّتها الأساسيّة مادّة نفسانية[٣]. أمّا تركيبها في صورة تشبيه، بشيء غير موجود.

---

١. هو أبو بكر احمد بن محمّد بن الحسن الضّبيّ المعروف بالصّنوبريّ الحلبيّ، المتوفى ٣٣٤ هـ /٩٤٥ م. و البيتان منسوبان إليه في: عقد الجمان؛ ص ٢٨٧ و المفتاح؛ ص ٥٨١، و في: حسن التوسّل؛ ص ١١٢٥ و الإيضاح؛ ج ٢، ص ٢١٩ و الطّراز؛ ج ١، ص ٢٧٥ و معاهد التنصيص؛ ج ٢، ص ٤.

٢. و الخياليّ على خلاف ذلك، لأنّه منتزع من الحسيّ.

٣. فالوهميّ يتميّز عن الخياليّ بأن لا وجود للوهميّ لا نفسه و لا مادّته، بخلاف الخياليّ، فإنّ مادّته موجودة حسبما بيّناه.

مثال ذلك: الخوف يفترسني كأنّه أنياب الغول، فالغول حيوان لا وجود له في الواقع، و إنّما هو اختراع من اختراعات الوهم، فمثل هذا التّشبيه الذي يخترعه الوهم دون أن يكون له كِيان خارجيّ أو عقليّ، يدعى في أسلوب التّشبيه بـ«التشبيه الوهميّ»، و يضرب البلاغيّون على هذا التّشبيه أمثلة، منها قول امرئ القيس:

أيقتلني و المشرفيّ مضاجعي   و مسنونةٌ زُرقٌ كأنياب أغوال[1]

فإنّ الأنياب بحدّ ذاتها معروفة و موجودة و محسوسة، لكن إضافتها إلى الأغوال الّتي لا حقيقة لها جعلها من عالم الوهم، إذ كلّ ما أضيف إلى الوهميّ اكتسب صفة الوهميّة مثله.

ج) و الطّرفان المختلفان يعني: قد يكون «المشبّه» حسيًا و «المشبّه به» عقليًا كالعطر ـ و هو حسيّ ـ إذا شبّه بـ«الخلق الكريم» ـ و هو عقليّ ـ في قولهم: هذا العطر الفوّاح كأخلاقك العالية، و سمّي: «تشبيه المحسوس بالمعقول».

أو بعكس ذلك، بمعنى أن يكون «المشبّه» عقليًا، و «المشبّه به» حسيًا، كالعدل إذا شبّه بالقسطاس، و كالمنيّة إذا شبّه بالسّبع، و كالخلق الكريم ـ و هو عقليّ ـ إذا شبّه بالعنبر ـ و هو حسيّ ـ في قولهم: خلقه كالعنبر، و قد سمّي: «تشبيه المعقول بالمحسوس».

الأسئلة و التّمارين

١. إلى كم قسم ينقسم التّشبيه باعتبار الطّرفين؟ ما هو التّشبيه الحسّي؟ ما هي الحواس الظّاهرة؟ و ما هي الحواس الباطنة؟ بماذا يفسّر الحسي عند بعضهم؟ بما ذا يتحقّق الطرفان المختلفان؟ ما الفرق بين الحسي و الوهميّ؟ و ما الفرق بين الخياليّ و الوهميّ؟

٢. بيّن التّشبيهات: الحسيّة و الخياليّة و الوهميّة و العقليّة و المختلفة في الأمثلة التالية:

قال الصّنوبري:

ما الدّهر إلّا الرّبيعُ المستنيرُ إذا   أتى الرّبيعُ أتاك النّورُ و النّورُ
فالأرضُ فيروزجٌ و الجوّ لُؤلُؤَةٌ   و الرّوضُ ياقوتةٌ و الماء بَلُّورٌ

قال المتنبّي:

و دَعْ كلَّ صوتٍ بعد صوتي فإنّني   أنا الصّائح المحْكيُّ و الآخرُ الصّدى

---

١. راجع: المطوّل، ص ٢٤٩ و معاهد التّنصيص، ج ٢، ص ٧.

و قال آخر:

أخو العلم حيٌّ خالدٌ بعد موته — و أوصاله تحت التّراب رَميمٌ
و ذوالجهل مَيتٌ و هو مَاشٍ على الثّرى — يُظَنّ من الأحياء وَهو عديمٌ[١]

قال البحتريّ يصف بركةً:

تنصبُ فيها وفُودُ الماء مُعجلةً — كالخَيل خارجة من حَبلِ مُجريها

قال أبو العلاء:

و كالنّارِ الحياةُ فِمنْ رِمادٍ — أواخرها و أوّلها دُخان

الدنيا كالماء المالح كلّما ازددت منه شربا ازددت عطشا ـ الرّجل ذو المروءة يُكرم على غير مالٍ كالأسد يُهاب و إن كان رابضاً. ـ المال سيف نفعاً و ضرّاً ـ فترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية ـ قال أعرابي في رجل: ما رأيت في التوقّد نظرةً أشبه بلهيب النّارِ من نَظْرَته.

٣. كوّن تشبيهاتٍ من الأطراف الآتية بحيث تختار مع كلّ طرف ما يناسبه:

المزيّة الصادقة ـ شجرة لا تُثمر ـ نَغَمُ الأوتار ـ الحديث المُمْتِع ـ السّيف القاطع ـ البخيل ـ الحياة تدِبُّ في الأجسام ـ الطّفل الرّضيع ـ العلم النّافع ـ الظّلمة الموحشة ـ القلوب المنكسرة ـ النّفس المطمئنّة ـ الهمّة العالية.

٤. بيّن طرفي التّشبيه، الحسيّين و العقليين و المختلفين في الأمثلة التالية:

قوله ـ تعالى ـ: «و عندهم قاصرات الطّرف عين كأنهنّ بيض مكنون»[٢].

و أيضا: «فإذا انشقّت السّماء فكانت وردة كالدّهان»[٣].

و أيضاً: «و هي تجري بهم في موج كالجبال»[٤]. و كذلك: «و تكون الجبال كالعهن المنفوش»[٥]. و هكذا: «كأنهنّ الياقوت و المرجان»[٦]. قول ابن المعتز يصف الهلال:

انظر إليه كزورق من فضّة — قد أثقلتهُ حمولة من عنبر

قال الشاعر:

كأنّنا باسط اليدِ — نحو نيلوفر نَدى
كدبابيس عَسجَدٍ — قضبُها من زبرجدِ

---

١. أنوار الربيع؛ ج ٥، ص ١٩٨.
٢. الصّافات، ٤٨ـ٤٩.
٣. الرحمن، ٣٧.
٤. هود، ٤٢.
٥. القارعة، ٥.
٦. الرحمن، ٥٨.

قال أبي الغنائم الحمصي:

خَــــودٌ كأنّ بـــــنانَها في خـــضرة النّـــفس المُـــزَرَّد
سَمَك مـــــن البـــــلّورِ في شـــبک تكــون مــن زبــرجــد

قال علي (ع): لا عبادة كالتفكّر في صنعة الله ـ عزّ و جلّ ـ

قوله ـ تعالى ـ: «مثل الذين حمّلوا التّوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا»[١].

و أيضاً:

«مثل الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتا، وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون»[٢].

٢. إفراد الطّرفين و تركيبهما

التّشبيه باعتبار إفراد الطّرفين و تركيبهما، ينقسم إلى ثلاثة أقسام، لأنّهما إمّا مفردان أو مركّبان، أو مختلفان.

أمّا المفردان فينقسمان أيضا إلى ثلاثة أقسام لأنّهما إمّا مطلقان أو مقيّدان أو مختلفان.

و أمّا المركّب فيمكن فيه فرض الأقسام باعتبارات مختلفة لا يسع المقام ذكر كلّها، فنشير إلى بعضها ـ بتوفيقه تعالى ـ في أثناء هذا المبحث.

و المختلفان على قسمين: أحدهما أن يكون المشبّه مفردا، مطلقاً أو مقيّداً، و المشبّه به مركّباً. و الثاني بعكس ذلك، و إليك البيان:

قبل الخوض في هذا المبحث نودّ أن نسلّط الضّوء على معنى المفرد و المقيّد و المركّب في مصطلح التّشبيه، فنقول:

المفرد في هذا الأسلوب قبال المركّب، فيشمل المثنّى و الجمع أيضا، و هو إمّا مطلق، أي: غير مقيّد بوصف، أو إضافة، أو مفعول، أو حال، أو مجرور، أو غير ذلك؛ و إمّا مقيّد بإحدى هذه القيود، و لكلّ واحد منها أثر في وجه الشّبه فإنّ في «السّاعي بغير طائل كالرّاقم على الماء» كلّاً من المشبّه و المشبّه به لم يكن شيئاً واحدا، بل اعتبر معها أمور أخرى، مثل: عدم الحصول على الفائدة، و الكتابة على الماء.

أمّا المركّب فهو الصّورة المكوّنة من عدد من العناصر المتشابكة المتماسكة،

---

١. الجمعة، ٥. ٢. العنكبوت، ٤١.

كقول المعرّي:

كأنّ سهيلاً و النّجوم وراءه صفوفُ صلاةٍ قامَ فيها إمامُها

فالمشبّه هنا صورة مركّبة من سهيل و النّجوم الأخرى وراءه، و المشبّه به كذلك مركّب من الإمام القائم في المحراب، و المصلّون وراءه صفوف متتابعة.

فمثل: «السّاعي بغير...» يضع أمامنا «السؤال» هل يعدّ هذا من باب تشبيه المفرد المقيّد بالمفرد المقيّد، أو من باب تشبه المركّب بالمركّب؟

و ليس الجواب هنا سهلا ـ كما قال التّفتازاني في الشرح ـ: «الفرق بين المركّب و المفرد المقيّد أحوج شيء إلى التّأمّل»[1] لأنّ تشبيه المركّب بالمركّب و المفرد المقيّد بالمفرد المقيّد لايكاد يتميّز أحدهما عن الآخر في اللّفظ، بل في المعنى، فكثيرامّا يقع الالتباس، فحيث كان المقصود تشبيه الهيئة الحاصلة من مجموع أمرين أو أمور بمثلها فهو تشبيه مركّب بمركّب، لأنّ كلّ واحد من أجزاء الطّرف الواحد ليس مقصودا بذاته، و إن صحّ تشبيهه بما يقابله من الطّرف الآخر؛ و حيث كان المقصود تشبيه كلّ واحد من أجزاء الطّرفين بما يقابله لكن بقيد مأخوذ فيهما، و لم يكن ذلك القيد، المقصود ذاتا، بل تبعا، فهو تشبيه مفرد مقيّد بمفرد مقيّد، و قس على ذلك تشبيه مركّب بمفرد مقيّد و عكسه.

و إنّما الأهمّ ـ هنا ـ هو الفرق بين المقيّد و المركّب مصداقا، بأن يشخّص أنّ هذا مركّب و ذاك مفرد مقيّد، حيث أنّ التّعدّد معتبر في كلّ منهما، فتعيين أنّ هذه الأمور المتعدّدة ملحوضة تبعا، و المقصود بالاصالة الهيئة، و تلك الأمور المتعدّدة أحدها ملحوظ قصدا، و الباقي تبعا، في غاية العسر و لا يمكن تشخيص أحد الوجهين عند التّردّد من ناحية التّركيب اللّفظي لاستوائه فيهما، فليس في المقام ما يرجع إليه عند التّردّد إلّا الذّوق السّليم، فلا بدّ من الرّجوع إليه، فإن كان حاكما بوجود الحسن في جعل المشبّه أو المشبّه به هيئة منتزعة نلتزم بالتّركيب، و إن كان حاكما بحسن جعل أحدهما أو كليهما مفردا مقيّدا نلتزم بالتقييد، و كذلك إن كان حاكما بالتّساوي، إذ لا وجه عندئذ للالتزام بتكلّف التّركيب، و عند عدم تشخيص أحد الوجوه بالذّوق يحكم بالإجمال[2].

١. تشبيه المفرد بالمفرد و هو على ثلاثة أقسام:

أ) المفردان المطلقان، و هو أن يكون المشبّه مفردا مطلقا، و المشبّه به مفردا مطلقا ـ

---

١. المطول؛ ص ٢٦٩.

٢. أساليب البيان في القرآن؛ ص ٣٠٤.

أيضاً ـ بأن يدلّ كلّ من الطّرفين على الصورة البسيطة المكوّنة من أمر واحد غير مقيّد بمتمّمات من النّعت، أو الحال، أو الظّرف، أو غير ذلك، ممّا يكون له تأثير في وجه الشّبه، فقولنا: «العلم كالنّور»، و «لحظ كالسّهم»، و «ثغر كالدّرّ»، و «الفارسان أسدان»، و «أنت كالبحر» تشبيهات مطلقة مفردة. قال ـ تعالى ـ: «وجعلنا اللّيل لباسا»[1]، فشبّه اللّيل باللّباس في ستر الهارب من العدوّ، و إخفاء كلّ ما لا يحبّ الشّخص أن يطّلع عليه الآخرون من أمره. فكلّ من المشبّه و المشبّه به مفرد خال من القيد و التّركيب[2]. و سمّي الكلام «تشبيه المفرد بالمفرد المطلق».

و أمّا ما يذكر مع أحد الطّرفين ـ من القيود ـ مع عدم تأثيره في وجه الشبه فلا يوجب التّقييد، كتشبيه كلّ من الرّجل و المرأة باللباس في قوله ـ تعالى ـ: «هنّ لباس لكم و أنتم لباس لهنّ»[3]، حيث لا دخل لقوله «لكم و لهنّ» في التّشبيه، لعدم توقّف الاشتمال و الصيانة عليهما[4].

ب) المفردان المقيّدان، أي: أنّ المشبّه مفرد، و المشبّه به مفرد، لكن يرتبطان بقيود من متمّمات الجمل، ممّا له علاقة بوجه الشّبه، و سمّي الكلام «تشبيه المفرد المقيّد بالمفرد المقيّد».

و التّقييد يكون: إمّا بالوصف، أو بالإضافة، أو المفعول، أو الحال، أو الظّرف، أو بغير ذلك، و يشترط في القيد: أن يكون له تأثير في وجه الشّبه، سواء كان ملفوظاً أو مقدّراً في نظم الكلام، كقوله ـ تعالى ـ «... كلمةً طيّبةً كشجرة طيّبة أصلها ثابت و فرعها في السّماء»[5].

فقد ذكر الله ـ تعالى ـ في هذا التّشبيه شجرة موصوفة بأربع صفات، ثمّ شبّه الكلمة الطيّبة بها: الصّفة الأولى كونها: (طيّبة)، و الثّانية كون: (أصلها ثابت)، و الثّالثة كون: (فرعها في السّماء)، و الرّابعة كونها: دائمة الثّمر. و وجه الشّبه: الرّسوخ، و الشّموخ، و الدّوام، و العطاء؛ و ذلك لأنّ الشّجرة لا تكون شجرة إلّا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، و أصل قائم، و فرع عالٍ، كذلك الايمان لا يتمّ إلّا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، و قول باللّسان، و عمل بالأبدان، و وجود الصّفات الثّلاث في جانب المشبّه به حسيّة بينما هي في جانب المشبّه معنويّة. و القيود

---

١. النّبأ، ١٠.
٢. دراسة و نقد ...؛ ص ٢١٢.
٣. البقرة، ١٨٧.
٤. أساليب البيان في القرآن؛ ص ٢٩٠.
٥. ابراهيم، ٢٤.

المذكورة لها دخل في التّشبيه لتوقّف تحقّق وجه الشّبه عليها.

و كقول الشاعر:

إنّي و تزييني بمدحي معشرا   كمُعَلّقٍ دُرّاً على خنزير

فإنّ المشبّه فيه هو المتكلّم، بقيد اتّصافه بتزيينه بمدحه معشرا، فتعلّق التّزيين ـ أعني قوله بمدحي ـ داخل في المشبّه. و المشبّه به، من يعلق درّاً، بقيد أن يكون تعليقه إيّاه على خنزير. و وجه الشّبه، مأخوذ من مجموع المصدر، و ما في صلته، و هو أن كلّ واحد منهما يضع الزينة حيث لا يظهر لها أثر لأنّ الشيء غير قابل للتحسين.

و قول النبيّ (ص): مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركب فيها نجا و من تخلّف عنها غرق[١].

ج) المفردان المختلفان في التّقييد وعدمه، و ذلك بأن يكون أحدهما مطلقا و الآخر مقيّدا أو بالعكس.

مثال المشبّه المطلق مع كون المشبّه به مقيّدا، قوله ـ تعالى ـ: «يوم يكون النّاس كالفراش المبثوث، و تكون الجبال كالعهن المنفوش»[٢].

فالمشبّه هو النّاس، و هو مطلق، و أمّا المشبّه به فهو الفراش المقيّد بكونه مبثوثا، لأنّ الهيئة الحاصلة من انتشار الكثرة الكاثرة و التّطاير في اتجاهات شتّى ـ و هو وجه الشبه ـ لا تتحقّق إلّا بقيد كونها في الفراش المبثوث، و كذا فإنّ الجبال مطلق، و هو المشبّه، و أمّا المشبّه به فهو العهن المقيّد بكونه منفوشا، لأنّ الهيئة الحاصلة من التّفتّت و الإنهيار، ثمّ صيرورتها هباءً منثوراً، لا يتحقّق إلّا بقيد كونها في العهن المنفوش.

و مثال المشبّه المقيّد مع كون المشبّه به مطلقا، كقوله ـ تعالى ـ: «وله الجوار المنشآتُ في البحر كالأعلام»[٣] حيث شبّه ـ سبحانه ـ السّفن المرفوعات الشّراع و هي تمخر عباب البحر، بالجبال الشاهقة، و وجه الشّبه هو العظم، فالمشبّه مقيّد، و المشبّه به مطلق. و كقول الشاعر:

كأنّ فجاج الأرض و هي عريضة   على الخاطف المطلوب كفّة حابل[٤]

---

١. أساليب البيان في القرآن؛ ص ٢٩٤.   ٢. القارعة، ٤ـ٥.

٣. الرّحمن، ٢٤.

٤. الفجاج: جمع فجّ، الطريق الواسع الواضح بين جبلين. و الكفّة: ما يصاد به (الشبكة). و الحابل: الصّياد.

٢. الطرفان المركّبان. و هو ما كان طرفا التّشبيه فيه مركّبين من عدّة أمور، يشكل مجموع تلك الأمور صورة موحّدة، بحيث إذا انتزع الوجه من بعضها اختلّ التّشبيه، كقوله ـ تعالى ـ في وصف المنافقين الّذين يظهرون خلاف ما يضمرون: «مثلهم كمثل الّذي استوقد نارا فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم و تركهم في ظلمات لا يبصرون»[1].

فالمشبّه، هو حال المنافقين المتمثّلة في تركيب صفاتهم من كذب و رياء و مداهنة في إظهار خلاف ما يسترونه من كفر. و المشبّه به: هيئة رجل أوقد نارا في ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوله فاتقى ما يخاف و أمِنَ، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي خائفاً متحيّراً. و وجه الشّبه: هو الخيبة ممّا حصله و سعى فيه. و نحو قول بشار:

كأنّ مُثارَ النَّقع فوقَ رؤوسنا و أسيافنا ليل تهاوي كواكِبُه

فصورة المشبّه هي مجموع الغبار، و السّيوف الّتي تلمع خلاله، أي مجموع الأمرين (النقع المثار فوق الرؤوس) و (الأسياف المسلولة) بما لهما من صورة متجسّدة في المعركة.

و صورة المشبّه به هي مجموع الليل، و ما يشمله من كواكب تتساقط، أي من مجموع الأمرين: بما لهما من صورة متجسّدة في الفضاء.

فالشاعر لم يرم إلى تشبيه جزء بجزء، و لم يقصد تشبيه النّقع باللّيل، و السّيوف بالكواكب، بل عمد إلى تشبيه هيئة مركّبة مؤلفة من صور السّيوف الّتي سلّت من الأغماد تتحرّك بسرعة علواً، و سفلاً، و أماماً، ترسم خطوطاً برّاقة بهيئة اللّيل الذي تتساقط كواكبه.

و قول أبي تمّام:

خلط الشّجاعة بالحياء فأصبحا كالحُسن شِيبَ لمُغرمٍ بدَلالِ

فشبّه الشّجاعة المقرونة بالحياء و هو مركّب، بالحسن المشوب بالدّلال و هو مركّب كذلك[2].

و لا يخفى انّه كلّما كان طرفا التّشبيه مركّبين، كان الوجه مركّبا، و لا عكس، كما نرى في قول أبي النّجم أو غيره:

و الشّمس كالمرآة في كفّ الأشل لمّا رأيتها بدَتْ فوق الجبل

---

١. البقرة، ١٧.

٢. أساليب البيان في القرآن؛ ص ٢٩٩ منقولا عن «المثل السّائر».

فإنّ المشبّه هو الشّمس على الإطلاق، و المشبّه به المرآة لا على الإطلاق، بل بقيد كونها في يد الأشل، و وجه الشّبه مركّب ـ كما قال السّكاكي ـ و هو الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق، و الحركة السريعة المتّصلة[1].

٣. الطّرفان المختلفان. بأن يكون أحدهما مفردا و الآخر مركّبا.

أ) تشبيه يقوم على كون المشبّه مفردا، و المشبه به مركّبا، كقوله ـ تعالى ـ: «و الّذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظّمآن ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً...»[2]، حيث شبّه عمل الكافر الّذي يضيع هباء، و يذهب سدىً، بعد أن يفقد أمله فيه، بسراب يراه الظّمآن، و قد غلبه العطش في الفلاة، فيحسبه ماء فيسرع إليه فلا يجده فتتحطّم آماله، و تشتدّ آلامه.

و قول الشّاعر:

كأنّ الأقحوان و قد تبدّت ... محاسنه فراقت كلّ عين

عماد زبرجد و قباب تبر ... تحفّ بها شرافات اللّجين

فالمشبّه: الأقحوان، و هو مفرد. و المشبّه به: مركّب من عماد زبرجد و قباب تبر، تحفّ بها شرافات اللجين.

ب) تشبيه، يقوم على كون المشبّه مركّبا، و المشبّه به مفردا، و هذا التّشبيه قليل الاستعمال، و هو على قلّته يأتي على وجهين:

الوجه الأوّل: تشبيه شيئين مشتركين في أمرٍ، بشيء واحد، كقول أبي تمّام في وصف الرّبيع:

يا صاحِبَيَّ تَقصَّيا نَظَرَيْكُما ... تَرَيا وجوهَ الأرض كيف تُصوَّرُ

تَرَيا نهاراً مُشمِساً قد شابه ... زَهرُ الرُّبا فكأنّما هو مُقْمِرُ

فشبّه النّهار المُشمس الّذي قد خالطه زهر الرّبا، بالليل المقمر، أو إنّه يريد أنّ النّبات لشدّة خضرته، مع كثرته و تكاثفه صار لونه يميل إلى السّواد، فنقص من ضوء الشمس حتّى صار كأنّه ليل مقمر.

الوجه الثاني: تشبيه شيئين ليس بينهما جامع، و لا رابطة تشملها، كقول المتنبيّ

تُشرِق أعراضُهم و أوجُههم ... كأنّها في نفوسهم شِيَمُ

---

١. دراسة و نقد ...، ص ٢١١ منقولا عن «مفتاح العلوم».

٢. النّور، ٣٩.

فشبّه إشراق الأعراض و الوجوه، بإشراق الشّيم، و هي الأخلاق الطيّبة، فإشراق الوجوه بياضها، و إشراق الأعراض بشرفها و طيبها، و ليس بينهما جامع، كما ترى، إلّا أن يتخيّل أنّ للأعراض إشراقاً، و للوجوه إشراقاً، و لا شك فإنّ الإشراق مفهوم واحد، و إن اختلفت مصاديقه إلّا أنّ اختلافها لا يضرّ بعدم وجود الجامع[١].

و اعلم أنّ التّشبيه المركّب بين هذه الأقسام أجلّ شأناً و أعظم مرتبة، لأنّ الفكرة و الرّويّة فيه أوفر، و دقّة النّظر فيه أكثر، و آفاق الأخيلة فيه أوسع، و مؤونته أرفع، إذ إيجاد العلقة و الرّابطة بين طائفتين مختلفتين و تقريبهما أصعب من أن تربط شخصين معا و تضع أحدهما بجانب الآخر.

و لهذا متى أمكن حمل التّشبيه على المركّب فلايعدل عنه إلى المفرد حتّى لا تفوت معه دقّة التّركيب المرعية في وجه الشّبه، فالتّشبيه المركّب أعزّ وقوعاً من التّشبيه المفرد و المتعدد الخالي من التّركيب، لأنّ أمرهما سهل هيّن، فتشبيه المركّب أبلغ الأقسام و أعزّها و أجلّها[٢].

الأسئلة و التّمارين

١. ما هو معنى المفرد في أسلوب التّشبيه؟ ما الفرق بين المفرد في هذا الموضع و بين المفرد في علم النحو؟ إلى كم قسم ينقسم التّشبيه باعتبار الإفراد و التّركيب؟ ما الفرق بين المفرد المقيّد و بين المركّب؟ إلى كم قسم ينقسم التّشبيه باعتبار اختلاف الطّرفين؟ هل تشبيه المركّب بالمركّب أبلغ من تشبيه المفرد بالمفرد؟

٢. كوّن تشبيهات مفردة الطرفين أو مركّبة الطرفين من الكلمات التالية:

نسيم ـ ماء زُلال ـ جنّة الخُلد ـ دُرّ ـ زهرة ناضرة ـ الشرف ـ نار موقدة ـ البدر ـ الأزهار ـ الهلال ـ المطر ـ الكوكب المنير ـ ثمرة ناضجة ـ سيل متدفق ـ ضوء القمر ـ ظلمة الليل.

٣. هات أربع جمل للتشبيه المفرد المقيد بالمفرد المقيد، و خمس جمل للتشبيه المركب بالمركّب.

٤. بيّن أطراف التّشبيه فيما يأتي:

---

١. أساليب البيان في القرآن؛ ص ٣٠٣ـ٣٠٤.

٢. دراسة و نقد ...؛ ص ٢١٢ـ٢١٣.

قال أبو العلاء:

و مُمتحِنٍ لِقاءَك و هو مَوتٌ ... و هل يُنْبي عن الموت امتحانٌ

قال أبو الطيب المتنبي:

بَدتْ قمراً و مالَت خُوطَ بانٍ ... و فاحت عنبرا و رَنَتْ غزالاً

و أيضا له:

رأيت الحُميّا في الزُّجاج بكفّه ... فشبّهتُها بالشّمسِ في البَدْر في البحرِ

ـكأنّ أخلاقَكَ في لُطفها ... و رقّةٍ فيها نَسيمَ الصَّباح

القَمر مثل الضّيف أو ... كالطّيف لَيس له إقامة

الجواد في السّرعة برق خاطف ـ لك سيرة كصحيفة الأبرار طاهرة نقيّة. بنتّ بالفضل فأصبحت سماءً و أصبح الناسُ أرضاً.

ليلق هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمانٍ.

تلق الحسام على جراءة حدّهِ ... مثلَ الجبان بكفّ كلّ جبان

ذهبت حدّة الشتاء و وافا ... نا شبيها بكَ الربيعُ الجديد

و دنا العيدُ و هو للنّاس حقّ ... يتقضّى و أنت للسعيد عيد

كالسّيف في إخذامه و الغيث في ... إرهابه و الليث في إقدامه

رأيُ المجرّب سهم في المضاء.

قال أبو البركات[1]:

ترى أنجم الجوزاءِ و النَّجمُ فَوقَها ... كباسِطِ كفّيهِ ليَقطِفَ عُنقوداً

قال أبو العلاء:

و قد بسطَتْ إلى الغرب الثُّريا ... يداً غَلَقتْ بأنمُلها الرِّهانُ

كأنّ يمينها سَرَقتك شيئاً ... و مقطوعٌ على السَّرِقِ البَنَانُ

و قال آخر:

كأنّ شُعاعَ الشّمس في كلّ غُدوةٍ ... على ورق الأشجار أوّلَ طالعِ

دنانيرُ في كفّ الأشلّ يَضُمُّها ... لقبضٍ و تَهوى من فُروج الأصابعِ[2]

---

١. أبو البركات عليّ بن الحسين بن عليّ بن جعفر الملقّب بالدّيباج.

٢. الأبيات بلاعز و في: المثل السائر؛ ص ٤١١ و معاهد التنصيص؛ ج ٢، ص ٣٣.

و قال آخر:

كـانتْ سراجَ أُنـاس يهـتَدونَ بِهـا   في سالف الدّهرِ قبلَ النّـار و النّـورِ
تَهتزُّ في الكأسِ من ضَعفٍ و من هَرَمٍ   كأنّهـا قَـبَسٌ في كـفّ مَـغرورِ.[1]

٥. بيّن طرفي التّشبيه المفردين و المركبين و المختلفين فيا يأتي:

قول الشاعر:

تأمّـل إذا مـا نـلت بـالأمس لذّة   فأفـنيتها هـل أنت إلّا كـحاكـم

قوله ـ تعالى ـ:

«تنزع النّاس كأنّهم أعجاز نخل منقعر»[2].

و أيضاً:

«كذّبت ثمود بالنّذر... إنّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر»[3].

قول النبيّ (ص):

«فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم»[4].

و أيضا:

«فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرحمن على سائر خلقه»[5].

قول عليّ (ع):

«فإنّ العالم العامل بغير علمه كالجاهل الذي لا يستفيق من جهله»[6].

و أيضا:

«الولد العاق كالاصبع الزّائدة، ان تركت شانت و ان قطعت آلمت»[7].

٣. تعدّد الطّرفين

كثيرامّا يعمد الأدباء إلى تشبيه عدّة أشياء بعدّة أشياء أُخر، أو عدّة أشياء بشيءٍ واحد أو بعكس ذلك. فسمّى البلاغيّون هذا اللّون أسماء تبعا لأوضاعها المتعدّدة و قسّموه إلى أربعة

---

١. الأبيات بلاعزو في: المثل السائر؛ ص ٤١١ و معاهد التّنصيص؛ ج ٢، ص ٣٣.
٢. القمر؛ ٢٠.
٣. نفس السّورة؛ ٢٣ـ٣١.
٤. مختار الأحاديث النبويّة؛ ص ١٠٣.
٥. الجامع الصغير؛ ج ٢، ص ٢١٤.
٦. نهج البلاغة؛ الخطبة ١١٠ و كلمات قصار ٧.
٧. نفس المصدر؛ الخطبة ١١٠ و كلمات قصار ٧.

أقسام: ملفوق و مفروق و تسوية و جمع.

١. التّشبيه الملفوق. فيه يتعدّد الطّرفان، و يجمع كلّ طرف مع مثله، و ذلك بأن يؤتى بالمشبّهات أوّلا، ثمّ بالمشبّهات بها ثانيا، كقول امرئ القيس:

كأنّ قلوبَ الطّير رَطباً و يابِساً لدى وكرها العنّابُ و الحشفُ البالي

فعقد البيت على تشبيه شيئين بشيئين: قلوب الطّير الرّطبة و قلوب الطّير اليابسة، مشبّهان؛ و العنّاب، و الحشف البالي مشبّهان بهما. إذ ليس لاجتماعهما هيئة مخصوصة يُعتَدّبها و يقصد تشبيهها، و لذا قال عبدالقاهر: إنّه إنّما يتضمّن الفضيلة من حيث اختصار اللّفظ، و حسن التّرتيب فيه لا أنّ للجمع فائدة في عين التّشبيه[1] و مثل قول البحتريّ:

تبسّمٌ و قُطوب في نَدى و وَغى كالرّعد و البرق تحت العارض البرد

و قال آخر:

ليل، و بدر، و غصن شعر، و وجه، و قدّ
خمر، و درّ، و ورد ريق و ثغر و خدّ

و قد شبّه اللّيل بالشّعر الأسود الفاحم، و البدر بالوجه الجميل، و الغصن بالقدّ المياس، و الخمر بالرّيق الطّيّب، و الدّرّ بالأسنان في الثّغر، و الورد بالخدّ، و كلّها من التّشابيه المقلوبة الّتي ستعرفها ـ بتوفيقه ـ تعالى ـ.

و قد سمّي بـ«التشبيه الملفوف» أيضا، حيث إنّ الملفوق و الملفوف بمعنى، و ذلك لتلفيق المشبّهات فيه، أي: ضمّ بعضها إلى بعض، و كذلك المشبّهات بها.

٢. التّشبيه المفروق. فيه يتعدّد الطّرفان، و يجمع كلّ طرف مع صاحبه، و ذلك بأن يؤتى بالمشبّه و المشبّه به معه على التّوالي، كقول أبي نواس:

فالخمر ياقوتة و الكأس لؤلؤة في كفّ جارية ممشوقة القدّ

فقد شبّه الخمر بالياقوت من حيث لونها الأحمر الضارب إلى السّواد، و شبّه الكأس الزّجاجيّة باللؤلؤة من حيث صفاؤها و تألّقها و تأثيرها في النّفوس.

و قال ابن سُكَّرَة:

الخدّ وردٌ، و الصُّدغ غالية و الرّيق خمرٌ و الثّغر كالدّر

---

١. اسرار البلاغة: ١٧٧ـ١٧٨.

و قال المُرَقَّشُ:

النَّشرُ مِسْكٌ و الوُجُوه دَنَا ... نِيرٍ و أطرافُ الأكفِّ عَنَمْ

شبّه النّشر بالمسك، و الوجوه بالدّنانير، و الأنامل المخضوبة بالعنم؛ و سمّى بـ«المفروق» لعدم اتّصال أحد المشبّهين بالآخر، بل يفرق كلّ أسلوب تشبيهيّ عن الآخر.

٣. التّشبيه التّسوية. فيه يتعدّد المشبّه وحده و يبق المشبّه به مفردا، قال الشّاعر:

صُدغ الحبيب و حالي ... كِلاهُما كاللّيالِي

و ثَغرُهُ في صفاء ... و أدمُعِي كاللّآلي[١]

و قال آخر:

كأنّ المُدامَ و صَوبَ الغَما ... مِ و ريحَ الخُزامى و ذَوْبَ العَسل

يُعَلُّ به بردُ أنيابها ... إذا النّجم وسط السماء اعتدل

فقد شبّه كلّا من المدام وصوب الغمام (أي: ماء المطر) و ذوب العسل، و رائحة الخزامي، بريق الحبيبة، حتّى و لو ذقت هذا الرّيق في منتصف اللّيل حيث ينشأ عن أبخرة المعدة و الفم رائحة غير طيّبة. سمّى بذلك للتسوية فيه بين المشبّهات.

٤. التّشبيه الجمع. فيه يُفرد المشبّه، و يتعدّد المشبه به على عكس تشبيه التسوية، كقول البحتريّ:

بات نديما ليّ حتّى الصباح ... أغيد مجدول مكانَ الوشاح

كأنّما تبسم عن لؤلؤ ... مُنَضَّدٍ أو بردٍ أو أقاح[٢]

شبّه أسنان الحبيبة بحبّ اللؤلؤ المنضّد، أو بالبرد، أو بالأقاحي. فقد جمع بين اللؤلؤ و البرد و الأقاحي ليشبه بها شيئا واحدا هو هذه الأسنان البيضاء المنضّدة اللّامعة الّتي تزين ثغر الحبيبة.

و قال آخر:

مرّت بنا رأد الضّحى ... تحكي الغزالة و الغزالا.

---

١. البيتان للوطواط في حسن التوسّل: ١١٧.

٢. الأغيد: النّاعم الليّن. المجدول: من الجدل و هو الفتل و الاحكام. الوشاح: أديم عريض يرصّع بالجواهر و أراد به المنطقة. الأقاح: جمع أقحوانة، و هي بنات أوراق زهره مفلّجة صغيرة تشبّه بها الأسنان (القاموس المحيط).

قال الحريريّ:

يَـفْتَرُّ عـن لؤلؤ رطب و عـن بـرد　　و عن أقاح و عن طَلع و عن حَبَبِ[1]

حيث شبّه فيه ثغر الحبيب ضمنا بخمسة أشياء: اللّؤلؤ الرّطب، و البرد، و الأقاح، و الطّلع، و الحبب.

و قول الشّاعر:

العـمر مـثل الضّـيف أو　　كـالطّيف ليس له إقـامة

حيث شبّه العمر: مرّة بالضيف ـ الّذى مهما أطال المقام، فزيارته عابرة و مؤقتة ـ و مـرّة بالطّيف ـ الّذي يخطر في البال وقتا قصيرا، ثمّ لا يلبث أن يختفي؛ فكلاهما ليس له إقامة.

سمّي التّشبيه بالجمع حيث تجتمع فيه مشبّهات بها عدّة، تعود لمشبّه واحدٍ.

الأسئلة و التّمارين

١. كم نوعا التّشبيه باعتبار تعدّد الطرفين؟ لماذا سمّوه هذه الأسماء: الملفوف، و المفروق، و التّسوية، و الجمع؟ ما هو تشبيه الملفوف؟ و هل له عنوان آخر؟ هل يجب أن يذكر الطّرفان في تلك التشبيهات؟ أعط أمثلة لكلّ نوع منها.

٢. بيّن أنواع التّشبيه باعتبار تعدد الطّرفين فيما يأتي:

قال عليّ (ع):

فأمّـا المشـيب كـصبح بـدا　　و أمّـا الشّـباب كبدر أفـل.

قال ابن سينا:

هـذّب النّـفس بـالعلوم لترق　　و ذَرِ الكـلّ فـهي للكـلّ بـيت

إنّما النّفس كـالزّجاجة، و العـلم　　سراج، و حـكمة الله زيت

فـإذا أشرقت، فـإنّك حـيّ　　و إذا أظـلمت فـإنّك مـيت.

قال أبو نواس:

تبكى فتذري الدّرّ من نـرجس　　و تمـسح الورد بـعنّاب

و قال الصاحب بن عباد في وصف أبيات أهديت له:

---

١. يفترّ: يبتسم حتّى تبدو أسنانه. الطّلع: ثمرة النّخل أوّل ظهورها. الحبب: الفقاعات. أي: تضحك ضحكاً حسنا عن ثغر مثل اللّؤلؤ... فالمشبّه مقدّر في نظم الكلام.

أتـــتنى بـــالأمس أبـــياته تـعلّل روحـي بـروح الجـنانِ
كـبُرْد الشّـباب و بَـرْد الشّراب و ظـل الأمـان و نـيل الأمـاني
و عـهد الصّـبي و نـسيم الصّـبا و صفو الدنـان و رجـع القـيان

قال مسلم بن الوليد:

و إني و اسماعـــيل يـوم وفـــاته لكالغمد يـوم الرّوع فـارَقه النّـصل
فـإن أغْشَ قـوماً بـعده أو أزُرْهـم فكالوحش يُدنيها من الأنَسِ المـحْل

الفصل الثّاني: وجه الشّبه

و هو ما يشترك فيه طرفا التّشبيه، تحقيقاً أو تخييلاً.

فلو قلنا: هذا ثوب ناصع كالثّلج، أدركنا أنّ الثّوب أبيض، و أنّ الثّلج كذلك، و أنّ الصّفة الجامعة بينهما هي صفة «البياض»، و يقال حينئذ: إنّ وجه الشّبه هـو «البـياض»، تحقّق وجوده في الثّوب، كما تحقّق في الثلج، و هذا التّحقق تراه العين و تحِسّ به.

أمّا إذا قلنا: أستاذي بحرفي العلم، فهمنا أنّ الأستاذ ـ و هو المشبّه ـ عالم، و عـلمه واسع الجوانب عميق الأغوار، فكأنّه لا حدود له، وكذلك فهمنا أنّ البحر ـ و هو المشبّه به ـ يعني الامتداد، و السّعة، و العمق، و صفات جليلة أخرى، إذن المعنى الجامع بين الأستاذ و البحر هو السّعة و العمق و الاحتواء على كلّ نفيس و جليل، هذا المـعنى المشـترك بـين الطّرفين تجلّى في البحر على سبيل الحقيقة، و تجلّى في الأستاذ على سبيل التّأويل و إعمال الخيال، و من هنا صحّ تعريف وجه الشّبه بأنّه:

هو المعنى أو الوصف الجامع بين طرفي التّشبيه على سبيل الحقيقة أو التّخيّل [1].

فينقسم الوجه باعتبار وجوده في طرفي التّشبيه تحقّقا أو تخيّلا إلى «الوجه الحقيقيّ»، و «الوجه التّخييليّ»،

أمّا الحقيقي فمثل قول الشّاعر يصف فرسا أدهم بسرعة الجري:

و أدهـــم كـــالغراب سـواد لون يـــطير مـع الرّيـاح و لا جـناح

فوجه الشّبه بين الطّرفين هو السّواد، و هو قائم بالطّرفين (الأدهم) و (الغراب) على وجـه الحقيقة.

---

۱. البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد؛ ج ۲، ص ۳۱.

قال ـ تعالى ـ:

«و له الجوار المنشآت في البحر كالأعلام»[١] فوجه الشّبه بين الطّرفين، و هو عظم الحجم و ضخامته، موجود في كلّ من السّفن و الجبال، حقيقة.

و أمّا التّخييليّ فمثل قول النبيّ (ص):

«أتيتكم بالحنيفيّة البيضاء»[٢]، فقد وصف الشّريعة الإسلاميّة بالبياض، إشارة إلى أنّها في الشّرف بمكان كأنّها الأجرام الّتي لها بياض.

و لا شكّ أنّ وصف الشّريعة الإسلاميّة بالبياض ليس على طريق التّحقيق الحسّيّ، بل لاقترانها بما له بياض في التّشبيه أعطى حكمه وهماً، فصحّ أن يجعل البياض وجه الشّبه بينها و بين ماله البياض الحسّي لاتّصافها به وهماً. قال القاضي التّنوخي:

و كأنّ النّجوم بين دُجاها سنن لاح بينهُنّ ابتداعُ

أي إنّ شدّة الظّلام تؤدي إلى شدّة ضوء النّجوم الموجودة في هذا الظّلام مثلما أنّ السّنن الفاضلة تزيد بهاءً، كلّما قورنت بالبدع. فالمشبّه به (سنن لاح بينهنّ ابتداع) لا يحمل وجه الشّبه، و هو: «الهيئة الحاصلة من اجتماع أشياء بيض مشرقة في جوانب شيء مظلم، إلّا على تقدير».

و هذه الهيئة غير موجودة في المشبّه به على وجه التّحقيق، ضرورة أنّ الإشراق لكونه حسيّاً لا تتّصف به السّنّة لكونها أمراً عقليّاً كذلك، فوجه الشّبه غير متحقّق في المشبّه به إلّا على جهة التّخيّل و التّوهّم بافتراض غير الحاصل حاصلاً.

و يرى البلاغيّون أنّ ثمّة نوعا من التّشبيه سمّوه «تشبيه التّضاد» يناظر التّشبيه التّخييليّ، و هو الّذي يكون وجه الشّبه في أحد الطّرفين ادّعائيّا، و في الآخر حقيقيّاً، مثل قولنا في الجبان: (هو أسد)، و في البخيل: (هو حاتم)، و في العييّ: (هو سحبان)، و في الغبيّ: (أنت إياس).

فوجه الشّبه بين الطّرفين في الأوّل: الشّجاعة. و في الثّاني: الجود و الكرم. و في الثّالث: الفصاحة. و في الرّابع: الذّكاء، و من البيّن أنّ وجه الشّبه في أحد الطّرفين، هو ادّعائيّ، و في

---

١. الرحمن، ٢٤.

٢. القزويني و شروح التّلخيص؛ المغربي ٣، ص ٣٢٥. الحنيفيّة: نسبة إلى الحنيف، و هو المائل عن كلّ دين سوى الدين الحقّ.

الطّرف الآخر حقيقيّ[١].

ثمّ إنّ وجه الشّبه قد يكون مفرداً، و قد يكون متعدّداً، و قد يكون مركّبا، و كذلك قد يكون منتزعا أو غير منتزع، قريبا أو غريبا، مذكورا أو محذوفا و... فهاهنا مباحث:

١. وجه الشّبه باعتبار الإفراد و التّركيب و التّعدّد

درجت كتب البلاغة على تفصيل الحديث عن وجه الشّبه تفصيلا كثيرا، يكاد الطّالب من كثرة أجزائه و أقسامه يضلّ و يضيع، ولكنّنا نكتفي ببيان ثلاثة أقسام، لها صلة وثيقة بنوع التّشبيه:

أ) وجه الشّبه المفرد. و هو أمر واحد، سواء أكان الطّرفان مفردين أم مختلفين (مفرداً و مركّبا)، فإذا شبّهنا: الخدّ بالورد، فوجه الشّبه بينهما هو «الحمرة»، قال ـ تعالى ـ: «فإذا انشقّت السّماء فكانت وردة كالدّهان»[٢].

(فكانت وردة)، أي كالوردة في الحمرة. فوجه الشّبه هو الحمرة، و (وردة كالدّهان)، أي كالدّهان في الذّوبان، و وجه الشّبه: الذّوبان، و كلا وجهي الشّبه مفرد. و ينقسم المفرد إلى حسيّ و عقليّ:

١. الواحد الحسيّ من وجه الشّبه. و هو الّذي لا يكون طرفاه إلّا مفردين حسيّين.

و نظراً لتعدّد الحواس، فإن وجه الشّبه الحسيّ يدرك بالحواس الظاهرة:

كالحمرة، في تشبيه الخدّ بالورد، فإنّها محسوسة بحاسّة البصر.

و خفاء الصّوت، في تشبيه الصّوت الضّعيف بالهمس، فإنّه محسوس بحاسّة السّمع.

ولذّة الطّعم، في تشبيه الرّضاب بالعسل، فإنّه مدرك بحاسة الذّوق.

و طيب الرّائحة، في تشبيه النّكهة ـ و هى ريح الفم ـ بريح العنبر، فإنّه مدرك بحاسة الشّمّ.

و لين الملمس، في تشبيه الجلد النّاعم بالحرير، فإنّه مدرك بحاسة اللّمس.

٢. الواحد العقليّ من وجه الشّبه. و هو الّذي يكون طرفاه على أربعة أنواع: فإنّهما إمّا حسيّان، أو عقليّان، أو مختلفان.

---

١. أساليب البيان في القرآن؛ ص ٣١٥ـ٣١٨.

٢. الرحمن، ٣٧.

أ) الواحد العقليّ الّذي طرفاه عقليّان: كتشبيه العلم بالحياة في الانتفاع بهما، أو لكونهما جهتي إدراك، و الجهل بالموت في عدم الانتفاع بهما، أو لعدم كونهما كذلك.

ب) الواحد العقلي الّذي طرفاه محسوسان. كالجرأة في تشبيه الرّجل الشّجاع بالأسد.

ج) الواحد العقليّ الذي يكون فيه المشبّه معقولا، و المشبّه بـه محسوسا: كـمطلق الهداية، في تشبيه العقل بالنّور.

د) الواحد العقلي الّذي يكون فيه المشبّه محسوساً، و المشبّه به معقولا: كـاستطابة النّفس في تشبيه العطر بخلق كريم.

ب) وجه الشّبه المتعدّد. و هو ما كان وجهه أكثر من أمر واحد، من غير تركيب، و لا انتزاع هيئة، بل أخذت كلّ صفة على وجه الاستقلال، بمعنى، أنّ كلّ واحد ممّا ذكر لو اقتصر عليه كفى في التّشبيه، بخلاف المركّب، فإنّه يجب أن يكون بحيث لو أسقط جزء ممّا اعتبرت فيه الهيئة أو ممّا اعتبر جميعها حقيقة واحدة، بطل التّشبيه في قصد المتكلّم، نحو قول أبي بكر الخالدي:

يا شبيه البدر حسناً ... وضياءً و منالاً

و شبيه الغصن ليناً ... و قواماً و اعتدالاً

أنت مثل الورد لوناً ... و نسيماً و ملالا

فالوجه في البيت الأوّل: متعدّد، مؤلّف من ثلاثة: الحسن، و الضّياء، و المنال.

و في الثّاني: متعدّد و مؤلّف من: اللّين، و القوام، و الاعتدال.

و في الثالث: من اللّون، و النّسيم، و الملال.

فذكر في الأبيات عدد من أوجه الشّبه بحيث لو حذف البعض، و اقتصر على البعض لم يختل التّشبيه.

و ينقسم المتعدّد من وجه الشّبه، إلى حسيّ و عقليّ، و مختلف:

١. المتعدّد الحسيّ، كما في قوله:

مُهَفْهَفٌ وجنتاه ... كالخمر لونا و طعما

فإنّ وجه الشّبه فيه هو: اللّون و الطّعم، و هما حسيّان.

٢. المتعدّد العقلي، كالنّفع و الضّرر، في قوله:

طَلِقٌ شديدُ البأس راحتُهُ ... كالبحر فيه النّفع و الضّررُ

فإنّ وجه الشّبه متعدّد، هو: النّفع و الضّرر، و هما عقليّان.

٣. المتعدّد المختلف، و هو أن يكون بعضه حسيّا، و بعضه الآخر عقليّا، كما في قوله:

هذا أبو الهيجاء في الهيجاء[1] كالسّيف في الرّونق و المضاء

فإنّ وجه الشّبه فيه، هو الرّونق ـ و هو حسيّ ـ و المضاء ـ و هو عقليّ.

و اعلم أنّ الحسيّ لا يكون طرفاه إلّا حسيّين، و أمّا العقليّ فلا يلزمه كونهما عقليّين، لأنّ الحسيّ يدرك بالعقل، خلافا للعقليّ فإنّه لا يدرك بالحسّ[2].

ج) وجه الشّبه المركّب. و هو الهيئة الّتي تنتزع من الهيئتين، و تكون شاملة لها، و ينقسم إلى حسيّ و عقليّ:

١. المركب الحسيّ. و اعلم أنّ المركّب الحسيّ لا ينقسم باعتبار الطّرفين، كالعقليّ، حيث إنّ المركّب الحسيّ لا يكون طرفاه إلّا حسيّين، ولكن ينقسم باعتبار آخر، و هو أنّ طرفيه إمّا مفردان، أو مركّبان، أو مختلفان، فالمركّب الحسيّ هيئة جامعة للهيئتين ـ كما تقدّم ـ اللّتين شبّهت إحداهما بالأخرى.

و لا ريب أنّها ليست بحسيّة لكونها كليّة و كذلك أفرادها، لأنّ الهيئة أمر ينتزعها العقل، و لا مساس للحواس الظّاهرة بها، إلّا أنّ الوجه في التّسمية بالحسيّ هو كون منشأ انتزاعها حسيّاً، فإنّ الأشياء المتعدّدة كما أنّها منشأ انتزاع الهيئتين، كذا فهي منشأ انتزاعها ـ أيضا ـ بالواسطة. و المركّب الحسيّ، على ثلاثة أقسام:

أ) مركّب حسيّ طرفاه مفردان: و يجب أن يكون المفردان مقيّدين ولو تقييدا اعتبارياً، كقول الشّاعر:

و قد لاح في الصّبح الثّريّا كما ترى كعُنقود مُلّاحيّةٍ حين نَوّرا

فإنّ وجه الشّبه فيه، هو الهيئة الحاصلة من طلوع صورة بيضاء مشرقة، مستديرة، في رقعة زرقاء، مبسوطة، و هي حسيّة لا نتزاعها من محسوسين مفردين مقيّدين.

ب) مركّب حسيّ، طرفاه مركّبان: كما في قول بشّار:

كأنّ مثار النّقع فوق رؤوسنا و أسيافنا ليل تهاوى كواكبه

---

١. الهيجاء: من أسماء الحرب؛ ابو الهيجاء: لقب عبدالله بن حمدان العدوي.

٢. جواهر البلاغة؛ ص ٢٦٠ـ٢٦١.

فهو لايريد تشبيه مفرد بمفرد، ليكون مثار النّقع مشبّها، و اللّيل مشبّهابه، و لتكون السّيوف مشبّهة، و الكواكب مشبّها بها، بل عمد إلى تشبيه هيئة السّيوف و قد سُلّت من أغمادها، و هي تعلو و ترسب، و تجيئ و تذهب، و ترسم خطوطا براقة إلى جهات مختلفة، بهيئة الكواكب في تهاويها: تواقعاً، و تداخلا، و استطالة لأشكالها.

و وجه الشّبه، عبارة عن: الهيئة الحاصلة من هُوِيّ أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار، متفرّقة في جوانب شيء مظلم.

ج) مركّب حسيّ، مختلف الطّرفين: كقول الشّاعر:

و حدائق لَبِس الشّقيق نباتها ‌ ‌ ‌ كالأرجوان منقّطا بالعنبر

فإنّ وجه الشّبه فيه، هو الهيئة الحاصلة من انبساط رقعة حمراء، قد نقطت بالسّواد المنثور عليها.

و المشبّه مفرد و هو الشّقيق. و المشبّه به مركّب من الأرجوان و العنبر.

و كقول الشّاعر:

لا تعجبوا من خاله في خدّه ‌ ‌ ‌ كلّ الشّقيق بنقطة سوداء

فإنّ وجه الشّبه فيه، هو الهيئة الحاصلة من طلوع نقطة سوداء مستديرة في وسط رقعة حمراء مبسوطة، و هي أمر حسيّ.

و المشبّه مركّب من الخال و الخدّ، و المشبّه به مفرد، و هو الشّقيق.

٢. المركّب العقليّ. و هو ما كان منتزعا من أمور عقليّة، أو بعضها حسيّ، و بعضها عقليّ، ليتأتّى انتزاع الهيئة العقليّة الّتي قصد أن تكون وجه الشّبه. كقوله ـ تعالى ـ: «مثل الّذين حمّلوا التّوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا»[١].

فوجه الشّبه بين الّذين كلّفوا بالعمل بماورد في التّوراة، و لم يعملوا، و بين الحمار الّذي يحمل الأسفار، دون قدرة على الانتفاع منها، هو حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء نافع مع تحمّل التّعب، و الكدّ في استصحابه.

و أمّا المشبّه فقد لوحظ فيه عدّة أمور: حمل اليهود التّوراة، و عدم انتفاعهم بها، و كون محمولهم وعاء العلم، و انتزعت من المجموع هيئة خاصّة معقولة أعني: حرمانهم من التّوراة مع تحمّل التّعب في استصحابه.

---

١. الجمعة، ٥.

و كذلك فقد لوحظ في المشبّه به أمور: حمل الحمار للكتب، و كون محموله أوعية العلم، و عدم انتفاعه بذلك المحمول، و انتزعت من المجموع هيئة خاصّة معقولة، ثمّ شبّهت الهيئة الأولى بالثّانية في هيئة عامّة شاملة لها و منتزعة عنها، و هي مطلق حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمّل التّعب في استصحابه، فيكون الوجه مركّبا عقليّا، و كذلك الطّرفان.

و كقوله ـ تعالى ـ:

«مثل الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتا، و إنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون»[١].

فالمركّب العقليّ هو: ضعف الحال و عدم الصّلاحيّة للاعتماد. و هو منتزع من أمور ـ المشبّه و المشبّه به ـ قرن بعضها إلى بعض، و المشبّه: حال من اتّخذ الأصنام أولياء و عبدها و اعتمد عليها راجيا نفعها و شفاعتها، و هو مركّب عقليّ.

و المشبّه به: حال العنكبوت الّتي اتّخذت بيتا، و هو مركّب محسوس من حيث إنّه لم يحصل للعنكبوت باتّخاذها شيء من معاني البيت، فكذلك الكافر لم يحصل له باتّخاذ الأوثان آلهة شيء من معاني الآلهة.

و هو من تشبيه المركّب بالمركّب، لأنّ في كلّ واحد من الطّرفين اتّخاذا و متّخذا، و اتّكالا عليه، مع عدم ترتيب شيء من المعاني المطلوبة من المعتمد عليه.

الفرق بين التّشبيه المركّب الوجه، و التّشبيه المتعدّد الوجه:

و اعلم أنّ المراد بالمتعدّد أن يذكر في التّشبيه عدد من أوجه الشّبه على وجه يصحّ الاستقلال بكلّ منها، بمعنى أنّ واحداً ممّا ذكر لوا قتصر عليه لكفى في التّشبيه، و يصحّ تقديم بعضه على بعض و إسقاط أحد هذه الأشياء دون الاختلال في المعنى، و لا يتغيّر حال الباقي، بخلاف وجه الشّبه المركّب، فإنّه لا يجوز فيه التّقديم أو الحذف لأنّ ذلك يؤدي إلى اختلاله و تغيير صورته، لأنّ المركّب يقصد فيه اشتراك الطّرفين في الهيئة الحاصلة من مجموع تلك الأمور بجملتها، و لذلك «ينزل منزلة الواحد» و إن كان وجه الشّبه مركّبا.

و لا يصحّ فيها تقديم بعض ما اعتبر على بعض، لفوات المعنى الّذي هو ترتيب أحدها على الآخر، فمثلا قول ابن رشيق:

و تفّاحةٍ من كفّ ظبي أخذتُها   جناها من الغُصن الّذي مثل قدِّهِ

---

١. العنكبوت، ٤١.

حكت لَمسَ نَهديه و طيبَ نسيمه	و طعمَ ثناياه و حمرة خَدِّهِ

يكون فيه وجه الشّبه متعدّدا من اللّين و الطّيب و الطّعم و اللّون و يمكن حذف أحدها أو تقديمه و تأخيره، و يبقى التّشبيه مستقيما غير مختلّ. بخلاف قول السّري الرّفاء في وصف القلم:

أخرس ينبيك بأطرافه	عن كلّ ما شئت من الأمر
يذري على قرطاسه دمعةً	تُبدي لنا السّرّ و ما يدري
كعاشق أخفى هواه و قد	نَمَّتْ عليه عبرة تجري

إذ يجمع بين الطّرفين فيه وجه شبه لو أسقطت منه جزءًا ممّا اعتبرت فيه الهيئة لبطل التّشبيه في قصد المتكلّم، لأنّها صورة روعي فيها أن تكون تامّة التّأليف كاملة الأجزاء، يسودها التّناسب و الانسجام و التّنسيق[1].

الأسئلة و التّمارين

۱. ما هو وجه الشّبه؟ كم نوعا وجه الشّبه باعتبار التّحقّق و التخيّل؟ و كم نوعا هو باعتبار الإفراد و التّركيب و التّعدّد؟ أعط مثالا لكلّ نوع من الوجوه المذكورة آنفا. هل يمكن اتّخاذ الوجه المحسوس من الطّرفين العقليّين؟ و هل يجوز اتّخاذ الوجه المركّب من الطّرفين المفردين؟ ما هو الوجه الشّبه الادّعائيّ؟ و ما هو تشبيه التّضاد؟ ما الفرق بين التّشبيه المركب الوجه و بين التّشبيه المتعدّد الوجه؟ هات أمثلة من كلّ نوع من التّشبيه باعتبار وجه الشّبه.

۲. بيّن وجه الشّبه باعتبارات مختلفة فيما يأتي:

قال النّبيّ (ص): الصوم جنّة[2].

قال عليّ (ع): من عبدالله عليّ أميرالمؤمنين، إلى أهل الكوفة، جبهة الأنصار، و سنام العرب[3].

قال المعرّي:

أنت كالشّمس في الضّياء و إن جا	وَزْتَ كيوان في عُلُوّ المكان.

قال المتنبّي:

---

۱. أساليب البيان في القرآن؛ ۳۱۹ـ۳۲۹. ۲. المجازات النبويه؛ ص ۱۷۹.
۳. نهج البلاغة؛ الكتاب الأوّل.

عــزّ الجـيش حــولك جــانبيه كـما نـفضت جـناحيها العـقاب

قول الشّاعر:

حـفت بـسرو كـالقيان تـلحفت حـضر الحـرير عـلى قـوام معتدل

فكأنّهـا و الرّيح جـاء يـميلها تـبغي تـعانق ثمّ يمـنعها الخـجل

قال ـ تعالى ـ:

«و الّذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظّمآن ماء حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً و وجد الله عنده فوفّاه حسابه و الله سريع الحساب»[۱].

قال الشاعر:

و إنّ مـن أدّبـته في الصّـبا كـالعود يسـقى المـاء في غـرسه

حـتّى تـراه مـورقا نـاضرا بـعد الّـذي أبصرت مـن يـبسه

قال أبو الفضل المكيالي:

كـم والدٍ يحـرمُ أولادَه و خَـيرُه يحـظى بـه الأبـعد

كـالعين لا تـنظر مـا حـولها و لَحـظُها يُـدرِك مـا يَـبعُدُ

قال النّبيّ (ص): الإيمان قيد الفتك[۲].

قال عليّ (ع)، واصفا النبيّ (ص): فهو من اليقين على مثل ضوء الشّمس[۳].

قال الأرجاني:

أخـلاقه نُكَت في الجـد أيْـسرها لطـف يـؤلّف بـين المـاء و النّـار

لو زُرتَـه لرأيتَ النّـاس في رَجُـل و الدّهَر في سـاعةٍ و الأرضَ في دار

قال أبو فراس:

كأنّ ثـباته للـقلب قـلبٌ و هـيبته جَـنَاح للـجَنَاح

۲. وجه الشّبه باعتبار الانتزاع و عدمه

ينقسم التّشبيه باعتبار انتزاع وجهه و عدمه إلى «تشبيه تمثيليّ» و «تشبيه غير تمثيليّ»، و فيه خلاف سيأتي بيانه ـ إن شاء الله.

---

۱. النّور، ۳۹.

۲. المجازات النبوية؛ ص ۳۲۹.

۳. نهج البلاغة؛ الخطبة ۸۷.

٣. وجه الشّبه باعتبار ذكره و حذفه

ينقسم التّشبيه باعتبار ذكر وجهه و حذفه إلى: «تشبيه مفصّل» و «تشبيه مجمل».

أ) التّشبيه المفصّل. و هو ما ذكر فيه وجه الشّبه نفسه، أو ما يستلزمه على الطّريقة المعروفة في الوصف الجامع، فالأوّل، كقولك: هو بحر جودا، و هو جبل في الاستقامة. و الثاني نحو: كلامه كالعسل حلاوة، و هذه الحجّة كالشّمس في الظّهور.

فالحلاوة و كذا الظّهور ليسا نفس وجه الشّبه هاهنا، لأنّهما غير موجودين في المشبّه حقيقة، فهما وصفان يستلزمان وجه الشّبه الأصلّي، أعني الملائمة مع الطّبع و الموافقة له في المثال الأوّل، و عدم الإنكار و فقدان الشكّ في المثال الثّاني[1].

قال ابن الرّومي:

يــا شــبيه البــدر في الحُسْـ ـــــن و في بُــعد المَــنال

جُــد فــقد تــنفجر الصَّـخـ ـــــرَة في المــــاء الزُّلال.

ب) التّشبيه المجمل. و هو ما لم يذكر فيه نفس وجه الشّبه أو ما يستلزمه على الطّريقة المعروفة في الجامع بين الطّرفين، سواء لم يذكر معهما وصف ينبئ عن التّشبيه، كقولك: العلم نور، أو ذكر ولكن لا على الطّريقة المعروفة ـ أعني على صورة التّمييز أو المجرور بفي ـ و ذلك مثل: هم كالحلقة المُفْرَغَةِ لا يُدرى أين طرفاها. فوجه الشّبه: التّناسبُ و المساواة و عدم التّفاوت، و هو غير مذكور في الجملة، ولكنّه دلّ عليه بقوله: «لا يدرى أين طرفاها» الّذي لم يجئ على الطّريقة المعروفة في الوصف الجامع.

و كقول أبي تمام في الحَسن بن سهل:

صدفت عنه و لم تصدف مواهبه عنّي، و عـاوده ظـنّي فـلم يخب

كالغيث إن جـئته وافـاك ريّـقه و إن ترحّلتَ عنه لَجَّ في الطّلب

فوجه الشّبه الإفاضة في حالتي الطّلب و عدمه، و هو غير مذكور، غير أنّه ذكر مع كلّ من المشبّه و المشبّه به ما ينبئ عنه، ولكن لا على الطّريقة المعروفة في الوصف الجامع، فلهذا عدّ نحو هذه الأمثلة من مصاديق المجمل[2].

---

١. دراسة و نقد ...؛ ص ٢٢٢ـ٢٢٣.

٢. نفس المصدر و نفس الرقم.

٤. وجه الشّبه ظهوره و عدمه

ينقسم التّشبيه باعتبار ظهور وجهه و سهولة إدراكه و عدمه إلى: «قريب مبتذل» و «بعيد غريب»:

أ) القريب المبتذل. و هو ما كان ظاهر الوجه ينتقل، فيه الذّهن من المشبّه إلى المشبّه به، من غير احتياج إلى شدّة نظر و تأمّل لظهور وجهه بادي الرأي، و ذلك لكون وجهه لا تفصيل فيه، كتشبيه الخدّ بالورد في الحمرة، أو لكون وجهه قليل التّفصيل، كتشبيه الوجه بالبدر، في الإشراق أو الاستدارة، أو العيون بالنّرجس.

و قد يتصرّف في القريب بما يخرجه عن ابتذاله إلى الغرابة، كقول الشّاعر:

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا ... إلّا بوجه ليس فيه حياء

فإنّ تشبيه الوجه الحسن بالشّمس مبتذل، ولكن حديث الحياء أخرجه إلى الغرابة.

ب) البعيد الغريب. و هو ما احتاج في الانتقال من المشبّه إلى المشبّه به، إلى فكر و تدقيق نظر، لخفاء وجهه بادي الرّأي، كقوله: «و الشّمس كالمرآة في كفّ الأشل»، فإنّ وجه الشّبه فيه: هو الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق، و الحركة السّريعة المتّصلة مع تموّج الإشراق، حتّى ترى الشّعاع كأنّه يهمّ بأن ينبسط حتّى يفيض من جوانب الدّائرة، ثمّ يبدوله فيرجع إلى الانقباض[1].

و كقول القاضي التّنوخي:

و كأنّ النّجوم بين دُجاها ... سنن لاح بينهنّ ابتداع

و قدمرّ بيانه.

و أيضا قول الشاعر:

و قد لاح في الصّبح الثّريا كما ترى ... كعنقود مُلّاحيّة حين نَوّرا

و قدمرّ بيانه أيضا.

الأسئلة و التّمارين

١. كم نوعا التّشبيه باعتبار ذكر وجهه و حذفه؟ و كم نوعا هو باعتبار ظهور وجهه و خفائه؟ ما هو التّشبيه المفصل؟ و ما هو المجمل؟ متى يكون التّشبيه قريبا مبتذلا؟ و متى يكون غريبا بعيدا؟ هل يمكن أن يصير القريب غريبا و بالعكس؟

---

١. جواهر البلاغة؛ ص ٢٦٢_٢٦٣.

٢. بيّن أنواع التّشبيه باعتبار وجهه فيا يأتي:

قال ـ تعالى ـ:

«و لا تكونوا كالّتي نقضت غزلها من بعد قوّة انكاثا»[١].

قال النبيّ (ص):

«إنّ الشّيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ القاصية و الشّاذّة»[٢].

قال عليّ (ع):

ألا إنّ مثل آل محمّد (ص) كمثل نجوم السّماء إذا خوى نجم طلع نجم[٣].

قال الشّاعر:

قصور كالكواكب لامعات ... يكَدْن يُضِئْن للسّاري الظّلاما

قال البحتريّ:

ألست ترى مدّ الفرات كأنّه ... جبال شروري جئن في البحر عوّما

قال الشّاعر:

إن كان خطّك دُرّا ... فليس ذلك نُكرا

لأنّ كفّك بحرٌ ... و البحر يَقذِف دُرّا

قال بديع الزّمان الهمذاني:

يكاد يحكيك صوبُ الغيث مُنسكِباً ... لو كان طَلْقَ المحيّا يُمطر الذّهبا

و الدّهر لو لم يخُن و الشّمس لو نطقت ... و اللّيث لو لم يُصَدْ، و البحر لو عذبا

قال المعرّي:

ظلمناك في تشبيه صُدغيك بالمسك ... و قاعدة التّشبيه نقصان ما يَحكي

قال البُحتري:

في طلعة البدر شيء من محاسنها ... و للقضيب نصيب من تثنّيها

الفصل الثالث: أداة التّشبيه

و هي اللفظ الّذي يدلّ على التّشبيه، و يربط المشبّه بالمشبّه به، و هي على ثلاثة أقسام: حرف، و اسم و فعل.

---

١. النحل، ٩٢.

٢. المجازات النبويّة؛ ص ٣١٨.

٣. نهج البلاغة؛ الخطبة ١٠.

١. أدوات التّشبيه الحرفيّة، هي: الكاف و كأنّ.

الكاف. و هي الأصل في باب التّشبيه لسعة دورانها في هذا المعنى مذكورا أو محذوفا، و يليها المشبّه به، لأنّ المشبّه مخبر عنه، محكوم عليه، فلو دخلت الكاف عليه لامتنع الإخبار عنه، كقوله ـ تعالى ـ: «فجعلهم كعصف مأكول»[١].

كأنّ. و تنفرد عن الكاف في مجيئ المشبّه بعدها، كقوله ـ تعالى ـ: «و ألق عصاك، فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانّ ولّى مدبرا...»[٢].

و تستعمل كأنّ حين يقوى الشّبه بين الطّرفين، و لا يكاد الرائي يشكّ في قوّة التّماثل بين المشبّه و المشبّه به، و لذلك قالت بلقيس ـ و قد أتى سليمان بعرشها من اليمن و أمر أن ينكّرلها ـ حين وقع بصرها عليه: «كأنّه هو» في قوله ـ تعالى ـ: «فلمّا جاءت، قيل أهكذا عرشكِ قالت كأنّه هو»[٣]. و لم تقل: هكذا هو، لأنّ التّعبير الأخير يفيد التّغاير مع وجود الشّبه لا غير، بخلاف كأنّه هو، فإنّه يفيد شدّة التّطابق بين العرشين، و أنّهما سواء.

و البلاغيّون على خلاف في إطلاق إفادتها للتّشبيه، فبعضهم يرى أنّها تفيد التّشبيه بلاتقييد، و بعضهم الآخر يزعم أنّه إن كان خبرها اسماً جامداً، فهي للتّشبيه كقول الشّاعر:

كم نعمةٍ مرّت بنا و كأنّها فرس يُهَرْوِلُ أو نسيم عاري

و إن كان جملة أو مشتقّاً، فعلاً أو صفةً، فهي للشكّ بمنزلة «ظننت و توهّمت» كقول عروة بن حزام العذري:

كأنّ قطاةً علّقت في جناحها على كبدي من شدّة الخفقان

فمثل هذا لا يكون تشبيها، لأنّ خبرها المشبّه به في المعنى هو المشبّه، و الشيء لا يشبه بنفسه (و فيه بحث).

و المتتبّع للنّصوص الأدبيّة، و هي المعوّل عليها في الحكم، يدرك أنّ هذا الحرف يفيد التّشبيه أحيانا، و الشكّ ثانية، و الحاكم فيه الذّوق السّليم.

٢. الأسماء الّتي تفيد التّشبيه، و هي كثيرة يمكن أن تستخرج من احتسابها و استعمالها، امر مشترك و هو «مثل» أو ما في معناها، كلفظ «نحو» و «شبه» و «شبيه» و «مثيل»، أو ما يشتقّ من المماثلة و ما يؤدّي هذا المعني، كـ(مماثل) و (مشابه) و (مضاهي) و

---

١. الفيل، ٥. ٢. النّمل، ١٠.
٣. نفس السورة، ٤٢.

(محاكي) و (منزلة)، مضافا إلى كلمتي «سيّان و سواء»[١].

قال الشّاعر:

و الوجــه مـثل الصّـبح مـبيضّ و الفــرع شــبه اللّــيل مسـودّ
صــنوان لّمــا اسـتجمعا حَسُـنا و الضّــدُ يُـظْهِر حُسْـنَهُ الضّـدُ

و أيسر أدوات التّشبيه الاسميّة في النّصوص الأدبيّة «شبيه»، كقول عليّ (ع): سل تفقّها، و لا تسأل تعنّتا، فإنّ الجاهل المتعلّم شبيه بالعالم، و إنّ العالم المتعسّف شبيه بالجاهل المتعنّت.

و أما الأداتان «سيّان و سواء» فنحو: سعيد و الأسد سيّان أو سواء في الشّجاعة.

٣. الأفعال الّتي تدلّ على التّشبيه، و هي: يشبه ـ يشابه ـ يماثل ـ يضارع ـ يضاهي ـ يحسب ـ يخيل ـ يخال ـ يحاكي، و غيرها ممّا يماثلها في المعنى.

و يمكن اعتبار بعض الأفعال في منزلة أدوات التّشبيه كالفعل «علم» في قولك: «علمت خالدا أسدا» و نحوه، و إنّما تستعمل «علمت» لإفادة التّشبيه إن قرب ذلك التّشبيه، أي إنّ مشابهة خالد للأسد مشابهة قويّة، لما في «علمت» من الدّلالة على تحقّق التّشبيه و تيقّنه[٢].

تكلة

في تقسيم التّشبيه باعتبار ذكر الأداة و حذفها، ينقسم التّشبيه باعتبار ذكر الأداة و حذفها إلى: «تشبيه مُؤكّد» و «تشبيه مُرْسَل».

١. التّشبيه المؤكّد. و هو ما حذفت منه الأداة، أي تركت بالكلّيّة و صارت نسيا منسيّاً، بحيث لا تكون مقدّرة في نظم الكلام لأجل الإشعار بأنّ المشبّه عين المشبّه به، بخلاف ما لو كانت الأداة مقدّرة فلا يفيد الاتّحاد، و لا يكون التّشبيه مؤكّدا، كقوله ـ تعالى ـ «و ترى الجبال تحسبها جامدة و هي تمرّ مرّ السّحاب»[٣]. أي تمرّ في الجوّ كمرّ السّحب الّتي تسيرها الرّياح سيرا حثيثا.

---

١. القزويني و شروح التّلخيص؛ المغربي ٣، ص ٣٩٣.
٢. جواهر البلاغة؛ ص ٢٦٨ و أساليب البيان في القرآن؛ ص ٢٤٣ـ٢٤٩.
٣. النّمل، ٨٨.

و قوله ـ تعالى ـ:

«يُسقون من رحيق مختوم، ختامه مسك و في ذلك فليتنافس المتنافسون»[١].

و من المؤكّد ما أضيف المشبّه به إلى المشبّه بعد حذف الأداة، نحو قول الشاعر:

و الرّيح تعبث بالغصون و قد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء[٢]

فنجد في البيت تشبيهين بليغين هما «ذهب الأصيل» الذي أصله: الأصيل ذهب. و «لجين الماء» الّذي كان في الأساس: الماء لجين. و واضح ـ لدى التّأمل درجة المشاركة بين طرفي التّشبيه في هذين التّشبيهين، و ما يجري مجراهما ـ أنّها على أشدّ ما تكون من قوّة و اتّحاد، إذ خصّ المشبّه به بالأصيل المشبّه و جعل منسوبا إليه مالكاً لصفته، و كذلك الاتيان باللّجين مركّبا مع الماء و منسوبا إليه، فهما يتصوّران في بناء جماليّ موحّد ترتفع بينهما الفواصل و تزول في ساحتها المفارقات المعنويّة[٣].

٢. التّشبيه المرسل. و هو ما ذكرت فيه أداته فصار مرسلا من التأكيد المستفاد من حذف الأداة المشعر بحسب الظّاهر أنّ المشبّه هو المشبّه به كما مرّ؛ و ذلك مثل قول النبيّ (ص): «النّاس كأسنان المشط»[٤]. حيث شبّه النّاس بأسنان المشط، و قد ذكرت فيه الأداة و حذف وجه الشّبه، و هو الاستواء، و الغرض هو عرض فكرة المساواة بين النّاس في صورة واضحة.

الأسئلة و التّمارين

١. ما هو التّشبيه المرسل؟ ما هو التشبيه المؤكّد؟ كم نوعا أداة التّشبيه؟ ماذا يشترط في دلالة كأنّ على التّشبيه؟ هل الأسماء الّتي تدلّ على التّشبيه محصورة؟ ماذا يشترط في حذف أداة التّشبيه في المؤكّد؟ ماذا يشترط في دلاله «علم» على التّشبيه؟

بيّن أدوات التّشبيه فيما يأتي ثمّ أوضح نوع التّشبيه:

قوله ـ تعالى ـ:

«ثمّ استوى إلى السّماء و هي دخان»[٥].

---

١. المطففين، ٢٥ـ٢٦.

٢. المطول؛ ص ٢٧٥.

٣. البلاغة و التّطبيق؛ ص ٢٩١ـ٢٩٢.

٤. كفاية الطالب؛ ص ١٦٨.

٥. فصّلت، ١١.

و أيضا:

«و سيّرت الجبال فكانت سرابا»[1].

و أيضا:

«و ترى النّاس سكارى و ما هم بسكارى»[2].

قال أبو القاسم الشابي:

أنت... ما أنتِ؟ أنتِ فجر من السحر — تجــلّى لقلبي المعمود
فأراه الحياة في مونق الحسن — و جلّى له خفايا الخلودِ
أنتِ روح الرّبيع، تختال في الدنيا — فتهتزّ رائعات الورود
و تهبّ الحياة سكرى من العطر — و يدوى الوجود بالتّغريد

قال النبي (ص) (في الخيل):

«ظهورها حرز و بطونها كنز»[3].

و أيضا قوله (ص):

«إنّ الإسلام بدا غريباً و سيعود غريبا»[4].

التّشبيه التّمثيليّ

قد مرّ أنّ التّشبيه ينقسم إلى: «تشبيه تمثيليّ» و «تشبيه غير تمثيليّ»، و هذا على رأي جمهور البلغاء، و أمّا غيرهم فذهب إلى مذاهب شتّى لا يسعها هذا المختصر، و الّذي على عهدته، بيانه إجمالا على النّحو التّالي:

التّشبيه التّمثيليّ، هو هيئة منتزعة مأخوذة من متعدّد سواء كان الطّرفان مركّبين، أو كان أحدهما مفردا و الآخر مركّبا؛ و سواء كان ذلك الوصف المنتزع حسيّا أو عقليّا أو اعتباريّا وهميّا.

هذا ـ كما قلنا ـ مذهب الجمهور، كالخطيب القزويني و من سار مسيره، و لا يشترطون غير تركيب الصّورة، سواء أكانت العناصر الّتي تتألّف منها صورته، أو تركيبه: حسيّة أو معنويّة، و ذلك لأنّ الصّفات الّتي ننتزعها من طرفي التّشبيه لنجمع بينهما تلق

---

١. النبأ، ٢٠.
٢. الحجّ، ٢.
٣. سنن ابي داود؛ رقم ١٤١٠.
٤. السنن التّرمذي؛ رقم ٢٦٣١.

خطوطا و ألوانا و هيئة و حركة لتشكّل صورة مشتركة جديدة، لا هي محضة للمشبّه، و لا هي خالصة للمشبّه به، كقوله ـ تعالى ـ: «مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة و الله يضاعف لمن يشاء، و الله واسع عليم»[١].

فالمشبّه هو حال من ينفق قليلا في سبيل الله، ثمّ ينال عليه جزاءً عظيما.

و المشبّه به، هو حال باذر حبّة فأنبتت له سبع سنابل، في كلّ سنبلة مائة حبّة.

و وجه الشّبه، هو صورة من يعمل قليلا، ثمّ يجني من ثمار عمله كثيرا.

و كقول البشّار:

كأنّ مُثار النّقع فوق رؤوسنا و أسيافنا ليل تهاوي كواكبه

فوجه الشّبه فيه هو الهيئة الحاصلة من هويّ أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار متفرّقة في جوانب شيء مظلم، و لا يخفى أنّها حسيّة.

و كقوله ـ تعالى ـ أيضا: «مثل الّذين حمّلوا التّوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا»[٢].

فوجه الشّبه بين أحبار اليهود الّذين كُلّفوا العمل بما في التّوارة ثمّ لم يعملوا بها، و بين الحمار الحامل للأسفار، هو حرمان الانتفاع بأبلغ شيء نافع مع الكدّ و التّعب في استصحابه، و هذا الوصف منتزع من متعدّد و ليس بحسيّ.

و أمّا الشّيخ عبدالقاهر، فيرى رأيا مستقلّا في هذا التّشبيه، و هو عنده عبارة عن رجوع اشتراك الطّرفين في الوجه إلى التّأويل، و أمّا إذا كان الوجه فيه أمرا بيّناً بنفسه لا يحتاج إلى تأويل، فالتّشبيه غير تمثيليّ.

و لقد أوضح الشّيخ بينهما بقوله: «إنّ الاشتراك في الصّفة يقع مرّة في نفسها و حقيقة جنسها، و مرّة في حكم لها و مقتضٍ، فالخدّ يشارك الورد في الحمرة نفسها، و تجدها في الموضعين بحقيقتها.

و اللّفظ يشارك العسل في الحلاوة، لا من حيث جنسه، بل من جهة حكم و أمر يقتضيه. و هو ما يجده الذّائق من نفسه من اللّذة، شبيهة بالحالة الّتي يجدها الذّائق للحلاوة من العسل»[٣].

---

١. البقرة، ٢٦١. ٢. الجمعة، ٥.

٣. اسرار البلاغة؛ ص ١١٠ ـ ١١٢.

أمّا التّشبيه التّمثيليّ ـ عند السّكاكي ـ: فهو ما كان وجه الشّبه فيه، مركّبا وهميّا اعتباريّا غير متحقّق حسّا و لا عقلا. فليس من التّمثيل ـ عنده ـ أن يكون وجه الشّبه حسيّا مركّبا، أو عقليّاً حقيقيّاً مفرداً أو مفردا غير حقيقيّ. و في هذا الأخير يخالف السّكاكي عبدالقاهر، الّذي يرى أنّه تمثيل، لحاجته إلى التّأوّل.

و يترتّب على هذا الخلاف أمور:

١. إنّ قولك: «فاكهة كالعسل» تشبيه فقط، و ليس تمثيلا عند أحد منهم، لفقده شرط عبدالقاهر، بكونه حسيّاً، و شرطي السّكاكي، بكونه حسيّا مفردا، و شرط القزوينيّ و الجمهور، بكونه مفرداً.

٢. إنّ قولك: «لفظ كالعسل» ينفرد عبدالقاهر به، باعتباره تمثيلا، لكونه عقليّا غير حقيقيّ، و ليس تمثيلا عند السّكاكيّ و الخطيب، لفقد التّركيب الّذي يشترطانه.

٣. و إنّ قول بشّار:

«كأنّ مثار النقع...» ينفرد القزوينيّ و الجمهور، باعتباره تمثيلا، لتوافر شرطهم و هو التّركيب، و لا يعدّه عبدالقاهر، و لا السّكاكيّ من التّمثيل لأنّه حسيّ.

٤. و إنّ قول الشّاعر:

إصبر على مَضَض الحَسود فإنّ صبرك قاتِلُه
فالنّار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكلُه

تمثيل عند الجميع، لتحقّق شرط عبدالقاهر، و هو كونه عقليّا غير حقيقيّ، و شرط القزوينيّ، و هو كونه مركّبا، و شرط السّكاكيّ، و هو التّركيب الوهميّ الاعتباريّ.

و عليه فإنّ:

الجمهور لا يعتبرون الوهميّة، و السّكاكيّ يشترط ذلك.

و الجمهور يعتبرون التّركيب، و عبدالقاهر لا يشترط ذلك.

و السّكاكيّ يعتبر فيه التّركيب و الوهميّة، و عبدالقاهر لا يعتبر شيئاً منهما[1].

الأسئلة و التّمارين

١. ما هو التّشبيه التّمثيليّ عند الجمهور؟ و ما هو عند الشّيخ عبدالقاهر و السّكاكي؟ ماذا

---

١. أساليب البيان في القرآن؛ ص ٣٣٥ـ٣٣٦ نقلا من علم البيان، بدوي طبانة؛ ص ٩٦.

يشترط الجمهور في تحقّقه؟ ما الفرق بين رأي الشيخ و بين رأي السّكاكيّ فيه؟ هل رأي الجمهور أصوب من رأيي الشّيخ و السّكاكي؟

٢. بيّن التّشبيه التّمثيليّ و غير التّمثيليّ فيما يأتي ثمّ قارن كلّ مثال بما ذكرناه من الآراء الثّلاثة و عيّن كلّ واحد منها: قال ـ تعالى ـ:

«اعلموا انّما الحياة الدّنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر في الأموال و الأولاد كمثل غيث أعجب الكفّار نباته ثمّ يهيج فتراه مصفرّاً...»[١].

قال النبي (ص):

«المرأة كالضلع العوجاء إن قوّمتها كسّرتها، و إن داريتها استمتعت بها»[٢].

قال علي (ع):

«ألا و إنّ معاوية قادلّة من الغواة... حتّى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة»[٣].

قال ابن المعتزّ:

كأنّ سماءنا لمّا تجلّت ... خلال نجومها عند الصّباح
رياض بنفسج خضل نداه ... تفتّح بينه نور الأقاحي

قال القاضي التنوخي:

كأنّما المرّيخ و المشترى ... قدّامه في شامخ الرّفعة
منصرف باللّيل عن دعوة ... قد أسرجت قدّامه شمعة

التّشبيه الضّمنيّ

في بداية حديثنا عن التّشبيه كنّا نقول: للتّشبيه أربعة أركان: المشبّه، و المشبّه به، و وجه الشّبه، و أداة التّشبيه. و في سياق تفصيل الحديث عن هذه الأركان رأينا أنّه يجوز في التّشبيه أن يحذف «وجه الشّبه»، أو تحذف الأداة، أمّا حذف طرفي التّشبيه أو أحدهما فغير جائز.

لكنّا الآن أمام لون من التّشبيه شذّ عن تلك القواعد كلّها، و نعني به: التّشبيه الضّمنيّ. و هو تشبيه لا يوضع فيه المشبّه و المشبّه به في صورة من صور

---

١. الحديد، ٢٠.
٢. الصور البيانيّة؛ ص ١٢٨.
٣. نهج البلاغة؛ الخطبة ٥.

التّشبيه المعروفة، بل يُلمَحان في التّركيب، و هذا الضّرب من التّشبيه يُؤْتَى به ليفيد أنّ الحكم الّذي أُسنِد إلى المشبّه ممكن، و يكون المشبّه به برهانا على ذلك.

و بيان ذلك أنّ البليغ من الكاتب أو الشّاعر أو غيرهما قد يلجأ عند التّعبير عن بعض أفكاره إلى أسلوب يوحي بالتّشبيه، من غير أن يصرّح به في صورة من صوره المعروفة.

و من بواعث ذلك: التّفنّن في أساليب التّعبير، و النّزوع إلى الابتكار و التّجديد، و إقامة البرهان على الحكم المراد إسناده إلى المشبّه، و الرّغبة في إخفاء معالم التّشبيه، لأنّه كلّما خفِيَ و دَقَّ كان أبلغ في النّفس.

و من أمثلة ذلك قول أبي فراس الحمداني:

سيذْكُرُني قومِي إذا جَدَّ جِـدُّهُم   و في اللّيلة الظّلماء يُـفتقَد البـدر

يريد الشّاعر أن يقول: إنّ قومه سيذكرونه حين تَدْلَهِمُّ الخُطوب و تشتدّ الأزمات، و سوف يفتحون عيونهم و يفتشون عنه فلا يجدونه، و الدّليل على صحّة ما يقول: أنّ النّاس يتطلّعون إلى السّماء، يفتشون عن البدر، و لا سيّما في اللّيالي الحالكات، يرجون منه النّور ليبصروا به طريقهم، أو لينير لهم ظلمات حياتهم، و ينقذهم ممّا يتخبّطون فيه.

إنّ الشّاعر لم يشبّه حاجة قومه إليه أيّام الأزمات كحاجة النّاس إلى ضياء البدر في اللّيالي الحالكات، ولكنّه ألمح إلى هذا المعنى إلماحاً، و ضمّن بيته هذا التّشبيه، دون أن يصرّح بمشبّه و مشبّه به.

قال المتنبّي:

مَـن يَهُـن يَـسهُل الهَـوانُ عـليه   مَـــا لِجُــــرح بِـمـيّت إيـلامُ

يريد الشّاعر أنّ من عاشَ بالهوان و اعتادَه، سَهُلَ عليه تقبّل هوانٍ جديد، و ذلّ آخر، ولكي يبرهن على صحّة مقولته ضرب لنا مثلا بالميّت، فلو جئت بسكّين و قطّعت أجزاء جسده، أو نشرت لحمه و عظمه بالمناشير، ما تألم و لا صرخ، و لا شكا، و لا بكى، لأنّه فقد أحاسيسه.

ألست ترى من خلال المقدّمة و البرهان عليها تشبيها ضمنيّا، كان المشبّه هو الرّجل الّذي هانَ و سَهُلَ عليه قبول الهوان الجديد، و كان المشبّه به هو الميّت الّذي فقد أحاسيسه فلم يَعُدْ يألَمُ لجرح جديد، لو أصابه[1].

---

١. البلاغة العربية؛ ج ٢، ص ٥٣ـ٥٥، نقلاً بإيجاز و تصرّف.

و يتّضح من المثالين: أنّ التّشبيه الضّمني يمتاز عن سواه بأربع خصائص مجتمعة:

١. أنّ المشبّه و المشبّه به كليهما يلمح و يستنتج بلا ترابط نحويّ مباشر بينهما، بخلاف أنواع التّشبيه الّتي يأتي فيها الطّرفان في بناء لغويّ تتحكّم بتوجيهه قواعد إنشاء الجملة العربيّة، كأن يكون المشبّه مبتدأ أو ما في حكم المبتدأ، و يكون المشبّه به خبرا أو ما هو في حكم الخبر.

٢. أنّ المشبّه جملة أو مجموعة جمل مستقلّة منفصلة عن المشبّه به الّذي يجيء جملة أو طائفة من الجمل أيضاً.

٣. أنّ المشبّه يثير فكرة فيها غرابة و ادّعاء فلا يسلّم بها القارئ تسليماً مباشرا، و إنّما يحتاج في القبول بها إلى دليل يقنعه و يرسخ اعترافه بها.

٤. أنّ المشبّه به يستوي مثلاً و شاهداً تقرّبه العقول بداهة و تطمئنّ القلوب إلى صحّته سليقةً كأن يكون مستقرّاً في الطّباع أو جارياً مجرى السّنّة و القانون في الحياة و المشاهدة[١].

الأسئلة و التّمارين

١. ما هو التّشبيه الضّمنيّ؟ متى يسمّى التّشبيه ضمنيّا؟ ماذا يشترط في التّشبيه الضّمنيّ؟ و هل يكون على صورة التّشبيه المصطلح؟ هل أركان التّشبيه موجودة فيه؟ متى يلجأ البليغ إليه عند التعبير عن أفكاره؟ أعط أمثلة له.

٢. بيّن التّشبيه الضّمني فيما يأتي:

قال أبو تمام:

لا تُنكري عَطَلَ الكريم من الغِنى ... فالسَّيلُ حربٌ للمكان العالي

قال البحتري:

ضحوكٌ إلى الأبطال و هوَ يَروعهم ... و للسّيف حدّ حين يسطُو و رونق

قال أبو العتاهية:

ترجو النّجاة و لم تَسلك مسالكها ... إنّ السّفينة لا تجري على اليَبَس

قال ابن الرّومي:

ويلاه إن نظرتْ و إن هي أعرضتْ ... وَقعُ السّهام و نَزعُهُنّ أليم

---

١. أساليب البيان في القرآن؛ ص ٣٤٠ـ٣٤١.

قال المتنبّي:

إنّ السلاح جميعُ النّاس يَحمِلُه   و ليس كُلّ ذوات المِخلب السَّبعُ

قال الشّاعر:

و ما أنا منهم بالعيش فيهم   ولكن معدن الذّهب الرَّغامُ

قال الشّاعر:

تزدحم القُصّاد في بابه   و المنهل العذب كثير الزّحام

قال الشّاعر:

لا يُعجِبنَّ مضيماً حسن بِزّتهِ   و هل يروق دفينا جودة الكفن

التّشبيه المقلوب

و اعلم أنّ الأصل في التّشبيه أن يكون وجه الشّبه في المشبّه به أقوى و أظهر منه في المشبّه، فالمشبّه به لاشتماله على الأقوى يكون أقوى، فحين تقول: «أنت بحر»، نكون قد شبّهنا المخاطب، و هو رجل قد يكون واسعَ العلم، أو واسعَ الكرم بالبحر، و طبيعيّ أنّ البحر أكبر من الإنسان، و أوسع مدىً من جميع اليابِسة على هذه الدنيا، ولكن قد يخرج الأديب عن هذه القاعدة فيشبّه الأكبر بالأصغر، و الأقوى بالأضعف، و الأكثر بالأقلّ، و هكذا... و يقول: البدر يشبه وجه أمّي ـ مثلا ـ في الحقيقة وجه أمّه هو الّذي يشبه البدر، لأنّه أشدّ ضياءً، و أكثر نورا، و أتمّ استدارةً، لكن القائل من فرط حبّه لأمّه، إعجابه بها، قَلَبَ التّشبيه، فجعل الكبير صغيرا و الضّعيف قويّا، و شبّه البدر بوجه أمّه.

هذا التّشبيه الّذي تبادل فيه طرفا التّشبيه مواقعها هو ما دعاه البلاغيّون بـ«التّشبيه المقلوب» و يقولون في تعريفه:

هو ما عكس طرفي التّشبيه، بحيث يجعل المشبّه، مشبّهاً به، بادّعاء أنّ وجه الشّبه فيه أقوى و أظهر، قال محمّد بن وهيب الحميريّ:

و بَدَا الصّباحُ كأنّ غُرَّتَه   وجهُ الخليفة حين يُمتدَحُ

قال إمام البلاغة، الشّيخ عبدالقاهر، «و اعلم، أنّ هذا و إن كان في الظّاهر يشبه قولهم: (لا أدري، أَوَجهُهُ أنورُ أم الصّبحُ؟ و أغُرَّتُه أضوءُ أم البدرُ؟...) و نحو ذلك من وجوه البلاغة، فإنّ في الأوّل (أي التّشبيه المقلوب) خلابةً و شيئاً من السّحر ليس في الثّاني (أي التّشبيه العادي) و هو أنّه يستكثر للصّباح أن يشبّهه بوجه الخليفة، و يوهم أنّه احتشد له و اجتهد في تشبيهٍ يفخّم به أمره، فيوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر... لأنّه وضع كلامه

وضعَ من يقيس على أصل متّفق عليه... و المعاني إذا وردت على النّفس هذا المورد، كان لها نوع من السّرور عجيب فكانت ـ كالغنيمة الّتي لا تُحتَسَب»[١].

و قال ـ تعالى ـ:

«قالوا إنّما البيع مثل الرّبوا»[٢].

و قد جاء في القرآن الكريم هذا السنن، فشبّه البيع بالرّبا، و الأصل أنّ الرّبا كالبيع، فقلب مبالغة فيه بجعل المشبّه به مشبّها زعما منهم أنّ الرّبا أولى بالحِلّ من البيع، حتّى جعلوه أصلا بالقياس عليه.

و ملخّص القول: أنّ الأصل في التّشبيه أن يجري على السّنن المعروف عند العرب، و الّذي يتمثّل في أن يلتمس المشبّه به ممّا هو معروف و مألوف في حياتهم حتّى و لو كان المشبّه أقوى و أعظم في الصّفة الّتي يشترك فيها مع المشبّه به.

فالعرب ـ مثلا ـ قد اشتهر بينهم: عمرو بن مَعدِ يكَرِب بالإقدام، و حاتم بالجود، و أحنف بن قيس بالحلم، و إياس بالذّكاء و... و أصبح كلّ واحد من هؤلاء مثلا عاليا في الصفة الّتي اشتهر بها، فالأسلوب العربيّ يقضي على الأديب أن يجعل كلّ واحد من هؤلاء الأعلام مشبّهاً به، سواء أوجد بعده من هو أعظم منه في الصّنعة و أقوى أم لم يوجد. و كذلك عند كلّ قوم، كما اشتهر «رستم» بين الفرس بالإقدام و هكذا...

كذلك اطّردت العادة في البلاغة على تشبيه الأدنى بالأعلى، فإذا جاء الأمر على خلاف ذلك فهو «التشبيه المعكوس»، أو «المقلوب» طلبا للمبالغة بادّعاء أنّ وجه الشبه في المشبّه أقوى منه في المشبّه به.

و قد شاع ذلك، كما يقول ابن الأثير، في كلام العرب و اتّسع حتّى جار كأنّه الأصل في التّشبيه[٣]. و الواقع أنّ هذا الضّرب من التّشبيه: حسن الموقع، لطيف المأخذ، و هو مظهر من مظاهر الافتنان و الابداع في التّعبير.

و قد سمّاه ابن جنّيّ «غلبة الفروع على الأصول»[٤]، و الشّيخ عبدالقاهر «عكس التشبيه»[٥]، و ابن الأثير «الطّرد و العكس»[٦] و كلّهم يريدون أمرا واحدا.

---

١. اسرار البلاغة؛ ص ١٩٥.

٢. البقرة، ٢٧٥.

٣. المثل السائر؛ ص ٤٠٣ و ٤٢١.

٤. الخصائص؛ ص ٣٠٠.

٥. اسرار البلاغة؛ ص ١٨٧.

٦. المثل السّائر؛ ص ٤٠٣.

الأسئلة و التمارين

١. ما هو التّشبيه المقلوب؟ هل للتّشبيه المقلوب عنوان آخر؟ و هل له شروط عندهم؟ هل هو أبلغ من التّشبيه العادي؟ من سمّاه «التّشبيه المعكوس»؟

٢. بيّن التّشبيه المقلوب فيما يأتي:

قال ـ تعالى ـ: «أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكّرون»[١].

و قال أيضا: «أفنجعل المسلمين كالمجرمين»[٢].

قال عليّ (ع): «نحمده على آلائه، كما نحمده على بلائه»[٣].

قال الصاحب بن عباد:

يا أيّها القاضي الّذي نفسي له مع قرب عهد لقائه، مشتاقة
أهديت عِطراً مثلَ طيب ثنائه فكأنّما أهدى له أخلاقهٗ

قال البحتريّ:

كأنّها حين لجّت في تدفقها يد الخليفة لماسال واديها.

التّشبيه البليغ

التّشبيه في أصله عمليّة فنّية جماليّة، تهدف إلى توضيح فكرة، أو تقريب معنى آخر، أو تمثيل شيء بشيء، مدحا، أو ذمّا، تزيينا أو تقبيحا.

و تتفاوت هذه القيمة بتفاوت مهارة الأديب كما أنّ لعلاقته بمن يوجّه إليه الخطاب، أو يتحدّث عنه، أثرا في هذا التّباين.

و لقد علمنا أنّ أركان التّشبيه الأربعة، قد تجتمع كلّها في عمليّة تشبيهيّة، و قد يحذف منها عنصر، أو عنصران، سمّى الثاني منهما:

«التّشبيه البليغ»، فهو[٤]: ما حذف وجهه و أداته، كقوله ـ تعالى ـ: «هنّ لباس لكم و أنتم لباس لهنّ»[٥]، و نحو: الشّكر نسيم النّعم، و إنّما سمّى بليغا لأنّ حذف الأداة ينبئ عن الاتّحاد

---

١. النحل، ١٧. ٢. القلم، ٣٥.
٣. نهج البلاغة: الخطبة ١١٤.
٤. البلاغة العربيّة: ج ٢، ص ٤١. نقلاً بإيجاز و تصرّف.
٥. البقرة، ١٨٧.

بين المشبّه و المشبّه به، و حذف وجه الشبّه يشير إلى أنّ الاتّحاد يتناول جميع الوجوه و الصّفات حتّى كأنّ المشبّه هو عين المشبّه به من غير تفاوت[١].

و يقع التّشبيه البليغ على الصّور الآتية:

١. أن يقع المشبّه به خبرا، سواء كان مع ذكر المشبّه، نحو: صدور الأحرار قبور الأسرار، أو مع حذفه، كقوله ـ تعالى ـ: «صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون»[٢]. و يجوز أن يجعل المشبّه به مبتدأ كأن تقول في المثال الأوّل: قبور الأسرار، صدور الأحرار، لأنّ المبالغة في التّشبيه تدور على دعوى الاتّحاد، و لا فرق في ذلك بين أن يجعل المشبّه به خبراً أو مبتدأً.

٢. أن يقع مفعولا ثانيا في باب علمت، نحو: علمت بذيّ اللّسان كلبا عقورا.

٣. أن يقع مصدرا مبيّنا للنّوع، كقوله ـ تعالى ـ: «و هي تمرّ مرّ السّحاب»[٣]. و يرجع هذا إلى كون المشبّه به صفة للمشبّه، إذ التّقدير: و هي تمرّ مرورا كمرور السّحاب.

٤. أن يقع حالا، نحو: كرّ عليّ أسدا.

٥. أن يقع مبيّنا للمشبّه، كقوله ـ تعالى ـ: «و كلوا و اشربوا حتّى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود»[٤] و ترجع هذه الصّورة إلى كون المشبّه به حالا من المشبه (و فيه خلاف).

٦. أن يقع مضافا إلى المشبّه به، نحو: عقيق الشّفق، و ثوب العافية[٥].

الأسئلة و التّمارين

١. ما هو التّشبيه البليغ؟ هل يجوز حذف أحد الطّرفين في التّشبيه؟ لماذا سمّاه البلاغيّون بليغا؟ هل يوجد ذلك على صورة واحدة أم لا؟ أعط أمثلة له.

٢. بيّن التّشبيه البليغ فيما يأتي:

قال الشّاعر:

عزماتهم قضب و فيض أكفّهم ... سحب و بيض وجوههم أقمار

و أيضا:

---

١. دراسة و نقد ...؛ ص ١٩٥.
٢. البقرة، ١٨.
٣. النّمل، ٨٨.
٤. البقرة، ١٨٧.
٥. دراسة و نقد...؛ ص ١٩٦ـ١٩٧.

فـاقضوا مـآربكم عـجالا إنّما أعـمارکم سـفر مـن الأسـفار

قال أبو فراس و هو يتوسّل إلى سيف الدولة:

فـليتك تحـلو، و الحـياة مـريرةٌ و ليتك تَرضَى، و الأنـام غِـضَاب

و ليت الّذي بـيني و بـينك عـامرٌ و بـيني و بـين العـالمين خَـراب

إذا صـحّ مـنك الودّ فـالكلّ هـيّنٌ و كـلّ الّـذى فـوق التّراب تـراب

أغراض التّشبيه

التّشبيه عمل فنيّ، و أسلوب رفيع يتّخذه الأدباء و البلغاء للسّموّ ببيانهم، و يحتاج إليـه الرّجل العاميّ البسيط كما يحتاج إليه الرّجل المثقّف العليم [1].

فكانت رسالته نقل شعور الكاتب و الأديب و تصوير إحساسها، و لمّا كان محمل هذا الشّعور و مثاره هو المشبّه، كان من الطّبيعيّ أن يعود الغرض من التّشبيه إليه [2].

و الأغراض الراجعة إلى المشبّه في الغالب هي:

١. بيان إمكان المشبّه

و ذلك إذا أسند إليه أمر غريب لا يمكن فهمه و تصوّره إلّا بالمثال، أو ذكر شبيه له متّفق على إمكان وقوعه، أو وجوده، ليبيّن صحّة القياس عليه، كقوله ـ تعالى ـ: «إنّ مـثل عـيسى عنداللّه كمثل آدم خلقه من تراب» [3].

قال البحتريّ:

دانٍ إلى أيدي العُـفاة و شـاسعٌ عن كلّ نِدٍّ في النّدى و ضريبِ

كالبدر أفرط في العُلوّ وضـوؤه للعُصبَة السّـارين جِـدُّ قـريبِ

وصف البحتريّ ممدوحه في البيت الأوّل بأنّه قريب للمحتاجين، بعيد المنزلة، و انّ بينه و بين نظرائه في الكرم بونا شاسعا، ولكن البحتري حينما أحسّ أنّه وصف ممدوحه بوصفين متضادين: هما القرب و البعد، أراد أن يبيّن لك أنّ ذلك ممكن، و أنْ ليس في الأمر تناقض، فشبّه ممدوحه بالبدر الّذي هو بعيد في السّماء لكن ضوءه قريب جدًّا للسّـائرين باللّيل.

---

١. البلاغة العربية؛ ج ٢، ص ٥٩.

٢. دراسة و نقد ...؛ ص ٢٢٣.

٣. آل عمران، ٥٩.

٢. بيان حال المشبّه

و يتمثّل هذا الغرض حين تكون صفة المشبّهة به معلومة لدى المخاطب، و تكون صفة المشبّهة مجهولة فيساق التّشبيه تمكينا للمخاطب من إدراك حال المشبّه و تمثّله، كقوله ـ تعالى ـ حين أراد أن يبيّن لنا ضعف إيمان المنافقين و عدم الثّبات فيه، و اضمحلاله عن القلوب بأدنى شيء، و أنّه على شرف الانقلاب إلى الكفر: «مثل الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتا، و إنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون»[١].

حيث شبّه بيت العنكبوت و نسجه، و أنّه من أضعف الأشياء قواما، و أرقّها حالة، فأيّة ريح تحرّكه تغيّره؛ و الغرض من هذا التّشبيه، بيان حال المنافقين، و كشف نواياهم الّتي لاتخفى على علّام الغيوب. و قال النبيّ (ص): «الحياء من الإيمان كالرّأس من الجسد» فما كانت منزلة الحياء من الإيمان مبهمة و غير معروفة لدى المخاطب أتى بمشبّه به معروف لتتّضح صورته و تتحدّد معالمه.

قال عليّ (ع) في الحجّ:

«يَرِدُونَه وُرودَ الأنعام و يألَهُون إليه وُلُوهَ الحمام»[٢].

قال المتنبّي:

و ما الموت إلّا سارق دَقَّ شخصُهُ يصول بلا كفّ و يسعى بلا رجلِ

فحال المشبّه الّذي هو الموت مجهول و أراد الشّاعر أن يشخّصه فأتى بمشبّه به معروف لدى النّاس، و هو السّارق و فصّل أو صافه المخصوصة من دقّة شخصه وصولاته بلا كفّ و سعيه بلا رجل.

٣. بيان مقدار حال المشبّه

و يتحدّد هذا الغرض في تبيين قوّة المشبّه و ضعفه، و زيادته و نقصه، و سموّه و انخفاضه، و اتّساعه و ضيقه و ما إلى ذلك من الصّفات الّتي تخضع للمقاييس، و تستجيب للتّحديد؛ و ملاك هذا الغرض أن يكون المشبّه معروفا لدى المخاطب في صفته بشكل عامّ، و يأتي المشبّه به لتحديد هذه الصّفة، كقوله ـ تعالى ـ: «ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة»[٣].

---

١. العنكبوت، ٤١.
٢. نهج البلاغة؛ الخطبة، ٩.
٣. البقرة، ٧٤.

فالمخاطب يعرف قساوة قلوب بنى اسرائيل معرفةً عامةً، و قد جاء المشبّه به (الحجارة أو أشدّ...) و حدّد مقدار هذه القسوة و درجتها، بأنّها أشدّ قسوة من الحجارة، فإنّ بعض الحجارة يتفجّر منه الأنهار، ولكن قلوبهم لا تلين و لا ترقّ.

و قال المتنبّي:

مـــا قُـــوبِلَتْ عـيناهُ إلّا ظُــنَّتا تحت الدُّجى نار الفريق حُلولا

لم يكتف المتنبّي بتشبيه عيني الأسد، بصفة عامة تدلّ على الضّوء المنبعث منها، بل حدّد مقدار ذلك مشبّها إيّاه بالنّار المتوقّدة لدى جماعة نزلوا مكانا، للإقامة فيه، و كانت نارهم عظيمة لا تنطفئ بسرعة.

٤. تقرير حال المشبّه في نفس السّامع

و يتحقّق هذا الغرض بتوضيح حال المشبّه في ذهن السّامع، و ترسيخها في نفسه و تمكينها من خاطره، و يتمّ ذلك بإبراز الأمور المعنويّة الذهنيّة في صور حسيّة أقوى و أظهر حتّى تستقرّ في نفس السّامع، و تتمكّن في ذهن المخاطب، و ذلك لأنّ النّفس بطبعها تميل إلى الأمور المحسوسة الّتي يقع عليها الحسّ، و تنبو عن المعاني المجرّدة، فإذا برزت الأفكار المتخيّلة في صورة مشاهدة قوى الإيمان بها و التّأكّد من صحّتها، بل إبرازها في هذه الصّورة الحسيّة يصبح دليلا يدفع كلّ تردّد في تصديق هذه الدّعوى، فإذا كان ما أسند إلى المشبّه يحتاج إلى التّثبيت و الإيضاح فتأتي بمشبّه به حسيّ قريب التصوّر، يزيد معنى المشبّه إيضاحا لما في المشبّه به من قوّة الظّهور و التّمام، كقوله ـ تعالى ـ: «و الّذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلّا كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه و ما هو ببالغه»[1].

تتحدّث الآية عن شأن عبدة الأوثان، و أنّهم إذا دعوا آلهتهم لا يستجيبون لهم، و لا يرجع هذا الدّعاء بفائدة و قد أراد ـ سبحانه ـ أن يقرّر هذه الحال، و يثبتها في الأذهان فشبّه هؤلاء الوثنيّين بمن يبسط كفّيه إلى الماء ليشرب فلايصل الماء فمه بالبداهة، لأنّه يخرج من خلال أصابعه مادامت كفّاه مبسوطتين.

و قال النبيّ (ص): «إيّاكم و الحسد فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب»[2].

---

١. الرّعد، ١٤.
٢. المجازات النبوية؛ ص ٢١٠.

حيث شبّه إذهاب الحسد للحسنات بأكل النّار الحطب و إنّما شبّه بذلك لأنّ الحسد يجري في قلب الإنسان مجرى النّار لا هتياجه و إحراقه، فكان ذلك التّشبيه غاية في الظّهور و الوضوح.

قال الشّاعر:

إنّ القلوب إذا تنافر ودّها مثل الزّجاجة كسرها لا يجبر

شبّه الشّاعر تنافر القلوب بكسر الزّجاجة بجامع تعذّر العود إلى ما كانت عليه، في الحالتين، مستعينا بمثل حسيّ يقوّي المعنى في ذهن السّامع.

٥. تزيين المشبّه

و الغرض منه تحسين المشبّه و التّرغيب فيه عن طريق تشبيهه بشيء حسن الصّورة أو المعنى، و ذلك إذا شبّهت شيئا بما هو معروف عند النّاس بالجلال و الرّفعة و الحسن و القبول، تكريما له و ترغيبا فيه، كقوله ـ تعالى ـ: «و حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون»[1].

فالحور العين: الشّديدات البياض، الكبيرات العيون، حسانها؛ شبّهها بأمثال اللّؤلؤ المكنون، أي كأمثال الدّرّ الذي يخرج من صدفه، و كأنّه لم يغيّره الزّمان، و اختلاف الأحوال، و إنّما عنى بقوله: «كأمثال اللؤلؤ» أي: إنّ صفاءهنّ، و تلألؤهنّ كصفاء الدّرّ و تلألئه. و الغرض من هذا التّشبيه هو لتحسين المشبّه و التّرغيب فيه قال ابن المعتزّ:

غدير تُرَجرِجُ أمواجُه هبوب الرّياح و مرّ الصّبا

إذا الشّمس من فوقه أشرقت توهمته جوشنا مُذَهّبا

يشبّه الشّاعر حال الماء و ترجرجه بفعل الرّيح، و سطوع أشعّة الشّمس فوقه، بحال درع مُوَجثٌ بالذّهب، و الغرض من هذا التّشبيه، تزيين المشبّه و إظهاره في حال يُهيّج النّفس و يسرّ الخاطر.

٦. تقبيح المشبّه و ذمّه ليكره و يرغب عنه

و ذلك إذا جعلت المشبّه به شيئا معروفا عند النّاس بالمهانة و الدناءة و القبح، تحقيرا للمشبّه و تقبيحه، كقوله ـ تعالى ـ: «أولئك كالأنعام بل هم أضلّ...»[2].

---

١. الواقعة، ٢٢ـ٢٣. ٢. الأعراف، ١٧٩.

شبّههم بالأنعام بل بما هو دون الأنعام في الارتكاس و السّفه و التّدني في مهابط الرّذيلة و الآثام.

قال المتنبّي

و إذا أشــــار محــدّثاً فكأنّــه   قــردٌ يُــقهقِهُ أو عــجوزٌ تَـلْطِمُ

فالمتنبيّ يشبّه المهجوّ عند مايتحدّث، بالقرد يقهقه أو العجوز تلطم، والغرض منه، تقبيح المشبّه.

۷. استطرافه و جعله مستحدثا بديعا

و ذلك بأن يكون المشبّه به نادر الحضور في الذّهن فيكتسي المشبّه غرابة منه، كقول ابن المعتزّ:

و لا زورديّــةٍ تَـزْهو بـزُرقتها   بين الرّياض على حُمر اليواقيت

كأنّها فوقَ قاماتٍ ضَـعُفن بهـا   أوائل النّار في أطـراف كـبريت

فصورة اتّصال النّار بأطراف الكبريت واقعة، و حضورها غير نادر، ولكن حضور هذه الصّورة لا يتأتّى عند حضور صورة المشبّه، أعني: البنفسج الزّرق على أغصانه الياقوتيّة الحمراء، فقد قرب الشّاعر بين صورتين متباعدتين، و ألّف بين معنيين متنافرين، فوقع بينهما التّآخي و التّشابه، و التّرابط ممّا يجعل التّشبيه ظريفا و خلّاباً.

و قد يعود الغرض من التّشبيه إلى المشبّه به، و هو ضربان:

أ) المبالغة في شأن المشبّه به و إيهام أنّه أتمّ من المشبّه، و ذلك في التّشبيه المقلوب، و هو أن يجعل النّاقص في وجه الشّبه مشبّهاً به قصدا إلى ادّعاء أنّه ناقص، حيث يأخذ المشبّه مكان المشبّه به، للإيحاء بأنّه أكمل و أقوى، كقول البحتري:

فی حمرة الورد شيء من تلهُّبها   و للقضيب نصيب مـن تـثنّيها

فادّعى أنّ حمرة الورد إنّما هي قبس بسيط من تـلهّب وجـنتيها، و أنّ اللّـيونة في القضيب النّضر، ليست إلّا جزءاً من ليونة جسدها، قاصداً الإيحاء بأنّ المشبّه الحقيقيّ (المرأة) قد أصبح مشهوراً بهذه الصّفات، أكثر من المشبّه به الأصليّ (الورد و القضيب).

ب) الاهتمام بشأن المشبّه به، و ذلك إذا تركت في التّشبيه المشبّه به الأصليّ و ما هو أنسب و أليق بالمشبّه، و جئت بآخر لا يكون بينه و بين المشبّه اتّصال وثيق و لا قرابة ماسّة، و البليغ لا يرتكب هذا العمل إلّا لغرض أو نكتة مثل الاهتمام بشأن المشبّه به، كما إذا

كنتَ جائعا و شبّهت وجهاً كالبدر في الاستدارة و الإنارة، بالرّغيف، اهتماما بشأنه، و يسمّى هذا الوجه إظهار المطلوب[١].

التمارين

بيّن أغراض التّشبيه فيما يأتي:

قال ـ تعالى ـ: «فإذا انشقّت السماء فكانت وردة كالدّهان»[٢].

و أيضا: «يوم تكون السّماء كالمُهل»[٣].

قال علي (ع): «فلم يبق منها إلّا صبابةٌ كصبابة الإناء»[٤].

قال ابن الرومي:

قالوا أبو الصّقرمن شيبان قُلتُ لهم   كلّا لعمري ولكن منه شيبان
كم من أب قد علا بابن ذُرى اشرف   كما عَلَتْ برسول الله عدنان

قال الشّاعر:

قد يشيب الفتى و ليس عجيباً   أن يرى النّور في القضيب الرّطيب

قال الشّاعر:

ويلاه إن نظرت و إن هي أعرضت   وقع السّهام و نزعُهُنّ أليم

قال الشاعر:

فيها اثنتان و أربعون حلوبة   سودا كخافية الغراب الاسحم

قال أبو عبادة في وصف الخلق الكريم المتوارث:

خلق منهم تردّد فيهم   وليته عصابة عن عصابه
كالحسام الجراز يبق على الدّهر   و يفنى في كلّ حين قرابه

قال ـ تعالى ـ: و يطوف عليهم غلمان لهم كأنّهم لؤلؤ مكنون»[٥].

قال عليّ(ع): «مثل الدنيا كمثل الحيّة، ليّن مسّها، و السّمّ ناقع في جوفها يهوي إليها الغرّ الجاهل، و يحذرها ذو اللبّ العاقل»[٦].

---

١. أساليب البيان في القرآن؛ ص ٢٤٦ـ٣٦٢ و دراسة و نقد ...؛ ص ٢٢٣ـ٢٣١.
٢. الرحمن، ٣٧.
٣. المعارج، ٨.
٤. نهج البلاغة؛ الخطبة ٢٣.
٥. الطور، ٢٤.
٦. نهج البلاغة؛ الكتاب ٦٨.

بلاغة التّشبيه

يعتبر التّشبيه مظهرا من مظاهر البلاغة و وسيلة من وسائلها، وسيلة العالم و الأديب إلى شرح ما يجول فى خاطره أو يدور في خياله.

تنشأ بلاغة التّشبيه من أنّه ينتقل بك من الشّيء نفسه إلى شيء طريف يشبهه، أو صورة بارعة تمثّله، و كلّما كان هذا الانتقال بعيدا، قليل الخطورة بالبال، أو ممتزجا بقليل أو كثير من الخيال، كان التّشبيه أروع للنّفس و أدعى إلى إعجابها و اهتزازها.

و يُرْجِع الإمام عبدالقاهر تأثيرَ التّشبيه فى النّفس إلى علل و أسباب، و أوّل ذلك و أظهره أنّ أنس النّفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ، و تأتيها بصريح بعد مكنيّ، و أن تَرُدَّها في الشّيء و تعلّمها إيّاه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، و ثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلَها عن العقل إلى الإحساس، عمّا يُعلَم بالفكر إلى ما يُعلَم بالاضطرار و الطّبع، لأنّ العلم المستفاد من طرق الحواس يفضل المستفاد من جهة النّظر و الكفر، كما قالوا: ليس الخبر كالمعاينة، و لا الظّنّ كاليقين. فالانتقال في الشّيء عن الصّفة و الخبر إلى العيان و رؤية البصر ليس له سبب سوى زوال الشّك و الرّيب[1].

هذه هي بلاغة التّشبيه من حيث مبلغ طرافته، و بعد مرماه، و مقدار ما فيه من خيال، أمّا بلاغته من حيث الصّورة الكلاميّة الّتي يوضع فيها فتفاوتة أيضاً، فأقلّ التّشبيهات مرتبة في البلاغة ما ذكرت أركانه جميعها. لأنّ بلاغة التّشبيه مبنيّة على ادّعاء أنّ المشبّه عين المشبّه به، و وجود الأداة و وجه الشّبه معا يحُولان دون هذا الادّعاء. فإذا حذفت الأداة وحدها، أو وجه الشّبه وحده، ارتفعت درجة التّشبيه في البلاغة قليلا، لأنّ حذف أحد هذين يقوّي ادّعاء اتّحاد المشبّه و المشبّه به بعض التّقوية. أمّا أبلغ أنواع التّشبيه «فالتّشبيه البليغ» لأنّه مبنيّ على ادّعاء أنّ المشبّه و المشبّه به شيء واحد.

هذا ـ و قد جرى العرب و المـُحْدَثون على تشبيه: الجواد بالبحر و المطر، و الشّجاع بالأسد، و الوجه الحسن بالشّمس و القمر، و الشّهم الماضي فى الأمور بالسّيف، و العالي المنزلة بالنّجم، و الحليم الرّزين بالجبل، و الأماني الكاذبة بالأحلام، و الوجه الصّبيح بالدّينار، و الشّعر الفاحم باللّيل، و الماء الصّافي باللّجين، و اللّيل بموج البحر، و الجيش بالبحر الزّاخر، و الخيل بالرّيح و البرق، و النّجوم بالدّرر و الأزهار، و الأسنان بالبَرَد و

---

١. أسرار البلاغة؛ ص ٩٢ـ٩٦.

اللؤلؤ، و السّفن بالجبال، و الجداول بالحيّات الملتوية، و الشّيب بالنّهار و لمع السّيوف و غرّة الفرس بالهلال، و الجبان بالنّعامة و الذّبابة، و اللّئيم بالثّعلب، و الطّائش بالفراش، و الذّليل بالوتد، و القاسي بالحديد و الصّخر، و البليد بالحمار، و البخيل بالأرض المجدبة.

و قد اشتهر رجال من العرب بخلال محمودة، فصاروا فيها أعلاما، فجرى التّشبيه بهم، فيُشبّه: الوفيّ بالسّموأل، و الكريم بحاتم، ...، و الحليم بالأحنف، و الفصيح بسحبان، و الخطيب بقسّ، و الشّجاع بعمرو بن معديكرب، و الحكيم بلقمان، و الذكيّ بإياس.

و اشتهر آخرون بصفات ذميمة فجرى التّشبيه بهم أيضا، فيُشبّه: العييّ بباقل، و الأحمق بهبنّقة، و النّادم بالكُسعيّ، و البخيل بمادر، و الهجّاء بالحُطيئة، و القاسي بالحجّاج[١].

الأسئلة و التّمارين لبيان أنواع التّشبيه

١. كم قسما للتشبيه باعتبار طرفيه؟ كم قسما للتّشبيه باعتبار تعدّد طرفيه؟ كم قسما للتّشبيه باعتبار وجه الشّبه؟ ما هو تشبيه التّمثيل؟ ما هو تشبيه غير التّمثيل؟ كم قسما للتّشبيه باعتبار الغرض؟

٢. تطبيق عامّ على أنواع التّشبيه:

أ) اشتريت ثوبا احمر كالورد، في هذه الجملة: تشبيه مرسل مفصّل: المشبّه ثوبا، و المشبّه به هو الورد، و هما حسيّان مفردان. و الأداة: الكاف. و وجه الشّبه: الحمرة في كل. و الغرض منه بيان حال المشبّه.

ب) العمر و الإنسان و الدّنيا هو كالظّل في الإقبال و الإدبار

فيه تشبيه تسوية مرسل مفصّل، المشبّه: العمر و الإنسان و الدّنيا. و المشبّه به: الظّل. و المشبّه بعضه حسيّ، و بعضه عقليّ. و المشبّه به: حسيّ. و الأداة: الكاف. و وجه الشّبه: الإقبال و الإدبار. و الغرض: تقرير حال المشبّه في نفس السّامع.

ج) قال الشّاعر:

و قد لاح في الصّبح الثّريا كما ترى كعنقود ملّاحيّة حين نوّرا

فيه تشبيه مرسل مجمل، المشبّه: هيئة الثّريا الحاصلة من اجتماع أجرام مشرقة مستديرة منيرة. و المشبّه به: هيئة عنقود العنب المنور. و وجه الشّبه: الهيئة الحاصلة من اجتماع أجرام منيرة

---

١. جواهر البلاغة؛ ٢٨٦ـ٢٨٩.

مستديرة في كلّ. و الأداة: الكاف. و الغرض: بيان حال المشبّه.

٣. بيّن أنواع التّشبيه فيما يأتي

أ)

الوارد في أعلى الغصون كأنّه مَلِكٌ تَحُفُّ به سَراة جنوده

ب)

إنّما النفس كالزّجاجة و العلـ م سراج و حكمة الله زيت

فإذا أشرقت فإنّك حيّ و إذا أظلمت فإنّك ميت

ج)

كلام، بل مدام، بل نظام من الياقوت، بل حبّ الغمام

د)

إذا امتحن الدّنيا لبيب تكشّفت له عن عَدُوّ في ثياب صديق

هـ)

انظر إلى حسن تكوين السّماء و قد لاحت كواكبها و اللّيل ديجور

كأنّها خيمة ليست على عمد زرقاء قد رُصعت فيها الدّنانير

و)

دهر علا قدر الوضيع به و غدا الشريف يحطّه شرفه

كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلا و تطفو فوقه جيفه

ز)

شبّهت بدر سمائنا لمّا دنت منه الثّريا في قميص سندس

ملكا مهيبا قاعدا في روضة حيّاه بعض الزّائرين بنرجس

ح)

كم والد يحرم أولاده و غيره يحظى به الأبعد

كالعين لا تنظر ما حولها و لحظها يدرك ما يبعد.

الحقيقة و المجاز

لمّا كان المجاز هو أحد مقاصد علم البيان الرئيسيّة، و الّذي يعتبر أصلا له، وكان متفرّعا عن المعنى الحقيقيّ، احتيج إلى ذكر الحقيقة و بيان مفهومها.

الحقيقة لغة و اصطلاحاً

الحقيقة لغة، هي من: حقّ الشّيء، يحقّ إذا ثبت، و على ذلك فهي فعيلة بمعنى «فاعل»، أي: الثّابت، أو من: حقّقت الشّيء أحقّقه[١]، إذا أثبته، فهي فعيلة بمعنى «مفعول»، أي: المثبتة. و التّاء فيها ناقلة من الوصفيّة إلى الاسميّة.

و اصطلاحاً، هي كلّ كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع، وقوعا لا تستند فيه إلى غيره[٢]. أو قل: بأنّها الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح التّخاطب[٣]. فالأسد إذا استعمل مراداً به الحيوان المفترس الّذي وقع له في وضع واضع اللّغة، فقد أدّى ذلك من غير أن يحتاج إلى اعتبار أصل للحصول على المعنى المراد[٤].

أمّا الحقيقة في علم البيان فقسمان: لفظيّة و عقليّة.

١. الحقيقة اللفظيّة. و هي اللفظ المستعمل في المعنى اللّغويّ الّذي وضع له، و ظاهر اللّغويّين عند نقلهم استعمال اللّفظ في شيء، الدّلالة على أنّه حقيقة، كالسّيف لأداة القتال المعروفة، و البيت للبناء الّذي يسكنه الإنسان، و البلبل للطّائر الغريد المعروف بهذا الاسم، و القلم لأداة الكتابة، و ما إلى ذلك... .

٢. الحقيقة العقليّة. هي إسناد الفعل أو ما في معناه إلى صاحبه الحقيقيّ عند المتكلّم في الظّاهر.

و المراد من «الإسناد» النّسبة الحاصلة من ضمّ الفعل لما هو له، سواء كانت النّسبة إنشائيّة أو خبريّة. و المراد من «الفعل»: لفظ الفعل الاصطلاحيّ. و المراد من قوله، «أو ما في معناه»: إسناد لفظ دالّ على معنى الفعل كالمصدر، و اسم الفاعل، و اسم المفعول، و الصّفة المشبّهة، و اسم التّفضيل، و الظّرف، و الجار و المجرور[٥] (و الظّرف إنّما يكون فيه معنى الفعل إذا كان مستقرّا لاستقرار معنى العامل فيه، لا كونه لغوا) فكلّ هذه الأنواع تدلّ على الحدث

---

١. قاموس اللغة؛ مادة حقّ و القاموس المحيط و مقاييس اللغة؛ مادة حقّ ايضاً.
٢. اسرار البلاغة؛ ص ٣٢٤. ٣. المطول؛ ص ٢٧٩.
٤. اسرار البلاغة؛ ص ٢٩٦ـ٢٩٧.
٥. المطول؛ ص ٤٣ـ٤٤ و أساليب البيان في القرآن؛ ص ٣٧٥ـ٣٨٠.

غير مقترن بزمن بخلاف الفعل، فإنّه يدلّ على حدث مقترن بزمن فهي تدلّ على جزء من معنى الفعل و هو الحدث، و لا تدلّ على معنى الفعل كلّه. مثال ذلك، قوله ـ تعالى ـ: «إنّ الله عنده علم السّاعة و ينزّل الغيث و يعلم ما في الأرحام»[1]. فكلّ من الفعل: «ينزل» و «يعلم» مسند إلى فاعله الحقيقي و هو الله. و نحو: «فتح الجيش المدينة»، بخلاف: «فتح الأمير المدينة».

المجاز لغة و اصطلاحاً

و اعلم أن المجاز من أحسن الوسائل البيانيّة الّتي تهدي إليها الطّبيعة، لايضاح المعنى، إذ به يخرج متّصفا بصفة حسيّة، تكاد تعرضه على عيان السّامع ـ لهذا ـ شغفت العرب باستعمال «المجاز» لميلها إلى الاتّساع في الكلام، و إلى الدّلالة على كثرة معاني الألفاظ، و لما فيه من الدّقة في التّعبير، فيحصل للنفس به سرور و أريحيّة، و لأمرٍمّا كثر في كلامهم، حتّى أتوا فيه بكلّ معنى رائق، و زيّنوا به خطبهم و أشعارهم، و في هذا الباب مباحث[2]، سنذكرها على ترتّب بعضها على بعض:

المجاز لغة: و هو إمّا مصدر جُزت المكان إذا تعدّيته، كما يقال: قمت مقاما، و قلت مقالا. و إمّا اسم للمكان الّذي يجاز فيه كالمَعاج و المزار و أشباهما[3].

المجاز اصطلاحا: و هو كلمة استعملت في غير معناها الحقيقيّ لعلاقة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقيّ.

و من ذلك نستنتج أن للمجاز أربعة أركان:

١) المعنى الحقيقي، ٢) المعنى المجازى، ٣) العلاقة، ٤) القرينة.

و في ضوء أركان المجاز هذه ما جرى فيه، أهو كلمة أو جملة قسّمها البلاغيّون أقساما لخّصها السكاكي قائلاً: اعلم أن المجاز عند السّلف من علماء هذا الفنّ قسمان:

لغويّ، و يسمّى مجازاً في المفرد، و عقليّ و يسمّى مجازاً في الجملة. و اللّغويّ قسمان: قسم يرجع إلى معنى الكلمة، و قسم يرجع إلى حكم لها في الكلام. و الرّجع إلى معنى الكلمة

---

١. لقمان، ٣٤.

٢. جواهر البلاغة؛ ص ٢٩٠.

٣. دراسة و نقد ...؛ ص ٢٤٥ منقولاً من: العمدة؛ ص ٢٦٦ و المثل السّائر؛ ص ٥٨.

قسمان: خالٍ عن الفائدة، و متضمّن لها. و المتضمّن للفائدة قسمان: خالٍ عن المبالغة في التّشبيه، و متضمّن لها، و أنّه يسمّى «الاستعارة»[۱].

القرينة و العلاقة

قبل الخوض في بحثي المجاز و الاستعارة نودّ أن نسلّط الضّوء على معنى القرينة و العلاقة اصطلاحاً، فنقول:

۱. القرينة. هي الأمر الّذي يجعله المتكلّم دليلا على أنّه أراد باللفظ غير ما وضع له، فهي تصرّف الذّهن عن المعنى الوضعيّ، إلى المعنى المجازي، و هي إما لفظيّة أو حاليّة، فاللفظيّة: هي الّتي يلفظ بها في التّركيب. و الحالية: هي الّتي نفهم من حال المتكلّم، أو من الواقع.

و اعلم أنّ كلا من المجاز و الكناية في حاجة إلى قرينة، ولكنّها في المجاز، هي مانعة، و في الكناية غير مانعة[۲].

۲. العلاقة. هو الأمر الّذي به الارتباط بين المعنى الحقيقيّ و المعنى المجازيّ و به الانتقال من الأوّل للثّاني، كالمشابهة في مجاز الاستعارة، و السببيّة في المجاز المرسل.

المجاز و أنواعه

(ينقسم المجاز إلى قسين: ۱) المجاز اللغويّ، ۲) المجاز العقليّ.

و ذلك لأنّ الموصوف بالمجازيّة إن كان هو اللفظ المفرد فهو المجاز اللغويّ أو اللفظيّ، و هو:

· استعمال اللفظ في غير ما وضع له أصلاً، لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقيّ.

و إن كان الموصوف بها هو الجملة، فالمجاز عقليّ، و هو:

إسناد الفعل، أو ما في معناه، إلى غير صاحبه، لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقيّ.

و إنّما نسب هذا المجاز إلى الجملة باعتبار الإسناد و الحكم الذي فيها، و جعل عقليّا لأنّ التّجوّز قد فهم من العقل، لا من اللّغة كما في المجاز اللغويّ.

---

۱. مفتاح العلوم؛ ص ۱۵٤.

۲. جواهر البلاغة؛ ص ۲۹۱.

المجاز المرسل

و هو مجاز لغويّ، علاقته غير المشابهة، أو هو استعمال اللّفظ في غير معناه الأصليّ، لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصليّ.

و قد سمّي مرسلا لإرساله عن التّقيد بعلاقة واحدة مخصوصة، بخلاف المجاز الاستعاريّ فإنّه مقيّد بعلاقة واحدة، و هي المشابهة، فالمرسل مطلق عن هذا القيد. و علاقات المجاز المرسل غير محدّدة، و لا مقيّدة بعدد معيّن من الملابسات، و إنّما تتّسع و تتلوّن في الكتب البلاغيّة، و أشهرها ما يأتي:

١. السببيّة. و هو إطلاق اسم السّبب على المسبّب، كقوله ـ تعالى ـ: «يدالله فوق أيديهم»[١]. و المراد باليد القدرة، و القرينة هي استحالة ثبوت اليد لله ـ تعالى ـ فلفظ اليد مجاز مرسل علاقته السّببيّة لأنّ اليد سبب للقدرة.

و قول النبيّ (ص): «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن»[٢] حيث استعمل الاصبعين في أثري نعمتين من نعم الله: إحداهما من مَنّ به عليه من معرفة خالقه و رازقه، و الأخرى الغبطة بما أنعم به عليه من تحسين خلقه و توسيع رزقه. و العلاقة السببيّة، لأنّ الأصابع هي محدثة الأثر. و نحو: «رعت الماشية الغيث»، أي: النّبات.

٢. المسببيّة. و هي بأن يطلق لفظ المسبّب و يراد السّبب، كقوله ـ تعالى ـ: «و يُنزّل لكم من السّماء رزقا»[٣]. و الرّزق لا ينزّل من السّماء، ولكن الّذي ينزل مطر ينشأ عنه النّبات الّذي منه طعامنا و رزقنا. فالرّزق مسبّب عن المطر. و المجاز مرسل علاقته المسببيّة.

و من الأمثلة الّتي تشمل مجازين مرسلين، علاقة أوّلها «السببيّة»، و علاقة ثانيها «المسببيّة» قول الشّاعر:

اقطفُ الغيثَ فتحيا أمنياتي ... و السّماء تمطر رزقاً عمّ شعبه

فالغيث، أي المطر لا يُقطف، و إنّما يقطف ما يسبّبه من أزاهير، و ثمار، و سنابل. و العلاقة الّتي تدلّ على عدم إرادة معنى الغيث الحقيقيّ، تسمّى السببيّة.

و السّماء لا تمطر رزقاً، و إنّما تمطُر مطراً يتسبّب عنه الرّزق. فالرّزق نتيجة للسبب الذي هو المطر.

٣. الجزئيّة. و هي أن يذكر جزء الشّيء و يراد كلّه، كقوله ـ تعالى ـ: «فتحرير رقبة

---

١. الفتح، ١٠.

٢. السنن الترمذي؛ ص ٤٥.

٣. غافر، ١٣.

مؤمنة»[١]. فقد ذكر الرقبة و أراد بها العبد. و قال عليّ(ع) في كتابه لمالك الأشتر: «ثمّ انظر في أمور عمّالك... و ابعث العيون من أهل الصّدق»، المراد بكلمة «العيون»: الرّجال المتفقّدون لأحوال عمّاله، لأنّ العين جزء من الإنسان و لها شأن كبير فيه.

٤. الكليّة. و هي أن يذكر الكلّ و يراد به جزؤه، كقوله ـ تعالى ـ: «يجعلون أصابعهم في آذانهم»[٢]. فإنّ الأصبع لا يوضع كلّه في الأذن، و إنّما طرفه فحسب، و نحو: شربت ماء النّيل، أي بعضها.

٥. اعتبار ما كان من الزّمان. و هو النّظر إلى الشيء بما كان عليه في الزّمن الماضي، كقوله ـ تعالى ـ: «إنّه من يأت ربّه مُجرما فإنّ جهنّم...»[٣]. فسمّاه ـ سبحانه ـ مجرما باعتبار ما كان عليه في الحياة الدنيا من أجرام، مجازاً مرسلاً.

و قال الشّاعر:

لا أركب «البحر» إنّي أخاف منه المعاطب
طين أنا و هو ماء و الطّين في الماء ذائب

في كلمة «طين» (ظاهرا) مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان.

٦. اعتبار ما يكون. و هو النّظر إلى المستقبل، و ذلك فيما أطلق اسم الشّيء على ما يؤول إليه، كقوله ـ تعالى ـ: «إنّي أراني أعصر خمرا»[٤]. أي عصيرا يؤول أمره إلى خمر، لأنّه حال عصره لا يكون خمرا، فالعلاقة هنا: اعتبار ما يؤل إليه. و كقوله ـ تعالى ـ أيضا: «... و لا يلدوا إلّا فاجراً كفّاراً»[٥]. و المولود حين يولد، لا يكون فاجرا، و لا كافرا، ولكنّه قد يكون كذلك بعد الطّفولة فأطلق المولود الفاجر، و أريد به الرّجل الفاجر.

و قد يتّصف الشّيء بهذا الوصف بعد ذلك على الفور، فيسمّى «مجاز المشارفة»، كقول النبيّ (ص): «من قَتَلَ قَتيلاً فله سَلَبُه»[٦]. فسمّى المشارف للقتل قتيلا.

٧. الحاليّة. و هي أن يذكر لفظ الحال و يراد به المحلّ لما بينهما من الملازمة، كقوله ـ تعالى ـ: «و أمّا الذين ابيضّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون»[٧]. و المراد من «الرّحمة» الجنّة الّتي تحلّ فيها الرّحمة. قال الشّاعر:

---

١. النّساء، ٩٢.
٢. البقرة، ١٩.
٣. طه، ٧٤.
٤. يوسف، ٣٦.
٥. نوح، ٢٧.
٦. النهاية لابن الأثير؛ ج ٢، ص ٣٨٧.
٧. آل عمران، ١٠٧.

ألمّا على مَعْن و قولا لقبره سقتك الغوادي مربعاً ثمّ مربعاً

يريد بـ«معن» قبره، بدليل قوله «قولا لقبره»، فهو مجاز مرسل علاقته الحاليّة.

٨. المحليّة. و هي أن يذكر لفظ المحل و يراد به الحال فيه، أي تسمية الشيء باسم المكان الّذي يحلّ فيه ذلك الشّيء، كقوله ـ تعالى ـ: «فليدع ناديَهُ سندع الزّبانية»[١]. فإنّ معنى النادي مكان الاجتماع ولكن المقصود مَنْ في هذا المكان فهو مجاز مرسل، أطلق فيه المحل و أريد به الحال. قال النبيّ (ص): «مات حَتْفَ أنفِهِ»[٢]. فإنّ النفس تخرج من الأنف، و هي الّتي تهلك لا الأنف.

٩. المجاورة. و هي أن يذكر لفظ الشّيء، و يراد به ما يجاوره، كقول عليّ (ع): «فإذا قَدِمْتَ على الحيّ فانزِل بمائهم من غير أن تُخالِطَ أبياتَهم»[٣]. أي بجوار مائهم. قال عنترة:

فشككتُ بالرّمح الأصمّ ثيابَه ليس الكريمُ على القنا بمُحرَّم

أراد قلبه أو صدره، فعبّر عنه بالثّياب تسمية للشيء باسم مجاوره.

١٠. الآليّة. و هي أن يذكر اسم الآلة و يراد به الأثر الذي ينتج عنها، كقوله ـ تعالى ـ «و اجعل لي لسان صدق في الآخرين»[٤]. أي ثناءً حسناً، تجعله لي ذكرا جميلاً من بعدي، أذكر به، و يقتدى بي في الخير. و تقول: هو كاتب، له قلم بليغ، تريد من القلم، كلامه، فسمّيت الكلام باسم آلته.

١١. اللّازمية. و هي كون الشّيء بحيث يجب وجوده عند وجود شيء آخر، أو يُعْدَم شيء آخر عند عدمه، و المآل واحد، أو إطلاق اللّازم و إرادة المزوم (و اللّزوم هو امتناع انفكاك الشّيء عن آخر)، كقوله ـ تعالى ـ: «هل يستطيع ربّك أن ينزّل علينا مائدة من السّماء»[٥]. أي: هل يفعل؟ أطلق الاستطاعة على الفعل لأنّها لازمة له[٦]. و نحو: طلع الضّوء و أنت تنام! أي: طلعت الشمس، لأنّ الضّوء لازمها.

١٢. الملزوميّة. و هي كون الشّيء بحيث يجب عند وجوده وجود شيء آخر، أو إطلاق اسم الملزوم و إرادة اللّازم، كقولهم: رعينا الغيث أي: النّبات. و نحو: ملأت الشمس المكان أي: الضّوء. فالغيث و الشمس مجازان مرسلان باعتبار الملزوميّة.

١٣. العموم. و هو كون الشّيء شاملا لكثير، نحو قوله ـ تعالى ـ: «أم يحسدون النّاس

---

١. العلق، ١٧ـ١٨.
٢. المجازات النبويّة؛ ص ٥٠.
٣. نهج البلاغة؛ الكتاب ٣٥.
٤. الشعراء، ٨٤.
٥. المائدة، ١١٢.
٦. الاتقان؛ ج ٣، ص ١٢٤.

على ما آتاهم الله من فضله»[١]، أي: النبيّ (ص)، فالنّاس مجاز مرسل يراد بها النبيّ، علاقته العموم، و كقوله ـ تعالى ـ أيضا: «الّذين قال لهم النّاس»[٢]. فإنّ المراد من النّاس واحد، و هو «نعيم بن مسعود الأشجعي»، و هو شخص واحد.

١٤. الخصوص. و هو كون اللّفظ خاصّا بشيء واحد، و باعتبار أنّه من أفراد عامّة يطلق اسم الخاص على العام، كإطلاق اسم الشخص على القبيله، نحو: «ربيعة» و «قريش»، و مثل قوله ـ تعالى ـ: «و خضتم كالّذي خاضوا»[٣]، أي: الّذين.

١٥. البدليّة. و هي كون الشّيء بدلا عن شيء آخر، فيطلق باعتبارها اسم البدل على المبدل منه، كقوله ـ تعالى ـ: «فَاذا قضيتم الصّلاة»[٤]. فإنّ أداء الصّلاة و إيقاعها في وقتها هو مبدل، و أمّا بدل ذلك فهو القضاء، أي إيقاعها خارج وقتها.

١٦. المبدليّة. و هي كون الشّيء مبدلا منه شيء آخر، فيطلق لأجلها اسم المبدل على البدل، نحو: أكلت دم القتيل، أي: ديته، كما قال عروة الرّحال يخاطب امرأته متوعّدا:

أكلت دما إن لم أرُعكِ بضرّة بعيدة مهوى القرط طيبه النشر.

فالدم مجاز مرسل، علاقته المبدليّة، لأنّ الدّم مبدل عن الدّية.

١٧. التّعلّق الاشتقاقي. و هو إقامة صيغة مقام أخرى، و يندرج تحت أنواع:

أ) إطلاق المصدر على اسم المفعول، كقوله ـ تعالى ـ: «صنع الله الّذي أتقن كلّ شيء»[٥]. أي مصنوعه.

ب) إطلاق اسم الفاعل على المصدر، كقوله ـ تعالى ـ: «ليس لوقعتها كاذبة»[٦]. أي تكذيب.

ج) إطلاق اسم الفاعل على اسم المفعول، كقوله ـ تعالى ـ: «لا عاصم اليوم من أمر الله». أي لا معصوم. و أيضا: «خلق من ماء دافق»[٧]، أي: مدفوق.

د) إطلاق اسم المفعول على اسم الفاعل، كقوله ـ تعالى ـ: «حجابا مستورا»[٨]. أي: ساترا.

و القرينة على مجازيّة ما تقدّم، هي ذكر ما يمنع إرادة المعنى الأصلي. و سنورد هؤلاء في المجاز العقليّ باعتبار آخر.

---

١. النّساء، ٥٤. ٢. آل عمران، ٧٣.
٣. التّوبة، ٦٩. ٤. النساء، ١٠٣.
٥. النّمل، ٨٨. ٦. الواقعة، ٢.
٧. الطّارق، ٦. ٨. الاسراء، ٤٥.

الأسئلة و التّمارين

١. ما هي الحقيقة؟ كم قسما الحقيقة؟ ما هو المجاز؟ كم قسما المجاز؟ ما هي العلاقة؟ و ما هي القرينة؟

٢. بيّن المجاز و قرائنه و علاقاته فيما يأتي:

أ) في الآيات التّالية:

«و هو الّذي يرسل الرّياح بشرا بين يدي رحمته»[١].

«و السّماء بنيناها بأيد و إنّا لموسعون»[٢].

«و نحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون»[٣].

«سنسمه على الخرطوم»[٤]. «و لا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة»[٥]. «و حرّمنا عليه المراضع»[٦].

«و آتوا اليتامى أموالهم»[٧]. «فبشّرناه بغلام حليم»[٨] «فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين»[٩].

ب) في الأشعار التّالية:

ـ و ما من يد إلّا يدالله فوقها ... و لا ظالم إلّا سيُبلى بأظلم

ـ رأيتك محض الحلم في محض قدره ... و لو شئت كان الحلم منك المهنّدا

ـ و إنّ الّذي أصبحتم تحلبونه ... دم غير أنّ اللّون ليس بأحمرا

ـ أعلّمه الرّماية كلّ يوم ... فلمّا اشتدّ ساعده رماني

و كم علّمته نظم القوافي ... فلمّا قال قافية هجاني

ـ و إن حلفت لا ينقض النأي عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

ـ أبا المِسك أرجو منك نصرا على العدا ... و آمُلُ عزا يخضب البيض بالدّم

و يوما يغيظ الحاسدين و حالة ... أقيم الشّقا فيها مقام التّنعّم

ـ إنّني أوقد ناري في البراري ... و أجاري المشتهي آنس ربّه

ـ إنّ العدوّ و إن تقادم عهده ... فالحقد باق في الصّدور مغيّب

ـ ألا من رأى الطّفل المفارق أمّه ... بعيد الكرى عيناه تنسكبان

ـ إنّي نزلت بكذّابين ضيفهم ... عن القِرى و عن التّرحال محدود

---

١. الاعراف، ٥٧.
٢. الذّاريات، ٤٧.
٣. الواقعة، ٨٥.
٤. القلم، ١٦.
٥. البقرة، ١٩٥.
٦. القصص، ١٢.
٧. النساء، ٢.
٨. الصافات، ١٠١.
٩. نفس السورة، ١٧٧.

٣. تمرين عامّ على أنواع الحقيقة و المجاز:

أ) الكلمات الّتي بين الهلالين () استعملت مرة استعمالا حقيقيّا، و مرة استعمالا مجازيّا؛ بيّن المجازيّ منها مع ذكر العلاقة و القرينة لفظيّة أو حاليّة:

قال المتنبّي في المديح:

فيوماً بخيل (تَطرُد) الرّومَ عنهم ... و يوماً بجُود (تطرُد) الفقر و الجدبا

و قال:

فلا زالَت (الشّمسُ) الّتي في سمائه ... مطالعة (الشّمس) الّتي في لثامه

و قال:

عيب عليكَ تُرى بسيفٍ في الوغى ... ما يفعل (الصّمصام) بـ (الصّمصام)

قال أبو تمّام في الرّثاء:

و ما (مات) حتّى (مات) مضرب سيفه ... من الضّرب و اعتلّت عليه القنا السّمر

كان خالد بن الوليد إذا (سار) (سار) النّصر تحت لوائه.

ب) أمِنَ الحقيقة أم من المجاز كلمة «الشّمسين» في قول المتنبّي يرثي أخت سيف الدولة؟

فليتَ طالعةَ الشّمسين غائبةٌ ... وليت غائبة الشّمسين لم تَغِبِ

ج) أحقيقة أم مجاز كلمة «ليالي» في قول المتنبّي؟

نَشرتْ ثلاث ذوائبٍ من شَعرها ... في ليلة فَأرَتْ ليالي أربعا

د) أحقيقة أم مجاز كلمة «بدراً» في قول الشّاعر؟

و قد نَظَرتْ بدرَ الدُّجى و رأيتُها ... فكانَ كِلانا نَاظِراً وحدَه بدراً

هـ) أحقيقة أم مجازٌ كلمة «القمرين» في قول المتنبّي؟

و استقبلتْ قمرَ السّماء بوجهها ... فأرَتْنِيَ القمرَيْنِ في وقت معا

و) استعمل الأسماء الآتية استعمالا حقيقيّا مرّة و مجازيًّا أخرى لعلاقة غير المشابهة:

البرق ـ الرّيح ـ المطر ـ الثّعلب ـ النّسر ـ النّجوم ـ المعلّم ـ الكسلان ـ الخطيب ـ الحنظل ـ الدرّ ـ العلم.

المجاز العقليّ

المجاز العقليّ أسلوب أدبيّ فصيح، يدلّ على سعة ذهن الأديب و قدرته على تجاوز حدود الحقيقة إلى الخيال، ذلك أنّه لو كان الإسناد قاصرا على الحقيقه وحدها لجفّت اللّغة، و انعدم فيها رونق الحياة، و جمال التّعبير، فقولهم: «سَرّنا الزّمان»، و «ازدحمت الشّوارع»، و «جرى

النّهر»، و «أضاءت الغرفة»، و غير ذلك امتداد بالخيال إلى آفاق لا تبلغها العين، و إثارة للنّفس إلى حدود موغلة في عالم النّشوة و الفرحة، و تشخيص لمجرّدات كانت لولا هذا الأسلوب، كلماتٍ مقصوصةَ الجناح، محرومةً من كلّ عوامل السّموّ و التّحليق.

تحليل البحث. أنظر إلى هاتين الكريمتين: «و إذا قرأتَ القرآن جعلنا بينك و بين الّذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا»[١] وَ «إنّه كان وعده مأتيّا»[٢]. حيث جاءت كلمة «مستورا» بدل ساترٍ، و «مأتيّا» بدل آتٍ، فاستعمل اسم المفعول مكان اسم الفاعل، و إن شئت فقل: أسند الوصف المبنيّ للمفعول إلى الفاعل.

ثمّ انظر إلى هذه الأمثلة:

«بنى الأمير المدينة» و «ازدحمتْ شوارع المدينة» و «نهاره صائم و ليله قائم» و «جَدَّ جِدُّك، و كَدَّ كِدُّك». قال الحُطَيئةُ:

دَعِ المكارمَ لا تَرحَلْ لِبُغْيَتِها واقعُد فإنّكَ أنت الطّاعِمُ الكَاسي

فتجد: أنّ الفعل أسند إلى غير فاعله (في المثال الأوّل) فإنّ الأمير لا يبنى، و إنّما يبنى عمّاله، ولكن لمّا كان الأمير سببا في البناء أسند الفعل إليه.

و كذلك في الثّاني و الثّالث تجد أنّ الازدحام أسند إلى الشّوارع، و الصّوم إلى ضمير النّهار، و القيام إلى ضمير اللّيل، مع أنّ الشّوارع لا تزدحم، بل يزدحم النّاس بها، و النّهار لايصوم، بل يصوم من فيه، و اللّيل لا يقوم، بل يقوم من فيه، فالفعل أو شبهه في هذين المثالين أسند إلى غير ما هوله، و الّذي سوّغ ذلك الإسناد أنّ المسند إليه في المثالين زمان الفعل أو مكانه.

و في الرّابع أسند الفعلان «جَدَّ» و «كَدَّ» إلى مصدريهما، و لم يسندا إلى فاعليهما. و في الخامس يقول الحُطيئة لمن يهجوه: «واقعُد فإنّك أنت الطّاعم الكاسي» فهل تظنّ أنّه بعد أن يقول: لا ترحل لطلب المكارم يقول له: إنّك تطعم غيرك و تكسوه؟ لا، إنّما أراد اقعد كلّاً (أي: من يعوله غيره) على غيرك مطعوما مكسوّاً فأسند الوصف المسند للفاعل إلى ضمير المفعول.

فأنت ترى من الأمثلة كلّها أنّ أفعالا أو ما يشبهها لم تسند إلى فاعلها الحقيقيّ، بل إلى سبب الفعل أو زمانه أو مكانه أو مصدره، و أنّ صفات كانت من حقّها أن تسند إلى المفعول أسندت إلى الفاعل، و أخرى كان يجب أن تسند إلى الفاعل أسندت إلى المفعول، و من الهيّن أن تعرف أنّ هذا الإسناد غير حقيقيّ، لأنّ الإسناد الحقيقيّ هو إسناد الفعل إلى فاعله

---

١. الاسراء، ٤٥.

٢. مريم، ٦١.

الحقيقيّ، فالإسناد إذاً هنا مجازيّ و يسمّى بـ«المجاز العقليّ» لأنّ المجاز ليس في اللّفظ كالاستعارة و المجاز المرسل، بل في الإسناد و هو يدرك بالعقل.

تعريفه. و قدمرّ بيانه بأنّه «إسناد الفعل، أو ما في معناه إلى غير صاحبه، لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقيّ» فهو يتعلّق في صورته العامّة بالتّركيب و الجملة و يخرج عن دائرة الكلمة. و نفهم ما قالوا في تعريفه بأنّه: «إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له لملابسة»[١]، أي، لعلاقة. و المراد بـ«ما هو في معناه»: المصدر و اسم الفاعل... و ما إلى ذلك ـ كما أسلفنا ـ.

و معنى الإسناد إلى غير ما هو له: هو إسناد الفعل ـ مثلا ـ إلى شيء ليس من حقّه أن يسند إليه، لأنّه ليس بوصف له.

و هذا التّعريف يشمل إسناد الفعل المبنيّ للفاعل، و ما في حكمه، كاسم الفاعل إلى غير فاعله، كالمفعول، و المصدر، و الزّمان، و المكان، و السّبب، ممّا له علاقة بالفاعل، و يشمل أيضا إسناد الفعل المبنيّ للمفعول، و ما في حكمه، كاسم المفعول إلى غير نائب الفاعل ممّا له علاقة به كالفاعل و المصدر و نحوهما.

قرينة المجاز العقليّ

و أمّا قرينته، فهي الأمر الّذي يوضح أنّ إسناد الفعل أو ما في معناه، إسناد إلى غير ما حقّه أن يسند إليه، أي هي الدّليل الّذي ينصبه المتكلّم ليعرف السّامع أنّ الإسناد مجاز عقليّ، و هي على قسمين: لفظيّة و معنويّة.

و القرينة اللفظيّة كقول أبي النّجم:

قد أصبحت أمّ الخيار تدّعي ... عليّ ذنبا كلّه لم أصنع
من أنْ رأتْ رأسي كرأس الأصلع ... ميّز عنه قُنزُعا عن قنزع
جذب اللّيالي أبطِئي أو اسرعي

فهذا مجاز بدليل قوله بعده:

أفناه «قيل الله» للشّمس اطلعي ... حتّى إذا واراكِ أُفقٌ فارجعي

حيث أسند تميز شعر رأسه و إسقاطه إلى جذب اللّيالي على سبيل المثال بقرينة مذكورة في الكلام و قد تدلّ على بيان الإسناد، و نجد في كلامه ما يكشف عن قصد المجاز فيه.

---

١. المطول، ص ٤٥ـ٤٦.

و القرينة المعنويّة، تتجلّى في استحالة صدور المسند من المسند إليه، في مثل: «أتى بي الشّوق إلى لقائك» و «ساربي الحنين إلى رؤيتك» و «بنى الأمير المدينة».

في هذه الأمثلة لا نصدق عقلا أنّ «الشّوق» فاعل للفعل «أتى» و أنّ «الحنين» هو الّذي أجرى الفعل «سار» و أنّ الأمير هو الّذي قام وحده ببناء المدينة. فالقرينة هي استحالة قيام المسند بالمسند إليه المذكور، و إن كان في الأخير منها استحالته عادية أيضا.

علاقات المجاز العقليّ

للمجاز العقلي علاقات مختلفةو أشهرها:

١. السببيّة. فيا بني للفاعل و أسند للسّبب، كقوله ـ تعالى ـ: «يا هامان ابن لي صَرحاً لعلّي أبلغ الأسباب أسباب السّموات»[١]. إذ أسند «ابن» إلى سببه، و هو «هامان»، و الفاعل هو «العمّال».

قال المتنبّي:

و الهمّ يخترم الجسيم نحافةً ... و يُشيبُ ناصية الصّبيّ و يهرم

فالهمّ لا يهلك الجسيم، لأنّ الّذي يهلك هو المرض الّذي يسبّبه الهمّ، و الهمّ لا يشيب الرّأس، لأنّ الّذي يشيب هو ضعف أصول الشّعر النّاشئ عن الهمّ فإسناد الاخترام، و الإشابة إلى الهمّ مجاز عقليّ.

٢. المكانيّة. و فيها يسند الفعل أو ما في معناه، إلى مكان المسند إليه، كقوله ـ تعالى ـ: «و جعلنا الأنهار تجري من تحتهم»[٢]. فالأنهار هي أمكنة ثابتة للمياه الجارية، و الّذي يجرى، هو المياه.

٣. الزمانيّة. و فيها يسند الفعل أو ما في معناه إلى زمان حدوثه، كقوله ـ تعالى ـ: «فكيف تتّقون إن كفرتم يوما يجعل الولدانَ شيبا»[٣]. فأسند الفعل «يجعل» إلى اليوم، و هو زمانه، و هو ليس بفاعل، و إنّما زمن وقوعه؛ و الفاعل هو ما في ذلك اليوم من أهوال. و كما يقال: يوم عاصف، فاليوم ليس بعاصف، و انّما العاصف: الرّيح.

٤. المصدريّة. و فيها يسند الفعل إلى مصدره، أي المفعول المطلق، كقولهم عظمتْ عظمتُه، و صالتْ صولته، قال ـ تعالى ـ: «و إمّا ينزغنّك مِنَ الشّيطان نزغٌ»[٤]، فجملة

---

١. غافر، ٣٦ـ٣٧.
٢. الأنعام، ٦.
٣. المزمّل، ١٧.
٤. الأعراف، ٢٠٠.

«ينزغنّك نزغ» تتألّف من مسند و مسند إليه، و الفعل (ينزغنك): مسند و الفاعل: (نزغ) مسند إليه، و الفاعل الحقيقيّ، هو الشّيطان. و أيضا كقول أبي تمام:

تكـاد عـطاياه يُجَـنُّ جُـنُونُها   إذا لم يُـعوِّذْها بُـرقية طـالب

٥. الفاعليّة. فيا بني للمفعول و أسند إلى الفاعل الحقيقيّ. كقوله ـ تعالى ـ: «و إذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الّذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا»[١]. فالحجاب ساتر، و المستور هو القرآن، لكن أسندت الصّفة الّتي بنيت للمفعول إلى الفاعل، و هو الحجاب، مبالغة. و كما يقال: «سيل مفعم» حيث أسند المفعول «مفعم» إلى ضمير المفعول الّذي كان في الأصل فاعلا، لأنّ السّيل هو الّذي يفعم و يملأ.

و حقيقة الكلام: «أفعم السّيل الوادي» ولكنّهم تجوّزوا في الإسناد، و ذلك بإسنادهم «مفعم» إلى «السّيل» فجعلوا الفاعل «السّيل» نائب فاعل، أي جعلوه مفعولاً به، فقالوا: «سيل مفعم»، أي سيل مملوء، على سبيل المجاز العقليّ، و ذلك مبالغة في شدّة فيضان الماء في الوادي، فقد يتخيّل أنّ الماء هو الّذي امتلأ لا الوادي ليعبر عن إحساسهم بكثرة الماء.

٦. المفعوليّة. و هي إسناد ما بني للفاعل إلى المفعول، كقوله ـ تعالى ـ: «فأمّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية»[٢]. إذ العيشة مرضيّة، لا راضية، و حقيقة الكلام أن يقال رضي الرّجل عيشته، ثمّ أسند الفعل إلى المفعول به من غير أن يبنى له فحصل، رضيت العيشة، و هذا مجاز، ثمّ صيغ من الفعل المبنيّ للفاعل اسم فاعل، فقيل عيشة راضية، على سبيل المجاز العقليّ، مبالغة في النّعيم الّذي أعدّه الله للمؤمنين فرضوا به وسعدوا إلى درجة أنّ هذه العيشة راضية بصاحبها. و أن كان الأصل أن يرضى بها صاحبها.

الأسئلة و التّمارين

١. ما هو المجاز العقلي؟ و هل يحتاج إلى قرينة و علاقة؟ كم قسما القرينة للمجاز العقلي؟ و كم قسما علاقته؟

٢. بيّن المجاز العقليّ و قرينته و علاقته فيا يأتي:

أ) في الآيات التّاليه:

«فلمّا جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا»[٣].

---

١. الأسراء، ٤٥. ٢. القارعة، ٦ـ٧.
٣. فاطر، ٤٢.

«و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا»[1]

«و أخرجت الأرض أثقالها»[2].

«يوما عبوسا قطريرا»[3].

«و غرّكم بالله الغرور»[4].

«انه كان وعده مأتيا»[5] و «خلق من ماء دافق»[6].

ب) في الأشعار التّاليه:

دع المكـارم لا تـرحـل لبُـغيتها ... واقـعد فـإنّك أنت الطـاعم الكـاسي

فـافزع إلى ذخـر الشـؤون و عـذبه ... فالدّمع يـذهب بـعض جـهد الجـاهد

قـد عـزّ عـزّ الألى لا يبخلون عـلى ... أوطـانهم بـالدّم الغـالي إذا طـلبا

سـيذكرني قـومي إذا جَـدَّ جِـدّهم ... و في اللـيلة الظّـلماء يُـفتَقد البـدر

ستبدي لك الأيّام ما كـنت جـاهلا ... و يأتـيك بـالأخبار مـن لم تـزوّد

مـلكنا فكـان العـفو مـنّا سـجيّة ... فـلمّا مـلكتم سـال بـالدّم أبـطح

و كـلّ امرئ يـولي الجـميل محبب ... و كـلّ مكـان يـنبت العـزّ طـيّب

يـزيدك وجـهه حسـنا ... إذا مـا زدتـه نـظرا

إنّي لمـن مـعشر أفـنى أوائـلهم ... قـيل الكـماة: ألا أيـن المحـامونا

تجـوب له الظّـلماء عـين كأنّها ... زجاجة شرب غير مـلأى و لا صِفر

تكملة

و نرى من المناسب أن نسوق عنان الكلام إلى ذكر أقسام أخر من المجاز الّتي أوردوها في الكتب البلاغيّة:

١. مجاز الحذف و الزّيادة.

أ) مجاز الحذف: و هو أن يترك ذكر اللّفظ و يراد معناه بما ناب منابه من متعلّقاته، و هو أي المحذوف:

---

١. الأنفال، ٢.
٢. الزلزلة، ٢.
٣. الإنسان، ١٠.
٤. الحديد، ١٤.
٥. مريم، ٦١.
٦. الطارق، ٦.

قد يكون مضافا، مثل قوله ـ تعالى ـ: «و اسأل القرية الّتي كنّا فيها»[1]. إذ الأصل: أهل القرية.

و قد يكون المحذوف مضافا إليه، كقوله ـ تعالى ـ: «لله الأمر من قبل و من بعد»[2]. أي: من قبل الغلب و بعده.

ب) مجاز الزيادة: و هو أن يذكر لفظ و لا يراد معناه، كقوله ـ تعالى ـ: «فاضربوا فوق الأعناق»[3]. أي: اضربوا الأعناق.

۲. المجاز المركّب و المجاز المركّب المرسل.

المجاز المركّب: هو اللّفظ المركّب المستعمل قصدا و بالذات في غير المعنى الّذي وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصليّ، و هذا المجاز قسمان:

الأوّل: ما كانت علاقته المشابهة، و هي الاستعارة التّمثيليّة، أو المركّبة، و سوف يأتي بحثها مفصّلا.

الثاني: ما كانت علاقته غير المشابهة، و هو المجاز المركّب المرسل. الّذي يستعمله الأديب في غير ما وضع له في الأصل، و ذلك لعلاقة ليست المشابهة بين المعنى الأصليّ و المعنى الجديد مع وجود دليل في التّعبير يمنع إرادة المعنى الأصليّ الحقيقيّ، و المشهور منه نوعان:

أ) المركّبات الإنشائيّة المستعملة في المعاني الخبرية، إمّا للاحتراز عن مساواة اللّاحق بالسّابق، كقوله ـ تعالى ـ: «قال إنّي أشهد الله و اشهدوا أنّي بَرِيءٌ ممّا تشركون»[4]. بدأت الآيه بالصّيغة الخبريّة «إنّي أشهد الله»، ثمّ عطف عليها جملة إنشائيّة طلبيّة (و اشهدوا...) عدل ـ سبحانه ـ من صيغة الخبر إلى صيغة الإنشاء ترفّعاً و احترازاً من مساواة شهادة المخلوق بشهادة الخالق، و توكيدا لشهادتهم له بالبراءة من الشّرك فينال المعنى حظّه من القوّة و التّوكيد.

و إمّا إظهار العناية بالشّيء و الاهتمام بشأنه، كقوله ـ سبحانه ـ «قل أمر ربّي بالقسط و أقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد»[5]. لم يقل «و إقامة وجوهكم» إشعارا بالعناية بأمر الصلاة لعظم خطرها و جليل قدرها في الدّين.

---

۱. يوسف، ۸۲.
۲. الرّوم، ٤.
۳. الأنفال، ۱۲.
٤. هود، ٥٤.
٥. الأعراف، ۲۹.

ب) المركّبات الخبريّة المستعملة في المعاني الإنشائيّة.

إمّا للتحسّر و إظهار الحزن، كقول الشّاعر:

ذهب الشّباب فما له من عودة   و أتى المشيب فأين منه المهرب؟

فإنّ البيت مستعمل في التّحسّر على ذهاب الشّباب و انقضاء أيّامه، و العلاقة فيه (اللّزوم) لا المشابهة إذ يلزم من الإخبار بذهاب الشّباب التّحسّر و الحزن على ذهابه بقرينة: «و أتى المشيب».

و إمّا للدّعاء، نحو: وفّقك الله، و سدّد خطاك، و لك الحمد و الشّكر. في كلّ منها مجاز مركّب مرسل علاقته السّببيّة، و انّ أصلها: ليوفّقك الله، و ليسدّد خطاك، و لتحمد و تشكر.

٣. التّجوز في النّسب الإضافيّة و الإيقاعيّة.

أ) التّجوز في النّسب الإضافيّة، كقوله ـ تعالى ـ: «بل مكر اللّيل و النّهار»[١]، و الأصل: بل مكر النّاس في اللّيل و النّهار فإنّ المكر ليس من الأمور القائمة باللّيل و النّهار. و كقوله ـ سبحانه ـ: «و إن خفتم شقاق بينهما»[٢]، و أصله: و إن خفتم شقاق الزّوجين في الحالة الّتي بينهما.

ب) التّجوز في النّسب الإيقاعيّة، كقوله ـ تعالى ـ: «و لا تطيعوا أمر المسرفين»[٣]، و الأصل: و لا تطيعوا المسرفين بسبب أمرهم.

بلاغة المجاز

و اعلم أنّ المجاز من الوسائل الّتي تساعد على بلاغة التّعبير، و على جماله و حسن وقعه في نفوس المتذوّقين، ذلك أنّ المعنى ينقل من مدلول اللفظة الأصليّ أو الوصفيّ إلى مدلول جديد، هو أكثر اتّساعاً، و أبعد أفقاً و أدعى إلى التّأمّل. فإذا تأمّلت أنواع المجاز المرسل و العقليّ، رأيت أنّ أغلب ضروبها لا تخلو من مبالغة بديعة، ذات أثر في جعل المجاز رائعاً خلّاباً، فإنّ إطلاق الكلّ على الجزء ـ مثلا ـ مبالغة، و مثله إطلاق الجزء و إرادة الكلّ، كما إذا قلت: «فلان فم» تريد أنّه شَرِهٌ، يَلتقِمُ كلَّ شيء، و نحوه: «فلان أنف» عند ما تريد أن تصفه بعظم الأنف، فتبالغ فتجعله كلّه أنفا، و هكذا ضروبها الأخرى. ففيه تخلّص من قيد العبارة وضيقها، و شعورٌ بحريّة الأديب لأن يصبّ المعاني في القوالب الّتي يتصوّرها خياله، و الأشكال الّتي يستسيغها ذوقه، و ما إلى ذلك من الجمال و الفضل و البراعة و...

---

١. سبا، ٣٣.   ٢. النساء، ٣٥.

٣. الشعراء، ١٥١.

الاستعارة

تمهيد في بيان الاستعاره

قال إمام البلاغة في توصيفها:

«و اعلم أنّ الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأوّل، و هي أَمَدُّ مَيداناً، و أعظم افْتِناناً، و أكثر جَرَياناً، و أعجب حسنا و إحساناً، و أوسع سعة، و أبعد غَوراً، و أذهب نجداً في الصّناعة و غَوراً، من أن تُجمَعَ شُعَبُها و شُعُوبها، و تُحصَرَ فنونها و ضروبها، و أسحر سحراً، و أملأ بكلّ مايملأ صدرا، و يُمتع عقلا، و يؤنس نفسا، و يوفر أنسا.

و من الفضيلة الجامعة فيها: أنّها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجِدّة تزيد قدرَه نبلا، و توجب له بعد الفضل فضلا، و إنّك لتجد اللّفظة الواحدة قد اكتست فيها فوائد حتّى تراها مكرّرة في مواضع، و لها في كلّ واحد من تلك المواضع شأن مفرد، و شرف متفرّد، و فضيلة مرموقة و خلابة مومرقة.

و من خصائصها الّتي تذكربها، و هي عنوان مناقبها، أنّها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللّفظ، حتّى تخرج من الصّدفة الواحدة عدّة من الدّرر، و تجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر»[۱].

فالاستعارة قمّة الفنّ البياني، و جوهر الصّورة الرّائعة، و العنصر الأصيل في الإعجاز، و الوسيلة الأولى الّتي يُحلّق بها الأدباء و البلغاء و أولوا الذّوق الرّفيع إلى سماوات من الإبداع و الابتكار على حدّ لا يدرك، و لا يوصف.

بالاستعارة ينقلب المعقول محسوساً، تكاد تلمسه اليد، و تبصره العين، و يشمّه الأنف.

و بالاستعارة تتكلّم الجمادات، و تتنفس الأحجار، و تسري فيها آلاء الحياة، فترى الطّبيعة الصّامتة الجامدة تغني و ترقص، و تلهو و تلعب كأنّها من ذوات الرّوح و المشاعر و الأحاسيس و القلوب النّابضة حبّاً و حياةً و انفعالاً[۲].

الاستعارة لغة و اصطلاحاً

الاستعارة في اللّغة: و هي مأخوذة من العارية، و هو اسم من الإعارة، أي: نقل الشّيء من

---

۱. أسرار البلاغة؛ ص ۳۲.

۲. البلاغة العربيّة؛ ج ۲، ص ۱۱۱.

شخص إلى آخر لتصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه، تقول: أعرته الشّيء، أعيره إعارة و عارة، و استعار الشّيء، و استعار منه: طلب أن يعيره إيّاه[١].

الاستعارة اصطلاحاً: هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصليّ و الفرعيّ مع قرينة مانعة عن إرادة المعنى الحقيقيّ، و ذلك كقوله ـ تعالى ـ: «كتاب أنزلناه إليك لتخرج النّاس من الظّلمات إلى النّور»[٢]. أي: من الضلالة إلى الهداية. فاستعمال الظّلمة و النّور في الضّلالة و الهداية استعارة، و «لتخرج النّاس» قرينة.

و الفرق الأساسيّ بين الاستعارة و المجاز المرسل يكمن في العلاقة، فهي في الاستعارة قائمة على المشابهة، و في المجاز المرسل على غير المشابهة، على أنّ الاستعارة كتشبيه بليغ حذف أحد طرفيه، لو جاز ذلك.

أركان الاستعارة

في كلّ استعارة ثلاثة أركان[٣]، هي:

١. المُستَعارُ منه، و هو المعنى المنقول عنه، أو المعنى الأصليّ (و هو المشبّه به).

٢. المُستَعارُ له، و هو المعنى المنقول إليه، أو المعنى الفرعيّ (و هو المشبّه).

و يقال لهما الطّرفان. و هذان الطّرفان لا يذكران معا، بل يحذف أحدهما دائما، بحيث لايحتاج إليه في التّركيب الكلاميّ.

٣. المُستَعارُ، و هو اللّفظ الدّال على المعنى المنقول عنه فاللفظ المستعار لابدّله من حقيقة دالّة على معناه في أصل الوضع. فكلّ مجاز يبنى على التّشبيه يسمّى «استعارة».

و لا بدّ فيها من عدم ذكر وجه الشّبه الّذي سمّي هنا «الجامع»، و لا أداة التّشبيه، بل و لابدّ أيضا من «تناسيّ التّشبيه» الّذي من أجله وقعت الاستعارة فقط، مع ادّعاء أنّ المشبّه عين المشبّه به، أو ادّعاء أنّ المشبّه فرد من أفراد المشبّه به الكليّ، بأن يجعله (أي: المشبّه به) جنسا أو كالجنس أو كعلم الجنس من الألفاظ الّتي تدلّ على العموم.

أقسام الاستعارة

الاستعارة باعتبار الأركان و العوامل المؤثّرة فيها، تنقسم إلى أقسام متعدّدة، و تتلوّن

---

١. قاموس المحيط، تاج العروس، مقاييس اللغة: مادة عار.

٢. ابراهيم، ١.

٣. ذكرها الرّماني في النكت في إعجاز القرآن: ص ٨٥.

بألوان مختلفة، لا يسعها هذا الكتاب، ولكنّا نورد بعضها على حسب حظّه من الأهميّة.

الاستعارة باعتبار مادّة الطّرفين

ينقسم الطّرفان إلى حسيّين، أو عقليّين، أو مختلفين، فينقسم الجامع باعتبارهما إلى حسيّ و عقليّ و مختلف، فهو حسيّ تارة، و عقليّ أخرى، و مختلف ثالثة فيما إذا كان الطّرفان حسيّين، و في الصّور الباقية لا يكون إلّا عقليًا:

۱. استعارة محسوس لمحسوس، و الجامع حسيّ. كقوله ـ تعالى ـ: «فاخرج لهم عجلا جسدا له خوار»[۱]. فإنّ المستعار منه ولد البقرة، و المستعار له الحيوان المصوغ من «حلي القبط» بعد سبكها بنار السّامريّ، و الجامع لهما الشّكل و الخوار، فإنّه على شكل ولد البقرة ممّا يدرك بحاسّة البصر.

۲. استعارة محسوس لمحسوس، و الجامع عقليّ. كقوله ـ تعالى ـ: «و آيه لهم اللّيل نسلخ منه النّهار»[۲]. فالمستعار منه: سلخ الجلد و إزالته عن الشّاة، و نحوها. و المستعار له: إزالة ضوء النّهار عن الأماكن الّتي تقع عليها ظلمة اللّيل بحيث تكون تلك الظّلمة ظاهرة منكشفة، و هما حسيّان. و الجامع بينهما، ما يعقل من ترتّب أمر على آخر بحصوله عقبه، كترتّب ظهور اللّحم على السّلخ و كشط الجلد و إزالته، و ترتّب حصول الظّلمة على إزالة الضّوء عن مكان اللّيل، و هذا التّرتّب عقليّ، و ذلك أنّه شبّه كشف الضّوء، عن اللّيل، بكشط الجلد عن نحو الشّاة، بجامع ترتّب ظهور شيء على شيء في كلّ، و استعير لفظ المشبّه به، و هو «السّلخ» للمشبّه، و هو «كشف الضّوء»، ثمّ اشتقّ منه «نسلخ» بمعنى نكشف.

۳. استعارة محسوس لمحسوس، و الجامع حسيّ و عقليّ من جهتين. كقولك رأيت بدرا يضحك، تريد شخصا مثل البدر في حسن الطّلعة، و علوّ القدر. فحسن الطّلعة حسيّ، و علوّ القدر عقليّ.

٤. استعارة معقول لمعقول. و الجامع فيها لا يكون إلّا عقليًا، كقوله ـ تعالى ـ: «من بعثنا من مرقدنا»[۳]. فإنّ المستعار منه، هو الرّقاد أي النّوم، و المستعار له «الموت»، و الجامع عدم ظهور الفعل الاختياريّ في كلّ، و ذلك أنّه، شبّه الموت بالرّقاد بجامع عدم ظهور الفعل

---

۱. طه، ۸۸. ۲. يس، ۳۷.
۳. نفس السورة، ٥۲.

الاختياريّ في كلّ، ثمّ اشتقّ من الرّقاد «مرقد»، اسم مكان الرّقاد بمعنى «قبر»، اسم مكان الميّت.

٥. استعارة محسوس لمعقول، و الجامع عقليّ. كقوله ـ تعالى ـ «فاصدع بما تؤمر»[1]. فإنّ المستعار منه كسر الزّجاجة و نحوها من الأشياء الصّلبة و تفريق أجزاءها و هو أمر حسيّ باعتبار متعلّقه، و المستعار له التّبليغ جهرا، و الجامع: التأثير الشّديد الّذي يوجد فيهما حيث تغيّر الظّاهر من أحدهما و الباطن من الآخر، و ذلك أنّه شبّه التّبليغ جهرا بكسر الزّجاجة بجامع التّأثير الشّديد في كلّ واستعير المشبّه به، و هو «الصّدع» للمشبّه و هو التّبليغ جهرا، ثمّ اشتقّ من الصّدع «اصدع» بمعنى بلّغ جهرا.

٦. استعارة معقول لمحسوس، و الجامع عقليّ. كقوله ـ تعالى ـ: «إنّا لمّا طغى الماء حملناكم في الجارية»[2]. فإنّ المستعار منه: التّكبّر، و هو عقليّ. و المستعار له: كثرة الماء، و هو حسيّ، و الجامع: الاستعلاء المفرط، أو الخروج عن حدّ الاعتدال، و هو عقليّ. و ذلك أنّه استعير لفظ المشبّه به، و هو الطّغيان، للمشبّه، و هو الكثرة الماء المفرطة المفسدة، ثمّ اشتقّ من الطّغيان فعل «طغى»، بمعنى كثر كثرة مفرطة.

الأسئلة و التّمارين

كم قسما الاستعارة باعتبار الطّرفين؟ ما هو الجامع؟ و هل هو عقليّ أم حسيّ أم مختلف؟ ما الفرق بين الجامع و بين وجه الشبه؟ هل يجوز أن يكون الطرفان عقليّين و يكون الجامع حسيّا؟

بيّن طرفي الاستعارة، و جامعها باعتبار الحسّ و العقل: قوله ـ تعالى ـ: «و الصّبح إذا تنفّس»[3].

قال الشّاعر:

بكت لؤلؤاً رَطبا فـفاضت مـدامـعي ... عقيقا فـصار الكـلُّ في نَحـرها عِـقداً

قوله ـ تعالى ـ: «و اخفض لهما جناح الذّلّ من الرّحمة»[4].

قال الشّاعر:

لَـنا جُـلساء لا نَمَـلُّ حـديثهم ... أَلِـبّاءُ مَأمُـونون غـيباً و مـشهداً

---

١. الحجر، ٩٤.
٢. الحاقة، ١١.
٣. التّكوير، ١٨.
٤. الاسراء، ٢٤.

قوله ـ تعالى ـ: «و لمّا سكت عن موسى الغضب»[۱].

قال ابن المعتزّ:

جمعَ النّاس الحقّ لنا في إمام   قتل البخل و أحيا السّماحا

قوله ـ تعالى ـ: «فنبذوه وراء ظهورهم»[۲].

قوله ـ تعالى ـ: «و إنّه في أمّ الكتاب»[۳].

قال الشّاعر:

و وردٍ جَنى قد طَالعَتْنا خدوده   ببِشرٍ و نشرٍ يبعثان على السّكر

قال المتنبّي:

في الخدّ إنْ عَزم الخليط رحيلا   مطر تزيد به الخُدود محولا

الاستعارة باعتبار الواقع

و اعلم أنّ الاستعارة باعتبار أنّ المستعار له موجود في الواقع أم لا، تنقسم إلى قسمين: تحقيقيّة و تخييليّة.

۱. التّحقيقيّة. هو ما كان المراد بالمستعار له أمرا معلوما بحيث يمكن أن يُنَصّ عليه و يشار إليه إشارة حسيّة أو عقليّة، و ذلك نحو قوله ـ تعالى ـ: «و آتوا اليتامى أموالهم و لاتتبدّلوا الخبيث بالطّيب»[٤]. استعير الخبيث للمال الحرام، و الطّيّب للمال الحلال، و هما أمران متحققّان حسّا.

و قوله ـ تعالى ـ: «الر، كتاب أنزلناه إليك لتخرج النّاس من الظّلمات إلى النّور»[٥]. استعير الظّلمات للجهل، و النّور للعلم، و إن شئت فقل: للضّلالة و الهداية، و لا يخفى أنّهما متحقّقان عقلا.

و يجري هذا المجرى قوله ـ سبحانه ـ: «إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت و يطهّركم تطهيرا»[٦]. استعير الرّجس للذّنب و العصيان الّذي هو أمر عقليّ.

۲. التّخييليّة. و هو ما لم يكن لمعنى المستعار له وجود في الواقع فلا يمكن النصّ عليه

---

۱. الأعراف، ١٥٤.
۲. آل عمران، ١٨٧.
۳. الزخرف، ٤.
٤. النّساء، ۲.
٥. ابراهيم، ۱.
٦. الأحزاب، ٣٣.

و لا الإشارة إليه في الحسّ و العقل، و إنّما يتجلّى في الوهم و الخيال، ولهذا يذوب في غيرهما. كقول عليّ (ع): «لقد رجعَتْ فيهم أبصار العبر، و سمعَتْ عنهم آذانُ العقول»، فإنّه استعير كلّ من الأبصار، و الآذان لما يتصوّر في الوهم من طرق الإدراك للعبر و العقول، و من البدهى أنّ المستعار له لم يكن له وجود في غير الوهم و التّخيّل، و انّه ليس في الواقع ما تشير إليه حسّا أو عقلا و تُجرى عليه لفظ الأبصار و الآذان[1].

الاستعارة باعتبار ما يلائم الطّرفين

قد لا يكتفي الأديب البليغ بذكر أركان الاستعارة من مستعار منه، و مستعار له، و لفظ مستعار، و إنّما يزيد في تعبيره كلا ما يتّصل بالمشبّه، أو بالمشبّه به، أو بهما، معا، و ذلك مع قطع النّظر عن القرينة اللّازمه فيها الدالّة على أنّ المستعار لم يستعمل في معناه الأصليّ.

و بناءً على هذا، فقد قسّم البلاغيّون الاستعارة بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام: مُرَشَّحة، مُجرَّدة و مطلقة.

١. المُرشَّحة. هي الّتي اقترنت بصفة أو تفريع ممّا يلائم المستعار منه (المشبّه به)، كقوله ـ تعالى ـ: «أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم»[2]. فاستعير الشّراء للاختيار و الاستبدال، و قرينته «الضّلالة»، و الاستعارة تشتمل على ما يلائم المشبّه به، و هو «فما ربحت تجارتهم».

قال البحتريّ:

يُـؤَدُّونَ التّحيّةَ مـن بـعيد   إلى قمرٍ مـنَ الإيوان بـاد

لقد شبّه البحتريّ ممدوحه بالقمر، بجامع الجمال و حسن الطّلعة في كلّ منهما، ثمّ حذف المشبّه، و صرّح بذكر المشبّه به، و هو القمر، و القرينة لفظيّة، و هي: يُؤدّون التّحيّة، فالقمر الحقيقيّ لا تُؤدّى إليه التّحيّة، و إنّما تودّى إلى القمر المجازي، و أمّا ما يلائم المشبّه به، فهو «من الإيوان باد»، لأنّه يلائم المشبّه به. و منها أيضا: «بين فكّيه حُسام لا يفل» و قول الشّاعر:

لنا جُلساءُ لا نَملّ حديثَهم   ألبّاءُ مأمونون غيبا و مشهدا.

و إنّما سمّيت هذا النوع من الاستعارة مرشّحة، لأنّ التّرشيح بمعنى التّقوية و التّزيين،

---

١. دراسة و نقد...؛ ص ٣٠٠ـ٣٠١.   ٢. البقرة، ١٦.

و إنّك إذا بنيت الاستعارة على تناسي التّشبيه و ذكرت ملائمات المستعار منه فقد سعيت في تقويتها و تزيينها[۱].

۲. المجرّدة. و هي الّتي اقترنت بما يلائم المستعار له (المشبّه)، كقول كُثيِّر يمدح عبدالعزيز بن مروان:

غمر الرّداءِ إذا تبسّم ضاحكاً غَلِقت بضحكته رقاب المال

استعار الشّاعر «الرّداء» للعطاء لأنّه يصون عرض صاحبه كما يصون الرّداء ما يلق عليه، ثمّ وصفه بـ«الغمر» الّذي يناسب العطاء دون الرّداء تجريداللاستعارة، و القرينة سياق الكلام، أعني قوله: إذا تبسّم...[۲].

و معنى البيت: أنّ السّائلين يأخذون أموال الممدوح من غير علمه و يأتون بها إلى حضرته، فيعرف ذلك و يبتسم في وجههم و لا يأخذها منهم، فضحكه سبب لتمكّن المال في أيديهم و أمارة على الإباحة لهم.

و كقولك: نفّضْ صدرك من الغِلّ و الحقد، أي فرّغ صدرك. و التّنفيض في الأصل تحريك الثّوب ليزول عنه الغُبار أو الشّجر ليسقط ما عليه من الورق و غيره، ثمّ استعير لمعنى التّفريغ و الإخلاء، فصدرك هاهنا قرينة، و من الغلّ و الحقد تجريد.

و انّما سمّيت هذا النوع من الاستعارة مجرّدة، لتجريدها عن بعض المبالغة، لبعد المشبّه حينئذ عن المشبّه به بعضَ بُعدٍ، و ذلك يبعد دعوى الاتّحاد الّذي هو مبنى الاستعارة.

۳. المطلقة. و هي استعارة خلت ممّا يلائم المستعار منه و المستعار له، أو اقترنت بما يناسبها سواء، إذاً فهي على شكلين:

أ) استعارة مطلقة خالصة من كلّ قيد، نحو: عندي أسد. قال المتنبّي:

أحِنّ إلى أهلي و أهوى لقاءَهم و أينَ من المُشتاق عنقاءُ مُغرِبُ

استعار العنقاء لأهله، و سياق الكلام: «أحنّ إلى أهلي» قرينة و لم يذكر في البيت إضافة على القرينة صفة أو تفريعا ممّا يناسب المشبّه أو المشبّه به.

ب) استعارة جامعة للمجرّدة و المرشّحة، أي يذكر ملائم المشبّه و المشبّه به معا، و ذلك لأنّ اجتماع التّجريد و التّرشيح يؤدّي إلى تعارضهما و سقوطهما، فكأنّ الاستعارة

---

۱. جواهر البلاغة؛ ص ۳۳۰ و دراسة و نقد...؛ ص ۲۹٦.

۲. المطول؛ ص ۳۰۱.

لم تقترن بشيء فتكون في صورة المطلقة و رتبتها من قوّة المبالغة، كقول زهير:

لدى أسد شاكي السّلاح مقذّف　　له لبد أظفاره لم تقلّم

استعار الأسد، للرجل الشّجاع، و قد ذكر ما يناسب المستعار له في قوله: «شاكي السّلاح مقذف»، و هو التّجريد، ثمّ ذكر ما يناسب المستعار منه في قوله: «له لبد أظفاره لم تقلّم» و هو التّرشيح[1]. و من المطلقة أيضاً: «في صدره حديد لايلين بالنّار، و لا يتأثّر بالكلام»، أي في صدره قلب. و قولك أيضا: بيننا جبال لا تتزلزل للرّياح و لا تركع للصّياح[2].

و اعلم أنّ التّرشيح أبلغ من غيره، لا شتماله على تحقيق المبالغة بتناسي التّشبيه، و ادّعاء أن المستعار له هو نفس المستعار منه (لا شيء شبيه به) و كأنّ الاستعارة غير موجودة أصلا، و الإطلاق أبلغ من التّجريد، فالتّجريد أضعف الجميع، لأنّ به تضعف دعوى الاتّحاد[3].

نموذج تطبيقيّ

فإن يهلك فكلّ عمود قوم　　من الدّنيا إلى هُلْكٍ يصيرُ

شبّه رئيس القوم بالعمود بجامع أنّ كلّا يحمل، و القرينة «يهلك»، و في «إلى هُلْكٍ يصير» تجريد.

إنّي شديد العطش إلى لقائك.

شبّه الاشتياق بالعطش بجامع التّطلع إلى الغاية، و القرينة «إلى لقائك» و الاستعارة مطلقة.

و ليلةٍ مرضَتْ من كلّ ناحية　　فما يضيئ لها نجم و لا قمر.

شُبّهت الظلمة بالمرض بجامع خفاء مظاهر النّشاط، ثمّ اشتقّ من المرض «مرضت». و في: «ما يضيئ لها نجم و لا قمر» تجريد.

سقاكِ و حيّانا بكِ الله إنّما　　على العيس نورٌ و الخدور كمائمُهْ

شبّه النّساء بالنّور، و الجامع الحُسن، و في ذكر الخدور تجريد كما أنّ في ذكر الكمائم ترشيح، فالاستعارة مطلقة.

---

۱. المطول؛ ص ۳۰۲ و جواهر البلاغة؛ ص ۳۳۰.

۲. دراسة و نقد...؛ ص ۲۹۷.　　۳. جواهر البلاغة؛ ص ۳۳۱.

الأسئلة و التمارين

۱. كم نوعا الاستعارة باعتبار الواقع؟ ما هي التّحقيقيّة؟ و ما هي التّخييليّة؟ كم قسما الاستعارة باعتبار ما يلائم طرفيها؟ ما هي المطلقة؟ و كم نوعا هي؟ ما هي المجرّدة؟ ما هي المرشّحة؟ أيّة استعارة من المطلقة و المجرّدة و المرشّحة أبلغ؟

۲. بيّن نوع كلّ استعارة فيما يأتي، و عين التّرشيح بها: قال السريّ الرّفاء

ـ و قد كَتَبَتْ أيدي الرّبيع صحائفاً كأنّ سُطورَ السّرو حسنا سطورها

ـ إذا ما الدّهر جرّ على أُناس كلاكله أناخَ بآخرينا

قال المتنبّي:

نامتْ نواطيرُ مصر عن ثعالِبِها و قد بَشِمْنَ و ما تفنى العناقيد

و قال أيضا:

أتى الزّمان بنوه في شَبِيبَتِهِ فسَرَّهم و أتيناه على الهرم

و قال أبو تمام:

نامتْ همومي عنّي حين قلتُ لها هذا أبو دُلَفٍ حسبي به و كفى.

قال بعضهم:

حاذر أن تقتُلَ وقت شبابِك، فإنّ لكلّ قتل قصاصاً.

و أيضا:

تَلطَّخَ فلان بعار لن يُغْسل عنه أبدا.

و أيضاً:

رحم الله امرءً ألْجَمَ نفسه بإبعادها عن شهواتها.

ـ اشتر بالمعروف عِرضَكَ من الأذى.

ـ أَضَاءَ رأيه مشكلات الأمور.

ـ لا تَخض في حديثٍ ليس من حقّك سماعه.

ـ بين فكّيه حُسام مُهَنَّد، له كلام[1] مُسَدَّدٌ.

ـ تَبَسَّمَ البرق فأضاء ما حولَه.

۳. بيّن لِمَ كانت الاستعارات الآتيه مطلقة و اذكر نوعها:

---

۱. الأمثلة من: البلاغة الواضحة؛ ص ۹۱ـ۹۲.

ـ قال بعضهم: يَهْجُم علينا الدّهر بجيش من أيّامه و لياليه ـ قال ـ تعالى ـ: «أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى و العذاب بالمغفرة»[1].

ـ و وصف أعرابي قحطا، فقال: التّراب يابس و المال عابس.

قال بعضهم: غنّى الطّير أُنْشودَته فوق الأغصان ـ برزت الشّمس من خِدْرِها ـ طار الخبر في المدينة.

٤. بيّن الاستعارات الآتية و ما بها من ترشيح أو تجريد أو إطلاق:

قال المتنبّي:

في الخدّ إنْ عزم الخليط رحيلا ... مطر تزيد به الخدود محولا

قال التّهامي يعتذر لحسّاده:

لا ذنب لي قد رُمتُ كتم فضائلي ... فكأنّما برقعتُ وجه نهار

قال ابو تمام في المديح:

نال الجزيرةَ إمحال فقلتُ لهم ... شِيموا نداه إذا ما البرق لم يُشِمِ

قال المعرّي:

ما الخير صوم يذوب الصّائمون له ... و لا صلاة، و لا صوفٌ على الجسد

و إنّما هو ترك الشّر مطّرحا ... و نفضُك الصّدر من غلٍّ و من حسد

قال المتنبّي:

فلم أرَ قبلي من مشى البحر نحوه ... و لا رجلا قامت تعانقه الأسد.

٥. اجعل الاستعارات الآتية مرّة مرشّحة و مرّة مجرّدة: لا تلبس الرّياء، و لا تجرورداءَ الطّيش، و لا تعبَثْ بمودّة الإخوان، و لا تصاحب الشّرّ، و لا تنخدع إذا نظرتَ في الأمور، و إذا عثرتَ فقم غير يائس، و إذا حاربك الدّهر فتجمّل غير عابس.

٦. هات ستّ استعارات فيها المرشّحة و المجرّدة و المطلقة.

الاستعارة المصرّحة و المكنيّة

لقد ثبت أنّ الاستعارة مبنيّة على أساس التّشبيه البليغ، أي معتمدة على مشبّه و مشبّه به. و ذكروا أيضا أنّ الاستعارة تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه. قال السّكاكيّ: «هي أن تذكر أحد

---

١. البقرة، ١٧٥.

طرفي التّشبيه و تريد به الطّرف الآخر...»[۱]. فن التّقسيمات الجارية فيها:

تقسيمها باعتبار ذكر المشبّه أو المشبّه به إلى قسمين: مصرّحة و مكنيّة.

المصرّحة. و هي ما حُذِف فيها «المشبّه»، و اكتفى من أركان التّشبيه بذكر المشبّه به، كقوله ـ تعالى ـ «كتاب أنزلناه إليك لتخرج النّاسَ من الظّلمات إلى النّور»[۲]، فاستعير لفظا «الظّلمات» و «النّور» للضّلال و الهدى، فحذف لفظ المشبّه (الضّلال و الهدى) و استعير بدلَه لفظ المشبّه به (الظّلمات و النّور) ليقوم مقامه، و يسمّى هذا النّوع من الاستعارة مصرّحة أو تصريحيّة، لمجيئ المشبّه به فيها صراحة. قال أبو الفرج الدمشقيّ:

فأمطرتْ لؤلؤاً من نرجسٍ وَ سَقَتْ   وَرداً و عضّتْ على العُنّاب بـالبَرَد

فقد استعار: اللّؤلؤ، و النّرجس، و الورد، و العناب، و البرد. للدّموع، و العيون، و الخدود، و الأنامل، و الأسنان.

المكنيّة. و هي ما لم يذكر فيها من أركان التّشبيه غير المشبّه، و ذلك كقوله ـ تعالى ـ: «و اخفض لهما جناح الذّل من الرّحمة»[۳]. جُعِلَ التّذلّل و التّواضع أمام الوالدين طائرا يحنو على أفراخه بجامع اللّين و الرّحمة، فلم يذكر من أركان التّشبيه إلّا «الذّل»، و هو المشبّه.

قال تأبّط شرّا:

إذا هـــزّه في عـظم قِـرْنٍ، تهـلّلتْ   نـواجِـذُ أفـواه المـنايا الضّـواحِكِ

جعل المنايا سبُعاً بجامع الإهلاك و الإعدام، و لم يذكر من أركان التّشبيه سوى المشبّه، أعني «المنايا»

و انّما سمّي هذا النّوع من الاستعارة بالمكنيّة، لأنّه لم يصرّح فيه بذكر المستعار، بل اقتصر على ذكر لازمه، لينتقل منه إلى المقصود، كما هـو شأن الكـناية، و ذلك اللّازم في المثالين المذكورين «الجناح» و «الأفواه»[۴].

تكـملة. لقد تضافرت آراء البلاغيين على أنّه إذا شبّه أمر بآخر من غـير تـصريح بشيء من أركان التّشبيه سوى المشبّه، و دلّ عليه بذكر ما يخصّ المشبّه به، كان استعارة مكنيّة و تخييليّة، ولكن اضطربت أقوالهم في تعيين المعنيين اللّذين يطلق عـليهما هـذان اللفظان، فنعرض فيا يلي بعض النظرات و الآراء على ضوء من البيان و التّوضيح، فنقول:

---

۱. مفتاح العلوم؛ ص ۱۵٦.
۲. ابراهيم، ۱.
۳. الاسراء، ۲٤.
٤. دراسة و نقد...؛ ص ۲۹۹ـ۳۰۰.

الاستعارة المكنيّة عند السّلف ـ ممّن تقدّم السّكاكيّ ـ عبارة عن أن يذكر لفظ المشبّه. فقط مع حذف المشبّه به و الإشارة إليه بشيء من لوازمه الّذي به كماله أو قوامه و إثبات ذلك هو الاستعارة التّخييليّة.

و أمّا المكنيّة عند السّكاكي، فهي عبارة عن ذكر المشبّه و إرادة المشبّه به منه على عكس الاستعارة المصرّحة، فمثلا في «مخالب المنيّة نَشِبت بفلان» أنّ ذكر المنيّة و إرادة السّبع بها استعارة مكنيّة بقرينة إضافة شيء من لوازم المشبّه به إلى المشبّه. و لمّا لم تجر الصّورة الّتي تنم عن تلك الاستعارة على ما هي تقتضيه ـ أعني ذكر المشبّه به و إرادة المشبّه، منه ـ سمّيت مكنيّة، لأن تلك الاستعارة لم تحصل من منطوق الصّورة، بل جاءت من طريق الاستلزام[1].

هذا إذا أردنا من المكنيّة «المكنيّ بها» أعني ما يتوسّل به للحصول على المراد من الكناية. أما إذا أردنا منها «المكنيّ عنها» فالاستعارة المكنيّة عنده عبارة عن استعارة المشبه به للمشبّه، الّتي لم يُدَلّ عليها صراحة بذكر المشبّه به و قصد المشبّه، منه بل رمز إليها بذكر المشبّه و ادّعاء اسمه للمشبّه به.

و التّخييليّة عنده أن يكون المشبّه المتروك شيئا وهميّا لا تحقّق له إلّا في مجرّد الوهم، و ذلك مثل: «لسان الحال الشّبيه بالمتكلّم ناطق بكذا» فإنّك لما شبّهت الحال بالمتكلّم أخذ الوهم في اختراع ما به قوام الكلام في الإنسان للحال، فيجعل له صورة مثل صورة اللّسان للإنسان ثمّ يطلق على تلك الصورة المخترعة في الوهم اسم اللّسان المتحقّق، كذا الحال في مخالب المنيّة الشّبيهة بالسّبع نَشِبت بفلان.

و لا تلازم بين المكنيّة و التّخييليّة عنده، لأنّه يرى تحقّق كلّ منهما بدون الآخر، أما تحقّق التّخييليّة بدون المكنيّة فكمخالب المنيّة نشبت... و لسان الحال... ناطق بكذا. و أمّا تحقّق المكنيّة مع غير التّخييليّة كنطقت في قولك «نطقت الحال بكذا» فإنّ فيها أمر مقدّر وهميّ[2].

و أمّا صاحب التّلخيص فيرى أنّ المكنيّة و التّخييليّة أمران معنويّان من أفعال المتكلّم، لأنّه يفسّر «المكنيّة» بالتّشبيه المضمر في النّفس، و «التخييليّة» بإثبات شيء من لوازم المشبّه به للمشبّه. فعلى هذا التّفسير أنّ لفظي «الأظفار» و «المنيّة» في قولك «أظفار المنيّة...» ليسا داخلين في المجاز اللغوي، بل كلاهما حقيقة لغويّة.

---

١. راجع: مفتاح العلوم؛ ص ١٦٠ـ١٦١. ٢. نفس المصدر؛ ص ١٥٩.

و المكنيّة و التّخييليّة على تفسيره متلازمان لايتحقّق أحدهما بدون الآخر، إذا التخييليّة يجب أن تكون قرينة للمكنيّة، و المكنيّة يجب أن يُدَلّ عليها بالتّخييليّة[۱].

نموذج تطبيقيّ

قال المتنبّي يصف دخول رسول الرّوم على سيف الدولة:

و أقبل يمشي في البساط فما درى   إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي

شبّه سيف الدّولة بالبحر بجامع العطاء ثمّ استعير الدّال على المشبّه به و هو البحر للمشبّه و هو سيف الدوله على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، و القرينة «فأقبل يمشي...» ثم شبّهه بالبدر بجامع الرّفعة فاستعير اللفظ الدّال على المشبه به و هو البدر للمشبّه و هو سيف الدّولة على سبيل التّصريحيّة، و القرينة مثل مامرّ.

وصف أعرابيّ أخاً له، فقال: كان أخي يقرى العين جمالا و الأذن بياناً.

شبّه إمتاع العين بالجمال و إمتاع الأذن بالبيان بقرى الضّيف ثمّ اشتُقّ من القِرى «يقرى» بمعنى يُمتِع على سبيل التّصريحيّة، و القرينة: جمالاً و بياناً.

قال تعالى: «و اشتعل الرأس شيباً».

شُبّه الرأس بالوقود، ثمّ حذف المشبّه به، و رُمِزَ إليه بشيء من لوازمه، و هو «اشتعل» على سبيل المكنيّة، و القرينة: إثبات الاشتعال للرأس.

قال أعرابي في المدح: فلان يَرمي بطَرْفِهِ حيثُ أشارَ الكرم.

شُبّه الكرم بإنسان ثم حُذف و رُمِز إليه بشيء من لوازمه و هو «أشار» على سبيل المكنيّة، و القرينة: إثبات الإشارة للكرم[۲].

الأسئله و التّمارين

۱. كم نوعا الاستعارة باعتبار ذكر المشبّه أو المشبّه به؟ ما هى الاستعارة المكنيّة؟ و ما هى التخييليّة؟ و ما هى المصرّحة؟ ما هو رأى السّلف في المكنيّة؟ و ما هو رأى السّكاكيّ فيها؟ و ما هو رأي صاحب التّلخيص فيها؟ هل تكون التخييليّه من قرائن المكنيّة؟

۲. أجر الاستعاره التّصريحيّة الّتي بين هلالين () فيا يأتي:

كلُّ زنجيّة كأنّ سواد الـ   ـليل أهدَى لها سواد (الإهاب)

---

۱. دراسة و نقد...؛ ص ۳۰۶ـ۳۰۹.
۲. البلاغة الواضحة؛ ص ۷۷ـ۷۸.

قال الشّاعر:

إذا لمـــع (البرق) في كـــفّه　　أفاض على الوجه ماء النّعيم

قال المتنبّي:

ما ترى ظَفراً حلواً سوى ظفر　　(تصافحتْ) فيه بيض الهند و اللّمم

٣. أجر الاستعارة المكنيّة الّتي بين هلالين فيما يأتي: مدح أعرابي رجلا فقال:

تطلّعتْ (عيون الفضل) لك، و أصغتْ (آذان المجد) إليك و مدح آخر قوما بالشّجاعة فقال:

أقسمتْ (سيوفهم) ألّا تضيع حقّاً لهم.

قال السريّ الرّفاء

مواطن لم يسحب بها (الغيّ) ذيله　　و كم للعوالي بينها من مساحب

٤. بيّن التّصريحيّة و المكنيّة من الاستعارات التّي بين هلالين مع بيان السّبب، فيما يأتي:

ذمّ أعرابيّ قوماً فقال: أولئك قوم (يصومون) عن المعروف و (يفطرون) على الفحشاء.

و ذمّ آخر رجلا فقال: إنّه سمين (المال) مهزول (المعروف) قال دِعبِل الخُزاعيّ:

لا تعجبي يا سَلمُ من رجل　　ضحك (المَشيب) برأسه فبكى

قال أبو العتاهية يهنّئ المهدي بالخلافة:

(أتته الخلافةُ) منقادةً　　إليه تُجرّرُ أذيالها

٥. حوّل الاستعارات الآتية إلى تشبيهات:

قال أبو تمام:

دِيَمةٌ سمحةُ القِياد سَكوب　　مُستغيثٌ بها الثّرى المكروبُ

قال السّريّ:

ألمّ بِربعِها صُبحاً فألقى　　مُلِمُّ الشّيب في لمم الجبال

و قال أيضا:

و أهيف إن زَعزعته البنا　　نُ أمطر في الطّرس ليلا أحمّ

٦. حوّل التّشبيهات الآتية إلى استعارات

أنا غُصن من غصون سَرحَتِك　　و فرع من فروع دَوحتك

أنا السّيف إلّا أنّ للسّيف نبوةً　　و مِثلي لا تَنبو عليك مضاربه

قال تعالى: «ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة»

و إنّ صخراً لتأتمّ الهُداة به　　كأنّه علم في رأسه نار

أسد عليّ و في الحروب نَعامة　　ربداء تَجفِل من صفير الصّافر!

الاستعارة العناديّة و الوفاقيّة

و اعلم أنّ بعضهم قسم الاستعارة التّصريحيّة باعتبار اجتماع طرفيها و عدمه إلى عناديّة و وفاقيّة. و ليس في هذا التّقسيم كثير فائدة، فنعرضه تبعالهم و مقدّمة لنوع آخر من الاستعارة سمّى «التهكميّة» و «التمليحيّة»، فنقول:

العناديّة. و هي الّتي لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد لتنافيهما كاجتماع النّور و الظّلام.

و الوفاقيّة. و هي الّتي يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد، لعدم التّنافي، كاجتماع النّور و الهدى.

و مثالهما، قوله ـ تعالى ـ: «أو من كان ميتا فأحييناه» (أي: ضالاًّ فهديناه).

ففي هذه الآية استعارتان:

الأولى: في قوله «ميتاً»، شبّه الضّلال بالموت بجامع ترتّب نفي الانتفاع في كلّ، و استعير الموت للضّلال، و اشتقّ من الموت بمعنى الضّلال «ميتاً» بمعنى ضالاًّ، و هي عناديّة، لأنّه لايمكن اجتماع الموت و الضّلال في شيء واحد.

و الثّانيه: استعارة الإحياء للهداية، و هي «وفاقيّة» لإمكان اجتماع الإحياء و الهداية في الله ـ تعالى ـ فهو محيي وهادٍ.

الاستعارة التّهكميّة و التمليحيّة

ثمّ العناديّة تنقسم إلى: تهكميّة و تمليحيّة و هما ما استعمل المشبّه به في ضدّ معناه الحقيقيّ، أو نقيضه، و المقصود منها: التّمليح و الظّرافة أو التّهكّم و الاستهزاء، كقولك: «رأيت أسدا» و أنت تريد جبانا على سبيل التّمليح و الظّرافة أو الاستهزاء، و هما اللّتان، نُزّل فيهما: التّضاد، منزلة التّناسب، كقوله ـ تعالى ـ: «فبشّرهم بعذاب أليم»[1]. أي أنذرهم، فاستعيرت البشارة الّتي هي الخبر السّارّ، للإنذار الّذي هو ضدّه بإدخال الإنذار في جنس البشارة على سبيل التهكّم و الاستهزاء[2]. و كقوله ـ تعالى ـ: «فاهدوهم إلى صراط الجحيم».

و الفرق بين التّهكميّة و التمليحيّة، هو أنّه إن كان الغرض الحامل على استعمال اللّفظ في ضدّ معناه: الهزء و السخريّة بالمقول فيه كانت الاستعارة «تهكميّة»، و إن كان الغرض

---

١. آل عمران، ٢١.

٢. المطول؛ ص ٢٩١ـ٢٩٢ و جواهر البلاغة؛ ص ٣٢٥ـ٣٢٦.

الحامل على ذلك بسط السّامعين، و إزالة السأمة و الحزن عنهم من طريق الإتيان بشيء مليح مُستظرف كانت الاستعارة حينئذ «تمليحيّة»[١].

الاستعارة الأصليّة و التّبعيّة

الاستعارة باعتبار اللّفظ المستعار تنقسم إلى قسمين: أصليّة و تبعيّة.

الأصليّة. و هي ما كان المستعار لفظ دالّ على ماهيّة كلّيّة من غير اعتبار وصف من الأوصاف في الدّلالة، سواء أكان ذلك اسم ذات، مثل «أسد» للرّجل الشّجاع، أم اسم معنى، مثل «القتل» للإذلال، أو الضّرب الشّديد؛ و سواء أكان اسم جنس حقيقة مثل «إنسان»، أم تأويلاً، كما في الأعلام الّتي اشتهرت بنوع من الوصف، كحاتم في قولك: «رأيت اليوم حاتما»، و أنت تريد رجلا جوادا، مثل حاتم.

فكما أنّ أسدا يقصد به الحيوان المفترس حقيقة، و الرّجل الشّجاع مجازا؛ كذلك حاتم يشار به إلى الرّجل الطائيّ المعروف بهذا الاسم حقيقة، و يقصد به «الجواد» مجازا.

و سمّيت «أصليّة» نسبة إلى الأصل بمعنى ما كان مستقلّا و ليس مبنيّا على غيره، و لا شكّ أنّ هذه الاستعارة تعتبر أوّلا من غير توقّف على تقدّم إستعارة أُخرى بخلاف التّبعيّة، فإنّها متوقفة على استعارة أخرى كما ستطّلع عليها. و ما أحسن قول المتنبّي في هذه الاستعارة! و هو يخاطب سيف الدّولة:

أحبّك يا شمسَ الزّمان و بدرَه و إن لامني فيك السُّها و الفراقد

شبّه سيف الدولة مرّة بالشّمس، و مرّة بالبدر بجامع الرّفعة، و الظّهور، ثمّ استعير اللّفظ الدّال على المشبّه به، و هو الشّمس و البدر للمشبّه على سبيل الاستعارة المصرّحة في الكلمتين، ثمّ شبّه مَنْ دونه مرّة بالسُّها و مرّة بالفراقد بجامع الصّغر و الخفاء، فاستعير اللفظ الدّال على المشبّه به و هو السّها و الفراقد للمشبّه على سبيل المصرّحة في الكلمتين أيضا.

و منه قول التّهامي يرثي ابنه:

يا كوكبا ما كان أقصر عمره و كذاك عمر كواكب الأسحار

التّبعيّة. و هي ما كان اللّفظ الّذي جرت فيه الاستعارة، مشتقّا، أو فعلا، أو حرفا.

و سمّيت تبعيّة، لأنّها تابعة لاستعارة أخرى في المصدر أو المتعلّق، لأنّ الاستعارة تعتمد التّشبيه، و التّشبيه يعتمد كون المشبّه موصوفا بوجه الشّبه أو بكونه مشاركا للمشبّه

---

١. دراسة و نقد...؛ ص ٢٩٤.

به في وجه الشّبه، و إنّما يصلح للموصوفيّة الحقائق، أي الأمور المتقرّرة الثّابتة، مثل الجسم و البياض، دون معاني الأفعال، و الصّفات المشتقّة، فإنّها متجدّدة و غير مستقرّرة لدخول الزّمان في مفهوم الأفعال و عروضه للصفات،و دون الحروف، فإذا قيل: رقد فلان، بمعنى أنّه مات، فيقدّر تشبيه الموت بالرّقاد أوّلا، ثمّ يستعار (رقد) لِمَاتَ تبعا لاستعارة الرّقاد للموت، فتكون استعارة المصدر أصليّة، و استعارة الفعل، و ما يشتقّ منه، تبعيّة لها. و المحتمل للاستعارة في الحروف متعلقات معانيها (على خلاف فيها) و من أمثلة ذلك:

١. قوله تعالى: «إنّا لمّا طغا الماءُ حملناكم في الجارية»[١]. شبّه زيادة الماء، زيادة مفسدة، بالطّغيان بجامع مجاوزة الحدّ في كلّ، و ادّعى أنّ المشبّه فرد من أفراد المشبّه به، ثمّ استعير لفظ المشبّه به للمشبّه، فاشتقّ منه «طغى» بمعنى الزّيادة على سبيل التّبعيّة.

٢. و تقول: هو الكابح لنفسه، أي الحاكم و المسلّط عليها.

شبّه الحكم و التّسلّط على الشّيء بكبحه بجامع القدرة و التفوّق فيهما، ثمّ استعير المشبّه به للمشبّه، فسرى التّشبيه و الاستعارة من المصدر إلى الصّفة، أو اشتقّ من المصدر المستعار لفظ (الكابح)، فعلى هذا تجري الاستعارة في «الكابح» تبعا للمصدر لا لنفس الفعل و الصّفة.

٣. قوله تعالى «و لأصلبنّكم في جذوع النّخل»[٢]. شبّه الاستعلاء على الشّيء بالظرفيّة فيه بجامع الاقتران بذلك الشّيء فيهما ثمّ استعير المشبّه به للمشبّه، فسرى ذلك العمل من متعلّق معنى الحرف إلى نفس الكلمة الدّالة على المشبّه به أعني «في» و استعيرت للمشبّه[٣].

٤. قوله تعالى: «و لمّا سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح»[٤].

شبّه انتهاء الغضب بالسّكوت، بجامع الهدوء في كلّ. ثمّ استعير اللّفظ الدّال على المشبّه به (و هو السّكوت) للمشبّه، و هو انتهاء الغضب. ثمّ اشتقّ من السّكوت بمعنى انتهاء الغضب، كلمة «سكت» بمعنى «انتهى» على سبيل التّبعيّة.

٥. قوله تعالى: «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً و حزنا»[٥]. و هم لم يلتقطوه للعداوة، و إنّما التقطوه ليصير لهم قرّة عين، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة حيث

---

١. الحاقة، ١١.
٢. طه، ٧١.
٣. دراسة و نقد...؛ ص ٢١٧.
٤. الاعراف، ١٥٤.
٥. القصص، ٨.

قدّر تشبيه العداوة و الحزن الحاصلين بعد الالتقاط بالعلّة الغائيّة، كالمحبّة و التّبني، بجامع مطلق التّرقّب في كلّ على الالتقاط. فالعاقبة هي المشبّه، و العلّة، هي المشبّه به، و التّرتّب، هو وجه الشّبه. فاستعير المشبّه به (العلّة) للمشبّه (العاقبة)، ثمّ استعير اللام التيّ تدلّ على العلّيّة للعاقبة الّتي تكون من فروع معانيها، و القرينة على المجاز، استحالة التقاط الطّفل ليكون عدوّاً. (و هاهنا خلاف بين الجمهور و السّكاكي و بين صاحب التّلخيص و غيره، فليراجع الطّالب إلى الكتب المبسوطة البلاغيّة).

الأسئلة و التّمارين

١. كم نوعا الاستعارة باعتبار لفظ المستعار؟ هل يكون لفظ المستعار اسما دائما؟ ما هي الاستعارة الأصليّة؟ و ما هي التبعيّة؟ لماذا سمّيتا هذين الاسمين؟ كيف تتحقّق الاستعارة في الفعل؟ و كيف تتحقّق في الحرف؟

٢. بيّن الاستعارة الأصليّة و التبعيّة فيما يأتي:

قال السّريّ الرّفاء يصف شعره:

إذا ما صافح الأسماع يوماً ... تبسّمت الضّمائر و القلوبُ

قال ابن الرّومي:

بلد صحِبْت به الشّبيبة و الصّبا ... و لَبستُ ثوب اللّهو و هو جديد

قال البحتريّ في وصف جيش:

و إذا السّلاح أضاء فيه رأى العدا ... بـرّاً تألّق فيه بحرُ حديدِ

و قال ابن نُباتةَ في وصف مُهر أغرّ:

و أدهمَ يستمِدُّ اللّيلُ منه ... و تطلع بين عينيه الثُّريا

قال الشريف في الشّيب:

ضوء تَشعشَعَ في سواد ذوائبي ... لا أستضيءُ به و لا أستَصبحُ

بغَتْ الشّباب به على مقة له ... بيع العليم بأنّه لا يربح

قال البحتريّ في وصف قصر:

ملأت جوانبه الفضاء و عانقت ... شُرُفاتُه قِطَعَ السّحاب المُمطر

و قال في وصف روضة:

يُضاحكها الضّحى طوراً و طوراً ... عليها الغيثُ ينسجم انسجاما

و قال مهيار:

مـا لِسَـارِي اللّـهو في ليـل الصّبا   ضَـلّ في فـجر بـرأسي وَضَـحا

۳. اجعل الاستعارات التّبعيّة الآتية أصليّة

ـ إن أمـطرتْ عـيناي سَحّاً فـعن   بـوارق في مَـفرقي تـلمعُ

ـ إنّ التّـباعدَ لا يَـضُـرُّ إذا تـقاربت القُـلوب

و قال ابن المعتزّ يصف سحابة:

بـاكـية يـضحك فـيها بـرقها   مـوصولة بـالأرض مُرخـاةُ الطّـنبْ

٤. اجعل الاستعارات الأصليّة تبعيّة فيا يأتي:

ـ شرّ النّاس من يرضى بهدم دينه لبناء دنياه.

ـ شِراء النّفوس بالإحسان خير من بيعها بالعُدوان

ـ إنّ خوضَ المرءِ فيا لا يعنيه و فراره من الحقّ من أسباب عثاره.

ـ خير حليةٍ للشّباب كبحُ النّفس عند جُموحها[۱].

الاستعارة العاميّة و الخاصيّة

تنقسم الاستعارة باعتبار ظهور جامعها و خفائه إلى قسمين: عاميّة و خاصيّة.

العاميّة. و هي القريبة المبتذلة الّتي لاكتها الألسن، فلا تحتاج إلى بحث، و يكون الجامع فيها ظاهرا، و سمّيت عامية لإدراك عامّة النّاس لها. مثل استعارة الشّمس لإنسان معروف بجامع الشّهرة، و استعارة الأسد للرّجل الشّجاع بجامع الجرأة، و استعارة البحر للعالِم بجامع كثرة العطاء. فالجامع هذه الأمثلة و ما يماثلها، أمر واضح يسهل معرفته و إدراكه.

الخاصيّة. و هي الغريبة الّتي يكون الجامع فيها غامضا، لا يدركه إلّا أصحاب المدارك الّذين أوتوا ذهنا صافيا (وهم من الخواص) كقول كثيّر يمدح عبدالعزيز بن مروان:

غـمرُ الرّداء إذا تـبسّم ضاحكا   غـلقت لضـحكته رقـاب المـال

و قد مرّ بيان البيت في الاستعارة المجرّدة، و هذه الاستعارة لا يظفر باقتطاف ثمارها إلّا ذو و الفطرة السّليمة.

---

۱. البلاغة الواضحة؛ ص ۸۷ـ۸۸.

و كقول الشّاعر يصف فرسا بأنّه مؤدّب، و أنّه إذا نزل عنه و ألق عنانه في قربوس سرجه، وقف مكانه إلى أن يعود إليه:

و إذا احـــتبي قـربوسه بـعنانه ... علك الشّكيمة إلى انصراف الزّائر[1]

شبّه هيئة وقوع العنان موقعه من قربوس السّرج ممتداً إلى جانبي فم الفرس، بهيئة وقوع الثّوب موقعه من ركبتي المحتبي، ممتدا إلى جانبي ظهره، ثمّ استعار الاحتباء، و هو أن يجمع الرجل ظهره و ساقيه بثوب أو غيره، لوقع من العنان في قربوس السّرج فجاءت الاستعارة غريبة لغرابة الشّبه.

و يرى البلاغيّون أن وجود الغرابة في الاستعارة، ليس قاصرا على الظّرافة و اللّطف، لأنّ الغرابة قد تحصل بأمر آخر، و هو التّصرف في الاستعارة العامية و الخروج بها عن الابتذال، مثل قول كثيّر عزة:

و لمّا قضينا من منى كلّ حاجة ... و مسح بالأركان من هو ماسح

و شدّت على دهم المهارى رحالنا ... و لم ينظر الغادي الّذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

أراد أنها سارت سيراً حثيثاً في غاية السّرعة، وكانت سرعة في لين و سلاسة، حتّى كانت سيولا وقعت في تلك الأباطح فجرت بها.

و هو تصوير بديع لا متلائه بإبل تسير في رفق و موالاة حثيثة، شبّهها في حركة أعناقها الّتي توقظ في الذّهن عند رؤيتها برؤية الماء يسيل و تتلاحق موجاته.

و بالرّغم من الشّبه فيها ظاهر عاميّ، لكن قد تصرّف فيه بما أفاد اللطف و الغرابة، إذ أسند الفعل الّذي هو «سالت» إلى الأباطح دون المطيّ أو أعناقها حتّى أفاد أن الأباطح امتلأ بالإبل، لأنّ السّرعة و البطء في سير الأبل يظهران غالبا في الأعناق، و يتبيّن أمرهما في الهوادي، و سائر الأجزاء تستند إليها في الحركة و تتبعها في الثّقل و الخفّة.

و قد تحصل الغرابة بالجمع بين عدّه استعارات لإلحاق الشّكل بالشّكل، كما في قول امرئ القيس:

فـقلت له لمّـا تمـطّى بـصلبه ... و أردف أعـجازاً و ناء بكـلكل

أراد وصف اللّيل بالطول فاستعار له صلبا يتمطّى به، إذ كان كلّ صلب يطول عند

---

١. المطول: ص ٢٩٤.

التّمطّي، و بالغ بأن جعل له أعجازا يردف بعضها بعضًا، ثمّ أراد أن يصفه بالثّقل على قلب كلّ ساهر، فاستعار له كلكلاً ينوء به، أي يثقل به[١].

الاستعارة المفردة و المركّبه (= التّمثيليّة)

تنقسم الاستعارة باعتبار الإفراد و التّركيب إلى قسمين مفردة و مركّبة.

الاستعارة المفردة. و هي ما كان المستعار فيها لفظا مفردا كما هي في استعارة النّور للعلم، و الظّلمة للجهل، و الشّمس للوجه الجميل.

الاستعارة المركّبة (التّمثيليّة). قد مرّ في بحث المجاز أنّ المجاز المركّب ينقسم قسمين: قسم ما كان علاقته غير المشابهة، و هو المجاز المركّب الّذي سمّي بـ«المجاز المركّب المرسل» و هناك تفصيله.

و آخر ما كان علاقته المشابهة، و هو المجاز المركّب بالاستعارة التّمثيليّة، فنقول فيه:

هو تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصليّ، بحيث يكون كلّ من المشبّه و المشبّه به هيأة منتزعة من متعدّد، و ذلك بأن تشبّه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بأخرى، ثمّ تدخل المشبّه في الصّورة المشبّهة بها، مبالغة في التّشبيه، و تسمّى في بعض الأحيان «تمثيلا» مطلقا، أو «تمثيلا على سبيل الاستعارة»، و تمتاز عن التّشبيه، بأنّ الاصطلاح جار على أنّ التّمثيل إذا أطلق انصرف للاستعارة، و إذا أريد التّشبيه، قيل «تشبيه تمثيليّ» أو «تشبيه تمثيل».

و إنّما سمّيت تمثيليّة، مع أنّ التّمثيل عامّ في كلّ استعارة، للإشارة إلى عظم شأنها، كأنّ غيرها ليس فيه تمثيل أصلا، إذ الاستعارة التّمثيليّة مبنيّة على تشبيه التّمثيل، و وجه الشّبه فيه هيئة منتزعة من متعدّد، لهذا كانت أدقّ أنواع التّشبيه، و كانت الاستعارة المبنيّة عليه من أبلغ أنواع الاستعارات، و لذلك كان كلّ من تشبيه التّمثيل، و الاستعارة التّمثيليّة غرضا للبلغاء.

و إذا اشتهرت الاستعارة التّمثليّة، و كثر استعمالها سمّيت «مثلا» و لا يغيّر مطلقا محافظة على الاستعارة فيخاطب به المفرد و المثنّى و الجمع، و المذكر و المؤنث بطريقة واحدة. و هي كثيرة الورود في الأمثال السّائرة، نحو:

١. بالصيفِ ضيّعتِ اللّبن. شبّهت هيئة مَنْ فرط في أمر زمن إمكان تحصيله، بهيئة

---

١. جواهر البلاغة؛ ص ٣٢٦ـ٣٣٠ و أساليب البيان في القرآن؛ ص ٦٠٩ـ٦١٣.

المرأة الّتي طلقت من الشّيخ اللّابن، ثمّ رجعتْ إليه تطلب منه اللّبن شتاء بجامع التّفريط في كلّ، و استعير الكلام الموضوع للمشبّه به للمشبّه، على طريق الاستعارة التّمثيليّة.

٢. إنّي أراك تقدّم رِجلا و تؤخر أخرى. شبّهت هيئة من يتردّد في أمر بين أن يفعله و ألّا يفعله، بهيئة من يتردّد في الدّخول، فتارة يقدّم رجله، و تارة يؤخرها، بجامع الحيرة في كلّ، و استعير الكلام الموضوع للمشبّه به للمشبّه على طريق التّمثيليّة.

٣. أحشفاً و سوء كيلة. شبّهت هيئة من يظلم من وجهين، بهيئة رجل باع آخر تمراً رديئاً و ناقص الكيل، بجامع الظّلم من وجهين في كلّ و استعير الكلام الموضوع للمشبّه به للمشبّه على طريق التّمثيليّة.

٤. لأمرمّا جدع قصيرأنفه. شبّهت هيئة الرّجل المتستّر تحت أمر ليحصل على أمر خفيّ يريده، بهيئة الرّجل المسمّى «قصيرا» حين جدع أنفه ليأخذ بثأر «جذيمة» من (الزّباء) بجامع الاحتيال في كلّ، و استعير الكلام الموضوع للمشبّه به للمشبّه، على طريق التّمثيليّة[١].

أهمّيّة المثل في الكلام

و اعلم أنّ الأمثال قصارى فصاحة العرب العرباء، و جوامع كلمها و نوادر حكمها، و بيضة منطقها، و زبدة حوارها، و بلاغتها الّتي أعربت بها عن القرائح السليمة، و الركن البديع إلى دراية اللّسان، و غرابة اللّسن، حيث أو جزت اللفظ، و أشبعت المعنى، و قصرت العبارة، و أطالت المغزى، ولوحت فأغرقت في التّصريح، و كنّت فأغنت عن الإفصاح[٢].

و لأمرمّا أكثر الله في كتابه المبين، وفشت في كلام رسول الله (ص) و كلام الأنبياء و الحكماء و الأدباء، قال الله تعالى: «و تلك الأمثال نضربها للنّاس و ما يعقلها إلّا العالمون»[٣].

فالتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، و استنزاله من مقام الاستقصاء عليه، و أقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل، و قمع سورة الجامع الأبي، كيف لا! و هو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفيّة، و إبراز لها في معرض المحسوسات الجليّة، و إبداء للمنكر في صورة المعروف، و إظهار للوحشي في هيئة المألوف[٤].

---

١. المطول؛ ص ٣٠٣ و جواهر البلاغة؛ ص ٣٢٣ـ٣٢٧.
٢. بيان للزمخشري فى المستقصى نقله في أساليب البيان...؛ ص ٦٤٨.
٣. العنكبوت، ٤٣.
٤. بيان من تفسير أبي السعود، نقله: أساليب البيان في القرآن؛ ص ٦٥٠.

و توجد في الذكر الحكيم آيات كثيرة جارية مجرى الأمثال منها:

١. «الآن حَصْحَصَ الحقّ» (يوسف، ٥١).

٢. «الفتنة أشدّ من القتل» (البقرة، ١٩١).

٣. «أليس الصبح بقريب» (هود، ٨١).

٤. «لكلّ نبأ مستقرّ» (الأنعام، ٦٧).

٥. «إنّ البقر تشابه علينا» (البقرة، ٧٠).

٦. «و اتوا البيوت من أبوابها» (البقرة، ١٨٩).

٧. «لا يكلّف الله نفسا إلّا وسعها» (البقرة، ٢٨٦).

٨. «و عسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم» (البقرة، ٢١٦).

٩. «كلّ نفس بما كسبت رهينة» (المدثر، ٣٨).

١٠. «ضعف الطالب و المطلوب» (الحج، ٧٣).

١١. «لا إكراه في الدين» (البقرة، ٢٥٦).

١٢. «لكلّ أمّة أجل» (يونس، ٤٩).

١٣. «لكلّ أجل كتاب»[١] (الرّعد، ٣٨).

مقارنة بين المفاهيم القرآنية و الأمثال الكامنة.

١. «من عمل صالحا فلنفسه» (الجاثية، ١٥) ـ ما تَزرع تَحْصُد.

٢. «كلوا واشربوا و لا تسرفوا» (الاعراف، ٣١) ـ الحَمية رأس الدّواء.

٣. «و لكم في القصاص حياة» (البقرة، ١٧٩) ـ ألقتل أنفى للقتل.

٤. «بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه» (يونس، ٣٩) ـ من جهل شيئاً عاداه.

٥. «من يعمل سوءً يُجزبه» (النساء، ١٢٣) ـ كما تُدين تُدان.

٦. «قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي» (البقرة، ٢٦٠) ـ ليس الخبر كالمعاينة.

الأسئلة و التّمارين

١. ما هو المجاز المركّب؟ ما هي الاستعارة التّمثيليّة؟ ما هو المجاز المركّب بالاستعارة؟ ما هي محسنات الاستعارة التّمثيليّة؟ ما الفرق بين التّشبيه التمثيليّ و بين الاستعارة التمثيليّة؟

---

١. نفس المصدر؛ ص ٦٥٧ـ٦٥٩.

٢. اجعل التّشبيهات الضمنيّة الآتية استعارات تمثيليّة بحذف المشبّه، و فرض حال أُخرى مناسبة تجعلها مشبّهة:

قال المتنبّي:

ـ و لَمْ أرجُ إلّا أهل ذاك و من يُرِدْ ... مواطِرَ مِن غير السّحائبِ يظلم
ـ فإن تزعم الأملاك أنّك منهم ... فخاراً فإنّ الشّمس بعض الكواكب
ـ خذ ما تراه و دَعْ شيئاً سمعتَ به ... في طلعة البدر ما يغنيك عن زُحل
ـ لعلّ عَتبَك محمود عواقبه ... و ربما صحّت الأجسام بالعِلل

ـ و قال بعضهم في شريف لا يكاد يجد قوتا:

أيشكو لئيم القوم كظّاً و بطنةً ... و يشكو فتى الفتيان مسّ شغُوب
لأمرٍ غدا ما حولَ مكّة مقفراً ... جديبا و باقي الأرض غير جديب

٣. اجعل الاستعارات التّمثيليّة الآتية تشبيهات ضمنيّة بذكر حال مناسبة تجعلها مشبّهة قبل كلّ استعارة:

ـ يمشي رُويداً و يكون أوّلاً.
ـ رضيتُ من الغنيمة بالإياب.
ـ أنتَ تضيءُ للنّاس و تحترِقُ.
ـ كفىٰ بك داءً أن ترى الموتَ شافياً.
ـ ليس التّكحُّل في العينين كالكَحَل.
ـ و لا بدَّ دونَ الشَّهدِ من إبَرِ النَّحل.
ـ هو ينفُخُ في غير ضَرَم.
ـ أنت تحدو بلا بعير[1].

بلاغة الاستعارة

الاستعارة صورة من صور التّوسع و المجاز في الكلام، و هي من أوصاف الفصاحة و البلاغة العامّة الّتي ترجع إلى المعنى.

و إذا كان البلاغيّون ينظرون إلى المجاز و التّشبيه و الاستعارة و الكناية على أنّها عَمَدُ الإعجاز و أركانه، و على أنّها الأقطاب الّتي تدور البلاغة عليها، و توجب الفضل و المزيّة،

---

١. البلاغة الواضحة: ص ١٠٠ـ١٠٣.

فإنّهم يجعلون المجاز و الاستعارة عنوان ما يذكرون و أوّل ما يوردون.

تكمن بلاغة الاستعارة من حيث الابتكار و روعة الخيال، و فيما تحدثه من أثر في نفوس سامعيها، و ما ينفعل بها الوجدان، و يتحرك لها الشّعور، فهي مجال فسيح للإبداع، و ميدان لتسابق المجيدين من فرسان الكلام.

و يظهر جمال الاستعارة، في أنّها تصوّر المعنى تصويرا يحقّق غرض القائل، مع مبالغة مقبولة، و تأثير في نفس السّامع، و إثارة لخياله دون إطالة أو إطناب.

و قد استعمل العرب الاستعارة في كلامهم و أشعارهم تقريبا للمعنى إلى ذهن السّامع، لاستثارة خياليّة، و اختلاب لبّه، ليقنع بما يقال له، و يلق في روعه.

فوراء الصّور الاستعاريّة، كثير من المعاني و الخواطر تجعل القارئ و السّامع يعيشان في الجوّ النفسي الذي صدرت عنه الاستعارات الّتي كلما كانت صادقة التّعبير عن إحساس قائلها، كان لها الأثر في امتاع الآخرين، لأنّها توقظ انتباههم و تشركهم معه في إحساسه.

فالأديب الّذي وهبه الله استعدادا سليما في تعرّف وجوه الشّبه الدقيقة بين الأشياء، و ما أودعه قدرة على ربط المعاني، و توليد بعضها من بعض إلى مدى بعيد لا يكاد ينتهي، لم ينظر إلى الحياة بألوانها المحددة الواضحة، و إنّما يغور في جوانبها الغوامض الدّقاق، فترتسم في نفسه و يصبغ عليها ألوانا من روحه و نظره الثاقب، فيعطي صورة رائعة تسمو إلى عالم الخيال، و تبرزها في معرض مرآة تتجسد و تتجلى عليها الأشياء[1].

انظر إلى قول أبي فراس الحمداني عند ما يقول:

و يا عفّتي. مالي؟ و مالكِ؟ كلّما همت بأمرٍ همّ لي منكِ زاجر

فما شأن عفّة أبي فراس؟ و ما شأن الصّراع النّاشب بينها و بينه؟ إنّها تستحيل بلمسة من لمسات الاستعارة السحريّة إلى إنسان يقف موقف الزّاجر كلّما همّ الشّاعر بأمر تراه العفّة غير لائق به.

فهذه الصّورة الرائعة الخلّابة المؤثرة ما كانت لتكون لو أنّ الشّاعر التزم في التّعبير حدود الحقيقة، و قال مثلا: أنا أحاول ما يشين، لأنّي رجل عفيف.

ثمّ انظر قول الشّريف الرّضيّ في الوداع:

نسرق الدّمع في الجُيوب حياءً و بنا ما بِنا من الأشواق

---

١. نفس المصدر؛ ص ١٠٥ و أساليب البيان في القرآن؛ ص ٦٦٠.

هو يسرق الدمع حتّى لا يُوصَم بالضّعف و الخَوَر ساعة الوداع، و قد كان يستطيع أن يقول: «نَثْرُ الدّمع في الجيوب...»، ولكنّه يريد أن يسمو إلى نهاية المُرتقى في سحر البيان، فإنّ الكلمة «نِسرق» ترسم في خيالك صورة لشدّة خوفه أن يظهر فيه أثر الضّعف، و لمهارته و سرعته في إخفاء الدّمع عن عيون الرّقباء.

ثمّ اسمع قول البارودي:

إذا استلّ منهم سيّدٌ غَرْبَ سيفه تفزّعت الأفلاك و التفتَ الدّهرُ

فكلّ من (الأفلاك) و (الدّهر) قد تحوّل بالاستعارة إلى كائن حيّ حساس.

فهاتان الاستعارتان قد اعانتا الشّاعر على أن يرينا صورة الأجرام السّماويّة حيّة حسّاسة ترتعد خوفاً و فزعاً، و صورة الدّهر إنسانا يلتفت عجبا و ذهولا كلّما استلّ سيّد من قبيل الشّاعر المشهود لهم بالشجاعة و الفروسيّة من غمده. لقد صدق رسول الله (ص) إذ قال: «إنّ من البيان لسحرا»[1].

تمرين عام على كيفيّة إجراء الاستعارات

١. إنّ التّباعدَ لا يَضُرُّ إذا تقاربت القلوب

شبّه التّواد (بالتّقارب) بجامع الألفة في كل منهما، ثمّ استعير التّقارب للتّواد، و اشتقّ منه (تقارب) بمعنى (تواد) و القرينة كلمة القلوب، و هي استعارة مطلقة.

٢. ذم أعرابي رجلا فقال: يقطع نهاره بالمنى و يتوسّد ذراع الهمّ إذا أمسى.

شبّه المنى (بسكين قاطع) بجامع الاجهاز و إنهاء المقطوع في كلّ، و استعار اللّفظ الدّال على المشبّه به، للمشبّه و حذفه و رمز إليه بشيء من لوازمه و هو يقطع على سبيل المكنية الأصليّة المطلقة، و يقطع استعارة تخييليّة، و كذا شبّه (الهمّ) بإنسان و استعار اللفظ الدّال على المشبّه به للمشبّه، و حذفه و رمز إليه بشيء من لوازمه و هو الذّراع، على سبيل المكنيّة الأصليّة المرشحة، و القرينة كلمة الذّراع، و يتوسّد، ترشيح.

٣. لسنا و إن أحسابنا كرمت يوما على الأحساب نتّكل

في كلمة «على» استعارة تصريحيّة تبعيّة، فقد شبّه مطلق ارتباط بين حسب و حسيب بمطلق ارتباط بين مستعل و مستعلى عليه، بجامع التمكّن و الاستقرار في كلّ، ثمّ استعيرت «على» من جزئيّ من جزئيّات الأوّل، لجزئيّ من جزئيّات الثّاني على سبيل

---

١. البلاغة الواضحة؛ ص ١٠٥ـ١٠٧ و البلاغة العربيّة؛ ج ٢، ص ١٤٣ـ١٥٠.

التبعيّة التّصريحيّة.

٤. دقّـاتُ قـلب المرء قـائلة له إنّ الحـياة دقـائق و ثـوان

شبّه الدلالة بالقول بجامع إيضاح المراد في كلّ، و استعار اللّفظ الدالّ على المشبّه به، للمشبّه، و اشتقّ من القول بمعنى الدلالة (قائل) بمعنى دالّ، على طريق التّصريحيّة التبعيّة؛ و القرينة نسبة القول إلى الدقات

٥. عـضّنا الدّهـرُ بـنَابِه ليت مـا حـلّ بـنا بِـهِ

شبّه حوادث الدّهر بالعضّ بجامع التّأثير و الايلام من كلّ، و استعار اللفظ الدّال على المشبّه به للمشبّه، و اشتقّ من العضّ و هو المصدر (عضّ) بمعنى (آلم) على سبيل التّصريحيّة التّبعيّة، و ذكر النّاب ترشيح.

الكناية

الكناية في اللّغة: هي مصدر كَنَى يَكْنُو (= دَعَا يَدْعُو)، أو كَنَى يَكْنِي (= رَمَى يَرْمِي)، يقال: كنوت بكذا عن كذا، إذا تركت التّصريح به، و كنيت بكذا، أي بكثير الرّماد ـ مثلا ـ عن كذا، أي عن الجود، فأنت تتكلّم بشيء و تريد غيره.

الكناية في الاصطلاح: هي: ترك التّصريح بذكر الشّيء إلى ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك، و مبناها ـ عند السّكاكيّ و من تبعه ـ على الانتقال من اللّازم إلى الملزوم مع جواز إرادة اللّازم منها أيضا. فاللّفظ «مكنّي به»، و المعنى «مكنيّ عنه»؛ و إن شئت فقل: هي اللّفظ الّذي أريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى من لازمه، كلفظ «طويل النّجاد» المراد به لازم معناه أعني «طويل القامة» مع جواز أن يراد حقيقته طول النّجاد أيضا.

فالمراد من الأوّل، ذكر اللّفظ بقصد استعماله في ملزوم معناه الحقيقيّ مع جواز أن يقصد دلالته على نفس معناه الحقيقيّ أيضا.

و من الثّاني: استعمال اللفظ كالنّجاد و هو حمائل السّيف في لازم معناه، أي طويل القامة مع جواز أن يراد بذلك الكلام الإخبار بأنّه طويل حمائل السّيف و طويل القامة.

فالكناية تخالف المجاز من جهة جواز إرادة المعنى الحقيقيّ للّفظ مع إرادة لازمه، أي يجوز أن يراد بها كلا المعنيين: المعنى الحقيقيّ، و هو طول حمائل السّيف، و المعنى المجازي، و هو طول القامة. فكأنّها واسطة بين الحقيقة و المجاز: ليست حقيقة لأنّ اللّفظ لم يرد معناه الحقيقيّ، بل لازمه، و ليست مجازا لأنّ المجاز لابدّ له من قرينة مانعة عن إرادة المعنى الحقيقيّ، فإذا انتفت القرينة هنا، انتفى المجاز (هذا كلّه بناء على ما اختاره السّكاكي و الخطيب و من تبعهما، و فيها مذاهب أخرى مذكورة في الكتب المبسوطة البلاغيّة، فليراجعها الطّالب).

الكنايه و أقسامها

و اعلم أنّهم قسّموا الكناية باعتبارات مختلفة إلى أقسام متعدّدة و ألوان مختلفة، و لسنا هاهنا بصدد استقراء تلك الأقسام و دراستها بتمامها، لأنّه لا يسعها هذا المختصر، لكن نقف في هذا المجال عند أقسام اعتبرها السّكاكي و صاحب التّلخيص و من تبعهما، فنقول:

١. تقسيم الكناية باعتبار المطلوب منها

تنقسم الكناية بحسب المطلوب منها إلى ثلاثة أقسام: ١) المطلوب بها الصّفة، ٢) المطلوب بها الموصوف، ٣) المطلوب بها النّسبة.

الكناية عن صفة

و هي الّتي يطلب بها نفس الصّفة ـ و المراد بالصّفة ليس النّعت المعروف في علم النحو، بل الصفة المعنويّة كالجود و الشّجاعة و الطول و الجمال و غير ذلك، و في هذا النوع من الكناية يذكر الموصوف و تستر الصّفة مع أنّها هي المقصودة، كقوله تعالى ـ «كأنّهم لؤلؤ مكنون»[1]. فأراد باللّؤلؤ المكنون، كونها بكرا ذات بهاء و شأن، بحيث لم يرمثلها، فهي كناية عن صفة، و كقوله (ص): «أناس حديثة أسنانهم»[2] حداثة السّنّ كناية عن الشباب، و أوّل العمر.

و كقول الخنساء في أخيها صخر:

طويل النّجاد رفيع العماد ... كثير الرّماد إذا ما شتا

- يشتمل هذا البيت على ثلاث كنايات عن صفات، و هي: طويل النّجاد، و رفيع العماد و كثير الرّماد.

فقولها: «طويل النّجاد» وصف لأخيها بصفتي: طويل القامة، و القدرة على القتال. فالنّجاد معناها ـ كما ذكرنا ـ حمائل السّيف، و يلزم من طول حمالة السّيف طول القامة من جهة، و قوّة الجسم، و قدرته على القتال من جهة أخرى.

و قولها: «رفيع العماد»، وصف لأخيها بعلوّ المكانة في قومه، لأنّ العماد معناه البناء الرّفيع ذو الطّول. و هذا يدلّ على أمرين: أوّلها، أنّ منزله معلّم، و صاحبه يستقبل كثيرا من النّاس، يدخلون داره راكبين، أو راجلين ممّا يدلّ على علوّ مكانة صاحب البيت، و اتّصافه بصفات الزّعامة و الشّهرة.

و قولها: «كثير الرّماد» وصف لأخيها بالكرم فكثرة الرّماد ناتجة عن كثرة حرق الحطب، و هذا لأنّ النّار لديه، دائمة الاشتعال ممّا يدلّ على كثرة الطّبخ، لكثرة الضّيوف الّذين ينزلون داره و يحظون بضيافته.

قال المتنبّي:

فَمَساهُمْ و بُسْطُهُمُ حريرٌ ... و صبّحهم و بُسْطُهُم ترابُ

---

١. الطور، ٢٤.

٢. النّهاية لابن الأثير؛ ج ١، ص ٣٥١.

بسطهم حرير: كناية عن العزّ. و بسطهم تراب: كناية عن الذّلّ و الفقر.

و قال الشّاعر:

يُغشَون حتّى ما تهرُّ كِلابُهم لا يَسألُونَ عن السَّواد المُقبل

يشتمل هذا البيت على كنايه عن صفة الكرم، و هي: «ما تهرّ كلابهم»، أي لا تنبح، لأنّها جبنت أو أنست و ألفت كثرة القادمين و الأضياف، فلم يعد يُحرّكها مجيئ الغرباء، لأنّهم كثيرون، ممّا يدلّ على كرم صاحبها.

و اعلم أنّ الكناية الّتي تطلب بها صفة نوعان:

الأولى، كناية قريبة، و هي ما يكون الانتقال إلى المطلوب بغير واسطة بين المعنى المنتقل عنه، و المعنى المنتقل إليه.

و تنقسم القريبة هذه إلى قسمين أيضا، على سهولة الانتقال بين المعنيين أو صعوبته.

أ) القريبة الواضحة. و هي ما كان الانتقال فيها سهلا يسيرا، فهي «واضحة» كقولهم كناية عن طويل القامة: «طويل النّجاد»، و هذه كناية ساذجة يشوبها شيء من التّصريح. و طول النّجاد ـ بإضافة الصّفة إلى النّجاد ـ تصريح ما بالمقصود الّذي هو طويل القامة فكانت كناية مشوبة بالتّصريح، و لم تجعل تصريحا حقيقيّا.

ب) القريبة الخفيّة. و هي ما كان الانتقال بين المعنيين فيها لا يحصل إلّا بشيء من إعمال الفكر و التّأمّل، فهي «خفيّة»، كقولهم كناية عن الأبله: «عريض القفا»، فإنّ عرض القفا، و عظم الرّأس إذا أفرطا، يستدلّ به على البلاهة. فهو ملزوم لها بحسب الاعتقاد لكن في الانتقال منه إلى البلاهة نوع خفاء لا يطّلع عليه كلّ أحد و ليس الخفاء بسبب كثرة الوسائط و الانتقالات، حتى تكون بعيدة.

و الثانية، الكناية البعيدة، فهي الّتي يتمّ فيها الانتقال بين المعنى الحقيقيّ إلى المعنى المطلوب «الصّفة» بواسطة أو بعدد من الوسائط، و بحسب قلّة الوسائط و كثرتها تختلف الدّلالة على المقصود وضوحا و خفاءً، و ذلك مثل قولهم: «كثير الرّماد» كناية عن المضياف، فإنّه ينتقل من كثرة الرّماد إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدور، و منها إلى كثرة الطّبخ، و منها إلى كثرة أكله، و منها إلى كثرة الضّيوف، و منها إلى المقصود: و هو المضياف، فهذه التّسلسلة المتصلة من الانتقالات الذّهنيّة تجعل الصّورة الكنائيّة بعيدة عن إدراك المتلق، و من ثمّ لا يصل بسهولة إلى المعنى المطلوب أو الصّفة المرادة.

فهذا النموذج من التّصوير الكنائي، من النّوع البعيد لوجود الواسطة أو الوسائط بين المعنى «المكنّى به»، و المعنى «المكنّى عنه» الّذي ينتقل فيه ذهن المتلق منفقاً زمناً غير قصير

للوصول إلى الصّفة المرادة، و التّصوير على هذا النّحو يجعل الكناية باعتبارها مصطلحاً بلاغيّاً يشترك في بعض جوانب مصطلح «التّداعي الذّهني»، أو تيار الشّعور المنساب، الّذي يبنى على الخواطر و تداعيها و تعلّقها بعضها ببعض[1].

الكناية عن موصوف

و هي الّتي يطلب بها نفس الموصوف، فتذكر الصّفة، ليتوصّل بها إلى الموصوف، و شرطها أن تكون مختصّة بالمكنيّ عنه، لا تتعداه، و لذلك يحصل الانتقال، كقوله تعالى: «أو من ينشؤ في الحلية، و هو في الخصام غير مبين»[2]. فالّذي ينشؤ في الحلية هي (البنت)، لأنّ أهلها يجمّلونها بالحلية، و أنواع الزّينة منذ نشأتها.

قال الشّاعر:

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى مشعوفةً بمواطن الكتمان

و قال أبو نواس:

و لمّا شربناها و رَبَّ ربيبها إلى موطن الأسرار قلت لها قفي

و قال الشّاعر:

الضّاربون بكلّ أبيض مخذمٍ و الطّاعنين مجامعَ الأضغان

اشتملت أبيات الشّعراء على كنايةٍ عن موصوف، و هو القلب، و كلّ شاعر عبّر عنه بصفة تدلّ عليه: فالأوّل عبّر عنه بمواطن الكتمان، لأنّها مواطن الأسرار الخفيّة. و الثّاني، عبّر عنه بمواطن الأسرار، لأنّه المكان الّذي تختبئ فيه الأسرار. و الثّالث عبّر عنه بمجامع الأضغان، لأنّه المكان الّذي تتجمّع فيه الأحقاد، حسب المفهوم الشّائع.

قال المتنبّي:

و مَنْ في كفّه منهم قَناةٌ كمَنْ في كفّه منهم خِضابٌ

من في كفّه قناة، كناية عن الرّجل. و من في كفّه خضاب كناية عن المرأة.

و اعلم أنّ الكناية الّتي يطلب بها موصوف قسمان:

۱. ما كان المكنّى به عن الموصوف معنىً واحداً يختصّ بالمراد، فيدلّ عليه بأبسط وجه و أقربه إلى السّهولة مثل «مجامع الأضغان» كناية عن القلوب، فجمع الأضغان معنى

---

۱. أساليب البيان في القرآن؛ ص ۷۳۱ـ۷۳۲.

۲. الزّخرف، ۱۸.

واحد، و هو صفة خاصّة بالقلب فلا يحلّ الضّغن أو الحقد بغيره من أعضاء الإنسان، و من البيّن أنّ الشّاعر صرّح بهذه الصّفة و لم يصرّح بموصوفها «القلب» المطلوب نسبة إنزال الضّغن به.

قال البحتريّ:

فأتبعتُها أخرى فاصللت نصلها   بحيث يكون اللّب و الرُّعب و الحِقد

أي: انّه طعن الذّئب أوّلا برمحه طعنة خرقاء لم تزده إلّا جرأة و صرامة، و لهذا أتبع الطّعنة الأولى طعنة أخرى استقرّ نصلها في قلب الذّئب.

و في الشّطر الثّاني من البيت ثلاث كنايات، كلّ منها مستقلّ بإفادة الغرض، لا كناية واحدة، فقوله «بحيث يكون اللّب و الرّعب و الحقد» كناية عن القلب إذ هو محل العقل و الخوف و الضّغينة، و يدخل في هذا القسم كثير من الكنايات الّتي ذكروها في باب الكناية عن الموصوف.

٢. ما كان المكنّى به مجموعة معانٍ تحتاج في اختصاصها بالموصوف المكنّى عنه إلى تكلّف ضمّ اللوازم بعضها إلى بعض، فتلفَّقُ مجموعا وصفيّا يُعَدُّ في الدّلالة على المراد بعيدا بالنسبة إلى ما كان المكنّى به معنى واحدا، و ذلك كقولك: «بَطَلُ الإسلام و حبيب النبيّ و مُفجّع هِندٍ و الشّهيد بأحُد» كناية عن حمزة سيّد الشهداء.

و كقول من قال: «إنّه حيّ مستوى القامة عريض الأظفار» فمجموع هذه الأوصاف الثّلاثة، هو المختصّ بالإنسان، لا كلّ واحد منها.

و قد وضع البلاغيون شرطا لهذين النّوعين من الكناية هو: «الاختصاص بالمكنّى عنه» أي الموصوف، ليحصل الانتقال، كما إنّهم جعلوا الكناية الأولى (أي الّتي تكون عن المعنى الواحد) قريبة، حيث يسهل المأخذ، و الانتقال فيها لبساطتها و استغنائها عن ضمّ لازم إلى آخر، و التّلفيق بينهما؛ و جعلوا الثّانية بمجموعة معان مختلفة بعيدة، لعدم السّهولة و صعوبة الانتقال في صورتها كما تبيّن.

الكنايه عن نسبة

و يراد بها إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه، و بعبارة أخرى: المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف. كقول الشّنفرى:

يبيت بمنجاة من اللّوم بيتُها   إذا ما بُيوت بالملامة حلّتِ

فإنّه لما أراد أن يصف زوجته بالعفاف و البراءة عن الملامة نسب تلك الصّفات إلى

بيتها على سبيل الكناية، و لا يخفى حسنها لما فيها من المبالغة و التأكيد، فالمراد بالعبارة الكنائيّة هاهنا إثبات العفاف و البراءة لصاحبة الدّار، ثم إنّه لم يقل: «يظلّ بمنجاة...» قصداً إلى زمان يكثر فيه التّهمة و الملامة[1].

و قول الشّاعر:

إنّ السّماحة و المروءة و النّدى   في قبّة ضُربت على ابن الحشرج

أراد الشّاعر أن ينسب إلى ممدوحه، سماحة النّفس، و المروءة و النّدى، فعدل عن نسبتها إليه مباشرة، و قال: إنّ هذه الصّفات في القبّة الّتي ضُرِبَتْ عليه، و نسبة الصّفات إلى القبّة، تستلزم نسبتها إلى الممدوح، لأنّه إذا ثبت الأمر في مكان الرّجل و حيّزه فقد ثبت له.

٢. أقسام الكناية باعتبار الوسائط

تنقسم الكناية بحسب كثرة الوسائط و قلتها، و خفاء المراد و وضوحه إلى: تلويح و رمز و إشارة و تعريض.

١. التّلويح

هو كناية انتقل المخاطب فيها من لازم بعيد إلى المراد و بعبارة أخرى: ما توسّطت فيه لوازم بين المكنّى به و المكنّى عنه كما عرفت في «كثير الرّماد». قال الشّاعر:

و ما يك فيّ من عيب فإنّي   جبان الكلب مهزول الفصيل

رجل جبان الكلب: كناية عن أنّه كريم، فالكلب الجبان ناجم عن دوام منعه عن الهرير ـ الّذي يهرّ على القادمين ـ و دوام المنع معناه دوام تأديبه و زجره، و دوام تأديبه ناجم عن كثرة القادمين إلى دار صاحبه و كثرة القادمين ناجم عن كونه سيّداً كريماً، إذ لا يزدحم النّاس إلّا على المنهل العذب و النّبع المعطاء.

و رجل مهزول الفصيل، كناية عن أنّه كريم أيضاً. فالفصيل مهزول، لأنّه انقطع سريعاً عن الرّضاعة من ثدي أمّه، و سبب الانقطاع قد يكون التّضحية بالأمّ من أجل الضّيوف، و قد يكون حاجة الضّيوف إلى لبن الأمّ، و كلاهما يدلّان على الكرم.

و وجه التّسمية بالتّلويح، هو أنّ التّلويح بمعنى الإشارة إلى غيرك من بعيد، فتناسب الكناية الّتي ينتقل فيها المخاطب إلى المراد من بعيد أن تسمّى به.

---

١. مفتاح العلوم؛ ص ١٧٣ـ١٧٤ و دراسة و نقد...؛ ص ٣٤٧.

٢. الرّمز

و هو كناية أشرتَ فيها إلى المراد بلازم قريب مع نوع من الاستتار، أو إن شئت فقل: كناية ذات مسافة قريبة مع نوع من الخفاء، و قد عرفت في «عريض القفاء» بيانه، و كقولك أيضاً: «نعته لا ينصرف» تريد انه احمق.

و قال الشّاعر:

صاحبنا أحواله عالية لكنّما غُرفتُه خالية

فكنّى عن قلّة الدّماغ و العقل بخلاء الغرفة، و لا يخفى ما في هذه الكنايات من الخفاء.

و وجه التّسمية بالرّمز، هو أنّ الرّمز بمعنى الإشارة من قريب على سبيل الخُفية.

٣. الإشارة و الإيماء

و هى كناية قليلة الوسائط، واضحة اللزوم، تدلّ على المعنى المراد دلالة مباشرة، قال البحتريّ:

أوَ ما رأيتَ المجد ألقى رحله في آل طلحة ثمّ لم يتحوّل

فإنّه كنّى عن مجد آل طلحة بأنّ المجد ألقى رحله فيهم و لا يخفى وضوح هذه الكناية.

و منه قول الشّاعر:

سألت النّدى و الجود مالى أراكما تبدّلتما ذلّاً بعزّ مؤبّد؟

و ما بال رُكن المجد أمسى مُهدّما؟ فقالا: أصِبنا بابن يحيى محمد

فقلت: فهلّا متّما عند موته فقد كنتما عبديه في كل مشهد

فقالا: أقناكى نُعزّي بفقده مسافة يوم ثمّ نتلوه في غد[1]

٤. التّعريض

و هي كناية مسوقة لأجل موصوف غير مذكور، كقولك في عُرض من يؤذى المسلمين: «المسلم من سَلِمَ المسلمون من يده و لسانه».

تريد به نفي الإسلام عن ذلك الشّخص المؤذى فأنت ترى أن الموصوف الّذي أريد نفي الإسلام منه لم يذكر في العبارة، بل يعرف من السّياق و القرائن[2].

و هذا التّعريض يأتي تارة على السّبيل الخاص بالكناية، بمعنى أنّ مايدلّ عليه

---

١. دراسة و نقد...؛ ص ٣٤٩.

٢. مفتاح العلوم؛ ص ١٧٣ـ١٧٤.

يتجاذبه جانباً حقيقة و مجاز و يجوز حمله عليهما، و ذلك كقولك مهدّداً: «يوم المظلوم عليك أشدّ من يومك عليه» و أنت تريد مع المخاطب إنسانا آخر معتمدا على قرائن الأحوال.

و تارة يأتي على سبيل المجاز، بمعنى أنّه يوجد هناك قرائن تشعر بأنّ ما يدلّ على التّعريض لا يلائم إرادة المعنى الحقيقيّ، كما إذا كان المخاطب بالمثال المذكور كان رجلا مظلوما أو إنساناً عادلاً متقيّاً لم يكن مظنّة للظّلم، فإذا قلت له: «يوم المظلوم عليك...» و أردت غيره، جرى هذا التّعريض على سبيل المجاز.

فالتعريض عند السّكاكي قسم من الكناية أو صورة منها سيقت لأجل موصوف غير مذكور، و ليس شيئا آخر غير الكناية[١].

و اعلم أنّ أرباب البلاغة و أصحاب الصّياغة للمعاني متّفقون على أنّ «المجاز أبلغ من الحقيقة»، و أن «الاستعارة أقوى من التّشبيه»، و أنّ «الكناية أبلغ من التّصريح».

و السّبب في أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة، هو أنّ مبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم، فأنت في قولك: «رعينا الغيث» ذاكراً الملزوم النّبت مريداً به لازمه بمنزلة مدّعي الشّيء ببيّنة، فإنّ وجود الملزوم شاهد لوجود اللّازم لا متناع انفكاك الملزوم عن اللّازم لاداء انفكاكه عنه إلى كون الشّيء ملزوماً غير ملزوم باعتبار واحد. و في قولك: رعينا النّبت مدعٍّ للشّيء لا ببيّنة، و كم بين ادّعاء الشّيء ببيّنة و بين ادّعائه لابها!

و السّبب في أنّ الاستعارة أقوى من التّشبيه، أمران، أحدهما أنّ في التّشبيه اعترافا بكون المشبّه به أكمل من المشبّه في وجه التّشبيه.

و الثاني أنّ في ترك التّصريح بالتّشبيه إلى الاستعارة الّتي هي مجاز مخصوص الفائدة الّتي سمعت في المجاز آنفا من دعوى الشّيء ببيّنة.

و السّبب في أنّ الكناية أبلغ من التّصريح، هو نظير ما تقدّم في المجاز، بل عينه، فإن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى ملزوم معيّن و معلوم عندك أن الانتقال من اللازم إلى ملزوم معين يعتمد مساواته إيّاه، لكنّهما عند التّساوي يكونان متلازمين فيصير حال الكناية كحال المجاز في كون الشّيء معها مدعّى ببيّنة[٢].

بلاغة الكناية

الكناية صورة من صور التّعبير، و مظهر من مظاهر البلاغة، و أسلوب من أساليب البيان، و

---

١. دراسة و نقد...؛ ص ٣٥٠.

٢. مفتاح العلوم؛ ص ١٧٤.

غاية لا يقوى على الوصول إليها إلّا بليغ متمرس لطف طبعه وصفت قريحته، و يختصّ بالدّقة و الغموض، ممّا تبعث في الإنسان التّفكير، و إعمال الذّهن في شأنها.

و الكناية بشتّى أنواعها تحقّق أهدافا لغويّة وفنيّة و فكريّة يمكن تجسيدها بعبارة تؤكّد أنّ هذا الفنّ القولي، يمتاز بحسن التّعبير و عمق التّأثير.

و كشف الإمام عبدالقاهر الجرجاني عن السّرّ في قدرة الكناية على ذلك، و علّل بلاغتها، فبيّن قبل كلّ شيء: أنّه «قد أجمع الجميع على أنّ الكناية أبلغ من الإفصاح، و التّعريض أوقع من التّصريح» و لكي تطمئنّ نفس المرء إلى ذلك يجب أن يعرف سبب ذلك و علته و تكمن مزيّة الكناية في طريق إثبات المعنى و ليس في نفس المعنى الّذي يقصد إليه المتكلّم، فزيادة إثبات المعنى يجعله أبلغ و أوكد و أشدّ. فليست المزيّة في قولهم: جَمُّ الرّماد أنّه دلّ على قِرىً أكثر، بل إنّك أثبت له القِرى الكثير من وجه هو أبلغ و أوجبته إيجابا هو أشدّ، و ادّعيته دعوى، أنت بها أنطق و بصحّتها أوثق.

فهو يحاول أن يؤكّد، أن المزيّة البيانيّة للكناية، إنّما هي في طريق إثبات المعنى، دون المعنى نفسه، و من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأوّل الّذي تجعله دليلا على المعنى الثّاني و وسيطا بينك و بينه متمكنا في دلالته، و مستقلّا بواسطته، يَسفر بينك و بينه أحسن سفارة، ويشير لك إليه أبين إشارة حتّى يخيّل إليك أنّك فهمته من حاقّ اللّفظ.

كما يرى أنّ للكناية وظيفة تكمن في خلق صورة تؤثر في نفس المتلق و المتذوق، و هذا التّأثّر لا يحدث إذا كان الكلام مستعملا على التّصريح و إنّ هذا التّأثير لا يدرك إلّا بالنّظر إلى المعاني واحدا واحدا، و التّعرف على محصولها و حقائقها.

و إضافة إلى التّأثير في نفس المتلق و دورها الرّمزي و الايحائيّ فإنّ للكناية دوراً أساسيّاً في تقديم المعني و هذا لا يخرج عن طبيعتها فهي طريقة خاصة في التّعبير تكسب المعاني فضل إيضاح أو بيان، لأنّ الفرق بين التّعبير الصّريح و المكنّى عنه كبير، و من هنا جاءت الكناية صورة بلاغيّة تقدم المعنى في اطار فنّي جميل[1].

نماذج تطبيقيّة للكناية

١. المجد بين ثوبيه و الكرم بين برديه.

٢. قد كان تعجب بعضهنّ براعتي ... حتّى رأين تنحنحي و سعالي

كني عن كبر السّن بتوابعه، وهي التّنحنح و السّعال.

---

١. أساليب البيان في القرآن: ص ٧٤٣ـ٧٤٤.

۳. نظر البديع الهمداني إلى رجل طويل بارد، فقال: قد أقبل الشّتاء.

٤. دخل رجل على مريض يعوده، و قد اقشعرّ من البرد، فقال: ما تجد؟ قال: أجدك (يعني البرد).

٥. إذا كان الرّجل ملولا، قيل: هو من بقيّة قوم موسى. و إذا كان ملحدا، قيل: قد عبر (يريدون جسر الايمان). و إن كان يسيئ الأدب في المؤاكلة، قيل: تسافر يده على الخوان و يرعى أرض الجيران. و يقال عمّن يكثر الأسفار: فلان لا يضع العصا عن عاتقه.

٦. و من أمثال العرب: فلان بريئ السّاحة: إذا برؤوه من تهمة ـ رحب الذّراع، إذا كان كثير المعروف ـ طويل الباع في الأمر، إذا كان مقتدرا فيه ـ قوي الظّهر، إذا كثر ناصروه.

٧. و من كلامهم: فلان طويل الذّيل، أي غني حسن الحال. قال الحريريّ:

إنّ الغريب الطّويل الذّيل ممتهن فكيف حال غريب ماله قوت؟!

و كذلك قولهم: طاهر الثّوب، أي منزّه عن السيّئات. دنس الثّوب، أي متلوث بها، قال امرؤ القيس:

ثياب بني عوف طهارى نقيّة و أوجههم عند المشاهد غرّات

و يقولون: فلان غمر الرّداء، إذا كان كثير المعروف عظيم العطايا، قال كثيّر:

غمر الرّداء إذا تبسّم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال.

٨. و من الكنايات اللطيفة، ممّا ذكرها الأدباء في الشّيب و الكبر: عرضت لفلان فترة ـ نور غصن شبابه ـ جاء النّذير ـ قرع ناجذ الحلم ـ و ارتاض بلجام الدّهر ـ أدرك زمان الحنكة ـ رفض غرّة الصّبا ـ لبّى دواعي الحجى.

الأسئلة و التّمارين

١. ما هي الكناية؟ ما هو تعريفه عند السّكاكي؟ كم قسما للكناية باعتبار المطلوب؟ ما هي الكناية القريبه الواضحة؟ و ما هي الكناية القريبة الخفيّة؟ ما هي الكناية التّي يطلب بها الصّفة؟ و التي يطلب بها الموصوف؟ و الّتي يطلب بها النسبة؟ ما هي الكناية البعيدة؟ كم قسما للكناية باعتبار الوسائط؟ ما هو التّلويح؟ و ما هو الرّمز؟ و ما هي الإشارة؟ و ما هو التّعريض.

٢. بيّن الصّفة الّتي تلزم من كلّ كناية فيما يأتي: نئوم الضّحى ـ ألقى فلان عصاه ـ ناعمة الكفّين ـ قرع فلان سنّه ـ يُشار إليه بالبنان ـ «فأصبح يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها، و هي خاوية» ـ ركب جناحي نعامة ـ لوت الليالي كفّه على العصا ـ قال المتنبّي في وصف فرسه:

و أصرع أي الوحش قفّيته بــه و أنــزل عــنه مــثله حــين أركب

ـ فلان لا يضع العصا عن عاتقه.

٣. بيّن الموصوف في كلّ كنايه فيا يأتي:

قال تعالى: «و لو لا دفع الله النّاس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»[١].

قال المعرّي في السّيف:

ســليل النّــار دقّ و رقّ حــتّى كأنّ أبــاه أورثــه السُّــلالا

ـ كبِرَت سنُّ فلان و جاءه النّذير ـ سئل أعرابي عن سبب اشتعال شيبه، فقال: هذا رغوة الشّباب. و قال آخر: هذا غبار وقائع الدّهر.

٤. بيّن النسبة الّتي تلزم كلّ كناية فيا يأتي:

قال أعرابيّ: دخلتُ البصرةَ فإذا ثيابُ أحرار على أجساد عبيد.

قال الشّاعر:

اليمــن يــتبع ظــلّه و المجــد يمــشي في ركــابه

قال تعالى: «عليهم نار مؤصدة»[٢].

قال الشّاعر:

و لا زال بــيت المــلك فــوقك عــاليا تُشــيّد أطــناب له و عــمود

٥. بيّن أنواع الكنايات الآتية و عيّن لازم معنى كلّ منها: مدح أعرابي خطيبا فقال: كان بَليل الرّيق قليل الحركات. ـ تقول العرب: فلان رَحْب الذّراع، نقيّ الثّوب طاهر الإزار، سليم دواعي الصّدر ـ وصف أعرابي امرأة فقال: تُرخي ذيلها على عُرقُوبَي نعامة.

قال الشّاعر:

مــثلك يــثني المــزن عــن صــوبه و يســترد الدّمــع عــن غــربه

قال عمر بن أبي ربيعة:

بــعيدة مهــوى القُــرط إمّــا لِــنَوفَل أبــوها و إمّــا عــبد شمس و هــاشم

٦. بيّن نوع الكنايات الآتية، و بيّن منها ما يصحّ فيه إرادة المعنى المفهوم من صريح اللّفظ، و ما لا يصحّ:

قال أبو نواس:

فــا جــازه جــود و لا حــلّ دونــه ولكــن يســير الجــود حيث يسير

---

١. البقرة، ٢٥١. ٢. البلد، ٢٠.

و تكني العرب عمّن يجاهر غيره بالعداوة بقولهم: لَبِس له جلد النَّمِر، و جلد الأرقم، و قَلَّب له ظهر المِجَنّ.

و تقول العرب في المدح: الكرم في أثناء حُلَّته ـ و يقولون: فلان نفخ شِدقَيه، أي تكبر، وَ وَرِمَ أنفُه إذا غضب.

قال الشّاعر:

بيض المطابخ لا تشكو إماؤهم طبخ القُدُور و لا غَسل المَناديل

۷. بيّن التّلويح و الإيماء و الرّمز و التّعريض فيما يأتي:

قال عروة بن الورد:

أقسمُ جسمي في جسوم كثيرة و أحسو قراح الماء و الماء بارد

قال حميد بن ثور:

أرى بصري قد رابني بعد صحّة و حسبك داء أن تصحّ و تسلما

قال حسان بن ثابت:

أتهجوه و لست له بكفوٍ فشرّ كما لخير كما الفِداء

قال الشاعر:

لا أُمتع العُوذ بالفِصال و لا أَبتاعُ إلّا قريبَة الأجل

قال أبو تمام يصف إبلا:

أَبينَ فما يَزُرن سوى كريم و حسبك أن تَزُورَ أبا سعيد

قال الشّاعر:

و لمّا توافقنا غداة وداعنا أشرن إلينا بالجفون الفواتر

فلم أر شيئاً كان أخصَرَ شاهِداً من اللحظ يُبني عن دخيل الضّمائر

قال الشّاعر:

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك و رحمة الله السّلام

علم الأساليب و الدراسات البلاغيّة

و اعلم أنّهم أحدثوا علما جديدا سمّوه «علم الأساليب» الذي يحتفظ بمعناه البلاغيّ القديم «طريقة الأداء لنقل ما في النّفس من معانٍ في عبارات لغويّة فنيّة» و يبرز بمحتواه الأدبي الجديد الذي يكون الجمال من أبرز صفاته و أظهر ميزاته. جامعاً كثيراً من المباحث الّتي لايمكن أن تضمّها المصطلحات الجديدة كالفصاحة أو دراسة الألفاظ و علم المعاني، و علم البيان، و علم البديع. و هي من أقدم الفنون الّتي عنى بها البلاغيّون، و أولوها أهمّية غظيمة.

الأسلوب لغة و اصطلاحاً

الأسلوب فى اللغة: الوجه، و الطّريق. و في الاصطلاح هو الطّريقة الّتي يأخذها الفنّان و الأديب لبيان أفكارهما و ما يجول في نفسهما، من المعارف و العواطف و الانفعالات و الابتداعات.

و هذه الطّريقة تختلف باختلاف الفنّ الذي يعالجه الفنّان و الأديب، و الموضوع الّذي يعبّران عنه، و الشّخص الذى يتكلّمان بلسانه أو بخلقانه. فمن البدهى أن طريقة الحماسة و أسلوبها غير طريقة الاعتذار مثلاً، و كذا أن طريقة الرّواية غير طريق الرّسالة و أنّ الشّعر غير النّثر، و أنّ النّثر العلميّ غير النّثر الأدبي، و ما إلى ذلك.

فلكل كاتب مذهبه في طريقة التّعبير عن أفكاره و عمّا يعرض على قلبه، أو في أسلوبه و شكل بيانه و صوغه.

فكلما كانت نفسيّات الأفراد و طبايعهم متباينة، و بيئاتهم متفاوتة، و ثقافاتهم متنوعة، و نزعات الفرديّة قويّة، و الحريّة و الاعتماد بالنّفس و إبراز الشّخصيّة بينهم شائعة، كانت طرق التّعبير و أساليب البيان و قوالب عرض الأفكار مختلفة، فن الأساليب الحديثة الشّائعة على األسنتهم، أسلوبان: علميّ و أدبيّ.

١. الأسلوب العلميّ

هو ما كان الكاتب فيه وقف أمام جانب من الحياة و عالجه بمنطق العقل، و حصل على فكرة و رتّبها ثمّ صاغها في قوالب مناسبة و عبارات واضحة. فالكاتب في الأسلوب العلمّي يتكلّم بعقله ليخاطب سائر العقول، و هو إذ يتكلّم لا يكون إلّا فرداً من الجنس البشريّ يوجه الكلام إلى عنصر مشترك بينه و بين سائر النّاس، فهو لا يدخل جانبه الشخصيّ في

كلامه، ذلك الجانب الّذي يتميّز به الأفراد بعضهم من بعض، فالعقول في النّاس كلّهم تنظر إلى الأمور من جهة واحدة، و لهذا نرى أنّ التّعبير العلميّ يقوله هذا هو نفس التّعبير الّذي يقوله ذلك و لا سبيل إلى الخلاف بينهما، و لو كان من أقصى الأرض إلى أقصاها.

الأسلوب العلميّ بناؤه على المعارف العقليّة و العناية باستقصاء الأفكار، و الغرض منه أداء الحقايق و قصد التّعليم و خدمة المعرفة و إنارة العقول، و يمتاز هذا اللون من الأسلوب بالدّقة و التّحديد و السّهولة و الوضوح في العبارة، و الولوع بالمجاز إلّا ما جاء عفوا و بالاحتراز عن كلّ ما يوجب الإبهام و الغموض كالألفاظ المشتركة.

۲. الأسلوب الأدبيّ

هو ما كان الكاتب فيه عالج قضيّة هزّت مشاعره و أثارت عواطفه فتأثّر بها و استجاب لها بكلّ كيانه، و هذه القضيّة هاهنا ليست موضوعيّة بل تعدّ مسألة ذاتيّة تلونت بنفسيّة الكاتب و اصطبغت بصبغته، فهو يعبّر بهذا الأسلوب عن مكنون نفسه و يفصح عن حقيقة حسه.

و يمتاز الأسلوب الأدبيّ بالجمال و الرّوعة و التّأثير، فهذه الصّفات ترجع في الغالب «إلى خيال رائع و تصوير دقيق، و تلمُّس لوجوه الشّبه البعيدة بين الأشياء، و إلباس المعنوي في ثوب المحسوس و إظهار المحسوس في صورة المعنوي» و إلى المحسنات البديعيّة و حظّه الموسيقي، فيكثر فيه الصّور البيانيّة كالتّشبيه و أنواع المجاز و الكناية، و المحسنات البديعيّة، كالجناس و الطّباق و السّجع و غيرها[1].

---

۱. دراسة و نقد...؛ ص ۳۶۴ـ۳۷۵ و أساليب البيان في القرآن؛ ص ۷۹۱.

المصادر

آقشهري، علی بن عثمان؛ مختصر الدسوقي علی مختصر المعاني؛ ترکيّه، مطبعة مکتب الصنايع، ١٢٨٧ هـ. ق.

ابن الأثير، ضياء الدين نصرالله بن محمد؛ المثل السائر في أدب الکاتب و الشاعر؛ مصر، الحلبي، ١٣٥٩ هـ. ق.

ابن جني، ابوالفتح عثمان بن جني؛ الخصائص؛ تحقيق محمد علی النجار، بيروت، دار الهدی، بلا تاريخ.

ابن رشيق القيرواني، ابو علی الحسن بن رشيق؛ العمدة؛ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت، ١٣٧٤ هـ. ق.

ابن فارس، احمد بن فارس؛ معجم مقاييس اللغة؛ تحقيق احمد محمد شکر، تهران، اوفست، ١٩٦٦ م.

أبو حاقه، احمد؛ البلاغة و التّحليل الأدبي؛ بيروت، دارالعلم للملايين، ١٩٨٨ م.

أبو داود سجستاني، سليمان بن الأشعث؛ السنن؛ مصر، الحلبي، ١٣٧١ هـ./١٩٥٢ م.

أبو نواس؛ الديوان؛ بيروت، مکتبه صادر، ١٩٥١ م.

احمد مطلوب؛ القزويني و شروح التّلخيص؛ بغداد، مکتبة النهضة، ١٩٦٧ م.

الباقلاني، محمد بن الطيّب؛ إعجاز القرآن؛ مصر، دارالمعارف، بلا تاريخ.

البرقوقي، عبدالرحمن؛ شرح التّلخيص؛ بيروت، دارالکتاب العربي، ١٣٥٠ هـ/١٩٣٢ م.

بکري، شيخ أمين؛ البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد (المعاني و البيان)؛ بيروت، دارالعلم للملايين، ١٣٩٠ هـ/١٩٨٢ م.

التفتازاني، سعدالدين مسعود بن عمر؛ المختصر؛ قم، أوفست.

ــــــــــــ؛ المطول؛ تهران، العلميّة الاسلاميّة، ١٣٧٤ هـ. ق.

الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر؛ البيان و التّبيين؛ تحقيق عبدالسلام هارون، مصر بلا تاريخ.

الجازم، علی و مصطفی أمين؛ البلاغة الواضحة؛ تهران، البعثة، ١٤٠٨ هـ. ق.

الجرجاني، عبدالقاهر؛ أسرار البلاغة؛ بيروت، دارالمعرفة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ م.

ـــــــــــ؛ دلائل الإعجاز؛ تصحيح محمد رشيد رضا، بيروت، دارالمعرفة.
الحسيني، السيد جعفر؛ أساليب البيان في القرآن؛ تهران، وزارة الثقافة و الارشاد الإسلامي، ١٤١٣هـ. ق.
الحلبي، شهاب الدين محمود؛ حسن التوسل إلى صناعة الترسل؛ تحقيق د. اكرم عثمان يوسف، بغداد، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
الخفاجي، عبدالله بن محمد؛ سرّ الفصاحة؛ مصر، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.
الرازي، فخرالدين محمد بن عمر؛ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز؛ القاهرة، ١٣١٧هـ. ق.
الرّضي، ابوالحسن محمد بن حسين؛ الديوان؛ بيروت، ١٣٨٠هـ. ق.
ـــــــــــ؛ المجازات النبويّة؛ تحقيق طه محمد، قم، بلا تاريخ.
ـــــــــــ؛ نهج البلاغة؛ تصحيح صبحى الصالح، بيروت، ١٣٨٧هـ. ق.
الزمخشري، محمود بن عمر؛ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل؛ مصر، بلا تاريخ.
السبكي، بهاء الدين تق الدين؛ عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح؛ ايران، اوفست.
السكاكي، يوسف بن ابي بكر محمد بن علي؛ مفتاح العلوم؛ بيروت، دارالكتب العلميّة، بلا تاريخ.
السيالكوتي، عبدالحكيم؛ الحاشية على المطوّل؛ استانبول، الشركة الصحافيّة، ١٣١١هـ. ق.
السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر؛ الإتقان في علوم القرآن؛ تحقيق محمد ابوالفضل، مصر، عثمان عبدالرزاق، ١٣٠٦هـ. ق.
ـــــــــــ؛ الجامع الصغير؛ بيروت، دارالفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
الشريف الجرجاني، السيد علي بن محمد؛ التّعريفات؛ بيروت، (مجهول الناشر)، ١٩٨٥م.
الطيبي، شرف الدين حسين بن محمد؛ التّبيان في علم المعاني و البديع و البيان؛ تحقيق د. هادى عطيّة، بيروت، مكتبة النهضة العربيّة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
عبدالرحيم العباس؛ معاهد التّنصيص على شرح شواهد التّلخيص؛ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة، ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م.
عبدالقادر حسين؛ فنّ البلاغة؛ مصر، دار النهضة للطبع و النشر، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
العسكري، أبوهلال الحسن بن عبدالله؛ الصناعتين؛ تحقيق محمد البجاوي، القاهرة، ١٣٧١هـ. ق.
العلوي، يحيى بن حمزة؛ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز؛ بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

فاضلي، محمد؛ دراسة و نقد في مسائل بلاغيّة هامّة؛ تهران، مؤسسة مطالعات و تحقيقات فرهنگي، ١٣٦٥ هـ. ش.

الفضلي، عبدالهادي؛ تهذيب البلاغة؛ تهران، المجمع العلمي الإسلامي، ١٤٠٥ هـ. ق.

فيروز آبادي؛ القاموس المحيط؛ ايران، طبع على الحجر.

القزويني، محمد بن عبدالرحمن؛ الايضاح؛ مصر، مطبعة السنّة، بلا تاريخ.

الكليني، محمد بن يعقوب؛ الكافي؛ بيروت، دارالتعارف، ١٤٠١ هـ. ق.

المبرّد، محمد بن يزيد؛ الكامل؛ تحقيق زكي مبارك، القاهرة، ١٣٥٥ هـ. ق.

المتنبي؛ الديوان؛ بيروت، دارالمعرفة، ١٩٧٨ م.

المدرس الأفغاني، محمد علي؛ المدرس الأفضل فيما يرمز و يشار إليه في المطول؛ قم، مؤسسة دارالكتاب للطباعة و النشر، ١٤١٠ هـ. ق.

المدني، علي بن معصوم؛ أنوار الربيع في أنواع البديع؛ تحقيق شاكر هادي شكر، النجف، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م.

الهاشمي، السيد احمد؛ جواهر البلاغة؛ بيروت، داراحياء التّراث العربي، بلا تاريخ.

اليازجي، الشيخ ناصيف؛ عقد الجمان في علم البيان؛ بيروت، مطبعة الأميركان، ١٩٠١م.